إلى القارئ

هذا العدد فاتحة السنة السادسة والعشرين

بقلم : البشير بن سلامة

هذا العدد الذى نبتدىء به السنة السادسة والعشرين أردناه مرآة أقرب ما تكون الى الصدق لمسيرة خمس وعشرين سنة من التعامل مع الانتاج الادبى والفكرى فى تونس ، واذا كان من السهل علينا ، عندما اصدرنا عددا خاصا بعد عقد من حياة المجلة اى سنة 1965 ، أن اخترنا لاغلب المشاركين من الادباء والكتاب نموذجا من انتاجهم يعبر عن مشاغلهم ويبرز اخص خصائصهم الادبية والفكرية فانه من العسير علينا بعد ربع قرن أن نتوخى نفس الطريقة نظرا إلى العدد الكبير من الاسماء التى تعد بالمئات والفيض الغزير من النصوص التى تحصى بالآلاف .

ثم ماذا يريد ان يعرف القارىء من مسيرة «الفكر» الطويلة وقد يتعذر عليه أن يستعرض خمسة وعشرين مجلدا ؟ هل يريد ان يعرف من ساهـمـوا فى «الفكر» ويستجلى ما كتبوه من مقالات ودراسات وقصة وشعـر ومـسـرح ؟ فلقد هيأنا لذلك فهرسا عاما لكل هذه المدة يصدر فى كتيب مع هذا العدد وعلى حدة وسيكون سجلا حافلا يدل على جانب وافر من الانتاج الادبى والفكرى فى تونس .

أم هل يريد القارىء أن يعرف التيارات التى هزت الحياة الادبية والفكرية أثناء هذا الربع من القرن علما منه أن دور كل مجلة ليس فقط أن تنشر ما ينتجه الادباء والكتاب بل هى تواكب الحركة الادبية وتستقطب التيارات الفكرية الدائمة منها والعارضة وتحفز الهمم وتجمع بين من لا يتسنى لهم ان يجتمعوا وتكون المدارس الادبية التى قد تثمر الثمرة الطيبة فتعطى انتاجا غاية فى الروعة والفن وقد تفرز الثمرة الفجة التى ما ان يتناولها القارىء حتى يرمى بها بدون حسرة وينسى وجودها ؟

لهذا آثرنا الاقتصار على محاور معينة تبرز هذه التيارات والمدارس والاتجاهات ، ولكن اعترضتنا صعوبة أخرى تتمثل فى أن مجلة الفكر لم تنشر فقط للتونسيين بل لعدد كبير من أبناء العروبة مشرقا ومغربا فكيف لنا أن نواجه ما يزخر به المشرق والمغرب العربيين من تيارات وحركات أدبية وفكرية؟ وركنا آخر الامر الى الاقتصار على الادب والفكر العربيين فى تونس . وقلنا ماذا يريد القارىء العربى وحتى الاجنبى عند اطلاعه على هذا العدد ؟ انه يبتغي ـ ما في ذلك شك ـ ان تكون له فكرة ، ولو عامة غير مفصلة ، على ما حرك همم الادباء والمفكرين فى تونس اثناء هذه المدة الطويلة وبكلمة أوضح ، فان هذا القارىء لن يكون من هم له الا الاطلاع على الحياة الادبية والفكرية فى تونس ، الحياة الزاخرة بكل جميل وقبيح وكل طيب وخبيث فقلنا فليكن ذلك اذن ؟

وبحثنا عن المحاور التى تبرز الحياة الادبية والفكرية فى تونس طيلة ربع قرن من خلال مجلة الفكر فوجدنا حسب تقديرنا انها لا تتعدى خمسة محاور .

1) المحور الاول يرتكز على ما الح عليه صاحب « الفكر » الاستاذ محمد مزالى فى السنوات الاولى من حياة المجلة شقا لطريقها وتوضيحا لمنهجها وتبيينا لماهيتها وقد تناول فى ذلك مواضيع عدة وجوهرية تهم الوطن التونسى بصورة عامة اذ كما لا يخفى على أحد أن ميلاد مجلة الفكر صادف ميلاد الدولة التونسية المستقلة . فكانت المجلة تسير على خطى مسيرة تونس المستقلة وتسهم فى نطاق اهتماماتها فى نحت الكيان التونسى العربى الاسلامى وبلورته .

لهذا جمعت فى هذا المحور عدة مقالات للاستاذ محمد مزالى مقتصرا عليه لانه القادر وحده على التعبير عن منهج المجلة وماهيتها . وعنونت هذا المحور بعبارة البدء .

2) أما المحور الثانى فيجمع عدة آراء تخص موضوعا لم يفتأ يقلق المجتمع التونسى فى جميع الميادين سواء كانت السياسية منها او التعليمية او الثقافية وحتى الاقتصادية وهو موضوع الاصالة والتفتح . فقد شغل هذا الموضوع الكتاب التونسيين كلهم ولهذا عنونا المحور على النحو التالى : فى أصالة الشخصية وتفتحها والكفاح من أجلها . ولم أقصر الامر على الشخصية التونسية ، اعتقادا من أن ارضية هذه الشخصية هى عربية اسلامية قبل كل شىء فانى لم أتردد فى ايراد نصوص تعكس كفاح بعض الشعوب العربية من اجل اثبات الذات وتأصيل الكيان .

3) ويقوم المحور الثالث على سبب من أسباب وجود هذه المجلة تأصيلا للكيان واثباتا للذات وهو خدمة اللغة العربية والفكر والادب العربيين اعتقادا منا أنا بذلك نخدم الثقافة الانسانية والانسان قاطبة . واقتصرنا فى هذا المحور على بعض المعالم الدالة على هذه الاهتمامات .

4) أما المحور الرابع فقد خصصناه للقصة التونسية وحاولنا ان نبرز بواسطته ما اسهمت به «الفكر» فى هذا الباب ، وما قامت به من دفع لتطوير القصة التونسية واثرائها . وكان لهذه المجلة على الاقل فضل الاقدام على نشر ما لم يتيسر لغيرها نشره اذ سمح ذلك بتفتيق قرائح كثيرة ودفعها الى خوض غمار الخلق وكسر القيود التى كانت تكبل القريحة التونسية من جراء ما أثخنت فيها عصور الانحطاط وأذاقتها عقود الاستعمار من مر المركبات والعقد .

5) وأخيرا أبقينا الشعر للمحور الخامس وحاولنا ان نعطى صورة تكاد تكون واقعية لاهم التيارات الشعرية وقصرنا الامر على المسائل الشكلية لانها هى التى شغلت الشعراء فى الواقع وجعلتهم يهتمون بها لانها تتحكم فى الصيغة التى بها يعبر عن طريق هذا الفن .

بهذه المحاور الخمسة ، وبهذا العدد الذى يقارب عدد صفحاته المائتين وكانت تكون أكثر لولا الخوف من عبء تكاليف النشر ، أبرزنا أهم ما حرك الحياة الادبية والفكرية فى تونس أثناء خمس وعشرين سنة . والمعذرة ان كنا قصرنا فى حق الادب والفكر التونسيين وفى حق الادباء والكتاب الذين لم نتمكن لضيق المجال من ايراد عينات مما اسهموا به من انتاج فى الفكر . وغاية ما أمكن لنا القيام به نحوهم هو ذكر أسمائهم سواء فى المقدمات التى سبقت المحاور أو فى الفهرس العام ، ولكننا نتجه اليهم والى كل من ساهم فى المجلة وأعان على تواصلها من قريب أو من بعيد بالشكر والامتنان بل يحق لنا ان نهنئهم اخلص التهانى لان «الفكر» منهم واليهم ولا يفوتنا ان نهنىء كذلك صاحب «الفكر» بهذه الثمرة الطيبة التى اثمرت على يديه .

والى اللقاء فى العدد الآتى الذى سيضم حصيلة ما سيفوح به الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس « الفكر » فى العاشر من أكتوبر 1980 .

البشير بن سلامة

الصّرح الأشمّ

شعر: أحمد اللغماني

صرحٌ (*) على جنباتِه ينهارُ　　بأس الطّغاة ، ويُقهَر الغدّارُ
صُلْبُ القواعد ، يالرّوعَةَ مابنى ،　　العزمُ الحديدُ ! وشيَّدَ الاصرار
هو صرحُ وَحْدَتِنَا الأشمّ ، ودرعُنا　　الواقي ، وحصنُ كيانِنا الجبّار .
لَبِنَاتُه التَحَمَتْ ، وَجَفّ لحامُها　　وتَرَابَطَتْ في رَصِّها الاحجار
شبرا ، فشِبرا كان سَمْكُ بنائه　　يغزو الفضاءَ فَتُبشِر الأقمارُ
في كلّ شبر منه قصةُ محنَةٍ　　رُجِفَتْ لها الصّفحاتُ والأسفار
بهتتْ لها قصَص البطولة ، وانثَنَتْ　　تَرْتَدّ عن خُيلائِها الأشعار .
وعلا البناء فكان عند نصابه　　وتركّزتْ أسُس ، وقرّ قرارُ
وَرَسَا رُسُوّ الطّود فهو مُحَصّن　　وسما سُمُوّ النجم ، فهو منار
ان تقذف الأحقاد من نيرانها　　فهو الجحيم ، تذوب فيه النّار
وان استطارتْ بالعواصف غُلّة　　ونكالبَتْ فهدوءُه اعصار
مهما تجبّرت القُوى ، وتطاولتْ　　للفتك ، فهيَ قواصرٌ وقِصار

(*) هذا القصيد ألقاه الشاعر بين يدى رئيس الجمهورية التونسية المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة فى عيد ميلاد سيادته السابع والسبعين ننشره فى هذا العدد الخاص بعيد ميلاد مجلة «الفكر» الخامس والعشرين .

قد تَنْسَفُ الدنيا ، ويبقى صامدا هذا البناء ، لأنَّه جبَّار

***

يا أيها المُهدى عصارة عمره للغير : لامَنٌّ ، ولا اشهار
الأسخياءُ رخيصةٌ أموالُهم لكنْ تَعِزّ عليهمُ الأعمار
منذُ انفطامِكَ قد فطمتَ نوازعا للنفس جامحة بها الأوطار
جاهدتَ نفسك فانثنتْ شهواتُها وأطاع أمرَك طبعُها الأمّار
كبُرتْ وسطَّرت المصيرَ انفسها فَبَدَتْ طريقٌ ، واستبان مَسار
وتملَّكَتْ أقدارَها فاستَسْلَمَتْ لطُموحِهَا ، وانْصَاعت الأقدارُ
نفسُ العظيم عظيمةٌ في مهدها ونفوسُ اشياخ الطّغَام صغار

***

عُمُرٌ كمسبَحَة التُّقى : حبَّاتُها من بين اكرم لُؤْلُؤٍ تُختَار
السَّبْعُ والسَّبعون في أحقابِها سُرُجٌ بها ظُلَمُ الزمان تُنَارُ
مَحْصيَّةٌ لحظاتُها ، ما أفْلَتَتْ في الحصْر ثانِيةٌ ولا مِعشار
ما ضاع منها في اللذائذ ليلةٌ أو تَاهَ في مَرَح الشباب نهار
فضميرُكَ اليَقْظَان يرسُم خطَّها في السير ، لازَيغٌ ، ولا ادْبار.
عُمُرٌ كحدّ السَّيف جُرِّدَ للوغى والموتُ في ساح الوغى خطَّار
يُخشى ، ويُحذَر مُشْرَعا أومُغمَّدا ماضي الصفيحة ، قاطعٌ ، بتَّار
جرَّدتَه للخير ، ماشابتْهُ شائبة ولا علِقتْ به أوضار .
صارعْتَ ذُلاًّ مُطبقا فصرعتَه لاحلفَ ، لامَدَدٌ ، ولا أنصار
قد كان حسبُكَ ان فكرَك عُدَّة ومضاءَ عزمكَ عَسكَرٌ جرّارُ
ولقد تَهُدّ الرّاسيات أناملٌ ولقد تفُتّ الصخرة الأظفار

***

ياراكبَ الأخطار ! هل هانتْ على أصحابها الأرواح ، والأعمار؟
عجبا لقلبكَ ! رقّةٌ ورهافةٌ في أحْلَكِ الأزمَاتِ لا يحتار!
الضِّدُّ فيه يستَقيم بضدّه فهما به الأُلاّفُ والأجوار
قد يُجمَعُ المتُنَاقضان بمُهجة فيكونُ مالا تُدْرك الأفكار
ويكون سرّ العبقريّ ، وآيةُ الأسرار : ألا تُفْهَمَ الأسرار

***

ياراكبَ الأخطار تُرغِم أنفهَا ! انّ الجرَيءَ تَهابُهُ الأخطَارُ
كم موعدٍ للفاجعات ضربْتَه وأتيتَه ، وجبينُك استبْشار
فوجدْتَه نارا يزفّ زَفيفُها ودخلْتَ : لا برَمٌ ولا استِنْكار
باللّمواعيد الرّهيبة ! أنسُها نار الجوى ، ومتاعُها إسعار
من حَمْأة الغِسْلِين يطعم ضيفُها أمّا الشّراب فعلْقَم ، ومُرار
في حين موعدُ بعضهم مقصورة يلهو بها ويعربدُ السُّمّار
والغانيات يَبِعنَ من سلع الْهَوَى بَيْعَ المَزاد فَترْفعُ الأسْعَار
وَضَمَائِرُ الأحْرَارِ في غيْبوبَة والعود يَنْقُرُ ، والكؤوس تُدار
وَكذَاكَ شأنُ العابِثِينَ فَلَيلُهمْ لَهْوٌ ، وَسُكْرٌ دائِم ،وَخُمارُ
واذا أطلّ صباحُهم فزعامة مزعومة ، ومَهَابَةٌ ، ووَقَار
أرأيتَ عدْلَ الدّهر في تصريفه؟ يشقى التُّقاةُ ، ويسعدَ الفُجّار
سُبحانك اللّهُمّ ! هلْ هي حكمةٌ خفيتْ ، فما نفذتْ لها الابصار ؟

***

يا جامعا للشّمل ، وهو مُشتّت ومكتلا للشعب ، وهو غبار
ومقيلَ عثرة تونس في سيرها حينَ المسيرة كبوَة وعثار
من كان يحسب ان اشتاتا تقاسمها صراع مُزمِن ، و شِجار
تلْتفّ حولكَ مثلما تلتفّ حولَ عميدها الانسابُ و الاصهار

من كان يحسب انّ تونس ، وهي «دُوّارٌ» بـه متـربّـص «دوار»
تُلقي العِصي وتستجيبُ كتائبا لمّا دعاها القائد المغـوار
وتسيرُ خلفكَ فيلقا مُتلاحِما فـإذا قـلاع الغاصبين دَمـار
واذا فُصول المسرحيّة تنتهـي وعلى «الحماية» تُسدل الاستار

***

هذا نضالكَ : مغنم ، وكرامـة وأولاء قومـك : سادةٌ أحـرار
ونضال غيـرك : خطبة ناريّـة و«مقُولَةٌ» مسعـورة ، وشعـار
أرأيتَ قوما يبذرون لـوحـدة ؟ والبذر شرّ ، والحصاد خَسار
باعـوا لابليسٍ ضمائرهم وقد اثرى الوسيط ، وأتخِم السمسار
قد بيّتُـوا في كلّ قُطر فتنـةً يا شُؤْمَ ما بُليتْ به الاقطَارُ !
لاحكمـة الحكمـاء ردّتْ شرّهم عنّا ، ولا التحذير ، والانـذار
صُمّ : فمن ذا يستطيع حِوارَهم؟ ومتى أفاد مع الاصمّ حِوار ؟

***

ليكـادُ يُضحكني النّداءُ لوَحدة الجَوْقُ طبّالٌ لها زمّـار
والشمل اشتـاتٌ تنافـر ودّهـا ونأتْ بها الاضغان والاوغـار
وشعوبُنَا تَتْسَاقُ صابـرة على أوجاعِهَا وسعيرُها مـوّارُ
تمضي سِنونَ وهمُّهَا هو همُّها وتلي سِنونَ وحالُها استقرار
خَلَصتْ من الدّخلاء واستعمارهم فأصابهـا من اهلهـا استعمـار
لكأنّهـا الحِملانُ إنْ امنتْ ذئاب الغاب شد وثاقها جـزار
وكأنّ مأساة العروبة وهي في جَبَهَاتِنَا تنكيسةٌ وصغـار
صارت مهـازل كُلّما عُرِضَت على رُكح الفضائح صفّق النُظّـار
فلأيّ جمهور يُقدّم عرضُهـا المُزرى ؟ وكيف تُوزّع الادوار ؟
ولمن يعود الرّبحُ من صَفقَاتها ومَن الزّبائنُ ؟ مَن هم التجّار ؟

هذي عروبتُنا ، وهذي حالُهـا   نحو الضياع يجرّها التيّـار
كالمركب المهجور اسْلَمَه إلى   أقداره الرّبّان و البحّـار
يا كاشف الأضرار ! كم مرّت على   ضَرَر يداكَ فزّالت الاضرار !

***

أرأيتَ بُستانا تبسّم للضُّحى ؟   وتمايستْ بعطائها الاشجار
وتطارحتْ أطيارُه نغم الهوى   وتعانقتْ ونهامستْ أزهار
يأتيه من هَمَج الفجاج مُخرّب   وبقبضتَيه الفأس والمنشار ؟
غرّتْ أهواءٌ ، ووهم حالِم   والوهمُ يخدَع والهوى غرّار
فاذًا هواه يشُدّهُ بخباله   وبها يُصاد كما يُصاد الفار

***

ونظلّ نعقِد كلّ فصل حلقة   تتلى بها الاوراد وا ذكار
يسعى اليها الطَّيبون على الهُدى   ويؤمُّها الخُلصاء والابرار
ولرُبّما ساءتْ نوايا بعضهم   فتشابه الاخيارُ والاشرار
وتغيَّرتْ قِيمٌ ، وولّت للورا   شِيَمٌ ، وحلّ مَحلّها استهتار
حُلْوُ الكلام يجُبّ كُلّ خطيئة   وعلى الجرائم تُقبَل الاعذار

***

يلتَامُ جُرح الغدر تحت ضماده   لكنّما تبقى له آثار
سيظلّ يكسو الغادرين معرّةً   نكراء ، منها يشمئزّ العار
ويظلّ يحيا في ضمائر شعبنا   غضبا يؤجّجُ نارَه التّذكار
مأساة قفصة سوف لن نُنسى وإن   غَبَرَ الزمان ، وبُدّلتْ أطوار .

أحمد اللغماني

البدء

في هذا الجزء من العدد الذي عنونا صفحاته بعبارة « البدء » أردنا أن نسجل أمرين :

أولا : أن ما كتبه صاحب « الفكر » الاستاذ محمد مزالي في السنوات الاولى من نشأة المجلة نابع عن ايمان بجملة من المبادىء والمثل عبر عنها في وضوح وبيان مرموق لفت الانتباه في ذلك الوقت وجعل ثلة من الكتاب والادباء كهولا وشبابا يلتفون حوله ويمدون المجلة بانتاجهم من دون بخل ولا احتساب .

ثانيا : ان صاحب « الفكر » لم يحد عن هذه المبادىء والمثل قيد أنملة سواء في ادارته للمجلة أو ممارسته للمسؤولية الحكومية والنضالية أو اضطلاعه بمهام وزير اول منذ أفريل 1980 .

لهذا ، أحببنا ـ بايراد بعض المقالات المنشورة في بدء صدور المجلة ـ ان نذكر بأن ما يصدع به محمد مزالي اليوم من أفكار وآراء في خطبه الموجهة الى الشعب انما بذورها كانت موجودة في هذه المقالات التي تناولت أهم مشاغل الانسان التونسي الدينية والسياسية والفكرية والأدبية .

فكان بدءا ونعم البدء ! اثمر هذه القطوف الدانية .

الاخلاص للفكر

بقلم : محمد مزالي

ان المجتمع التونسي اليوم (*) يجتاز مرحلة دقيقة في حياته هو في اشد الحاجة الى ان يعرف نفسه ويعي منزلته ويوضح أهدافه ويضبط سبلها فسنة الحياة تقتضيه ان يخرج من السلبية الى الايجابية وان يصهر ما في نفسه من امكانيات وان يتميز ككائن حي سوى وان ينفرد كشخصية مستقلة .

ولعل حياتنا الفكرية هي أدعى الى ان ينظر فيها ويعتنى بها .

ذلك ان المتأمل في روحانيات مجتمعنا وفي شؤونه المذهبية والعقائدية يلاحظ فراغا مريعا فنحن تواقون الى مثل عليا نريدها هادية لنا مرشدة ايانا عندما تلتبس بنا المواقف وتغمض السبل ، ونحن شاعرون بقوة التيارات الفكرية الاجنبية التي تحاول جرفنا الى ما لا ارتياح معه ولا وثوق به . فنحن احوج ما نكون اذن الى مذهب اصيل منتزع من واقعنا ومستلهم من ماضينا وحاضرنا يلقى اضواء ساطعة على مختلف جوانب حياتنا ويكسب اعمالنا معنى ساميا .

واعتقادنا ان الاخلاص للفكر في اشمل قيمه واسمى معانيه خير ضمان لبلوغ الهدف .

بالفكر نوفق الى وضع المشاكل الوضع الصحيح والى علاجها العلاج الناجع وبالفكر نتمكن من السير على هدى نحو مذهب تونسي صميم اصيل يزيل حيرتنا ويسمو بنا .

فاذا امكن لهذه المجلة ان تكون ملتقى المثقفين في هذه البلاد حتى يعالجوا مشاكلهم على ضوء الفكر فانها تكون قد قامت بنصيب متواضع من عمل انشائي اكيد .

بقلم : محمد مزالي

(*) س I ع I ص I سنة 1955

آثرنا العظمة على السعادة
بقلم : محمد مزالي

نحن فى هذه المجلة نعتقد ان الحرية هى اقدس حقوق الفرد واعظمها قيمة وادلها على كرامة الانسان وحرمته هــى ضرورية له وللجماعــة ضرورة الهواء للرئـــة .

ونحن نؤمن كذلك ان اهم مظهر لتلك الحريــة واجل صورة لها هى حرية الفكر ، فلا يمكن ان نعالج قضايانا ولا يتيسر ان ننظر فى مشاكلنا ونوجد لها حلا ما لم نسلم بان « الذوق السليم » كما يقول ديكارت ــ هو اعدل الاشيــاء قسمة بين الناس وما لم نقتنع ــ مخلصين ــ بان حظ الناس من الحقيقة ومن التوفيق الى معرفة الحقيقة واحد .

ذلك معناه انه من الغبن فى ذات البشرية ومن الاجرام فى ذات الفكر كبت التفكير الحر او حصر الحقيقــة فى فرقة دون فرقــة او مذهب دون مذهب او عصر دون عصر .

ومعناه ان الحقيقــة ــ ان كانت ــ ثمرة بحث مستمــر وطلب دائم . هــى « بناء » يساهم فيه البشر جميعا انى عاشوا وحيثما وجدوا .

ومعناه أيضا انه من الصلف المقوت أو من الكســل العقــلى السخيــف ان يرتاح المرء الــى بعض الاوهام او التصورات اعتقدهــا الحق ويعرض عن المناقشة والنقد ويهرب من « مأساة » الفكر فى طلبه وسعيه ومعاناته .

ونحن فى هذه المجلة آثرنا « العظمة » على « السعادة » .

(*) الفكر س ١ ع 2 ص ١ سنة 1955

نحن لا نريد حرية زائفة

بقلم : محمد مزالي

لا نزال فى هذه المجلة ننادى بحرية الافراد والجماعات(*) لانها ــ فى رأينا ــ من اهم مقومات « الانسان » الذى نحترمه فوق كل شىء .

وللحرية جانبان هما كصفحتى ورقة بيضاء لا سبيل الى الفصل بينهما وما من شعب او فرد حاول ذلك الا طمس معالم الحرية وشوه صورتهـا ومسـخ معناها .

الحرية حق مقدس وواجب اكيد : مظهران لماهيـة واحدة وجوهر واحد اذا فقد احدهما او اختل التوازن بينها انقلبت الحرية فوضى او آلت الى استبداد وفى كلتا الحالتين هزيمة « الانسان » .

ونحن فى هذه المجلة انما نادينا بمجلس تأسيسى ليحدد حقوق المواطنين وواجباتهم حتى يتعايشوا فى كنف الحرية الحق الواعية على أرض هذا الوطن العزيز اخوانا متحابين لا ذئابا متناحرين .

ذلك معناه ان الديمقراطية التى نحن على أبوابها يجب ان نحققها سليمـة قويمة مبرأة من كل شائبة ، فلعلنا ــ اذن ــ ان نكون ايقاظا وان نحسن الاختيار حتى لا تصبح مجالسنا مسارح لأقسى المهازل وقعا وحتى لا نصنع بأيدينـا القيود التى سنتقيد بهـا من جديـد ...

وكم من عبوديـة ترفل فى زى الحرية الكاذبة التى ليست لهـا من وظيفة سوى ذر الرماد فى العيون واخفاء قيود الجهل والبؤس والحيف الاجتماعـى واختلاس المحظوظين كد الكادحين ...

نحن لا نريد حرية زائفة ، نحن نريد « الحرية » .

(*) الفكر س I ع 4 ص I سنة 1956

حرمة الانسان فوق كل اعتبار

بقلم : محمد مزالي

نحن فى هذه المجلة نقدس «الانسان» (*) ونضع حرمته فوق كل مقام واعتبار والانسان – عندنا – ليس ذلك « الكائن المثالى » او تلك « الصورة المجردة » التى ينصرف بعض المفكرين بالتأمل فيهـا عن دنيا الناس وواقع البشر ، انما الانسـان فى نظرنـا ذلك الكائن المشخص الحسـى المكـون من لحـم ودم و « الموجود » فى وضعية تاريخية مضبوطـة .

كذا لم نفتا منذ ان برزت المجلة للوجود تنادى بحرية الانسـان ونذود عن كرامته وننصر حقوقه الطبيعية ، فكان موقفنا من قضية اخواننا ابناء الجزائر الشقيقة واضحـا صريحا ، لم نطل الخطب ولم نسهب القول ولم نجنح الـى السباب والشتم لكننا لم نصمت ولم نحذر بل كنا فيما نشرناه ، نثرا وشعرا ، اوفياء لانفسنا مخلصين لمبادئنا ثابتين فى ايماننا .

واليوم وقد تجاوز الامر حد القمع الى الحرب واصبح التقتيل والتعذيـب والتدمير شعارا للجيوش ودأبا ، نرى لزاما علينـا أن نعلـن عـن شديـد استنكارنا لهذه التصرفات العمياء التى يذهب ضحيتها آلاف الابرياء ونشهر بأعمال جيش الاحتلال القاسية تشهيرا يهتز له الضمير البشرى .

لقـد قضت طبيعة الاشياء ان تكون الجزائر امـة عربية اسلامية مغربيـة ، فليعلم الساسـة الفرنسيون ان قوة الحديد عاجزة عن تغيير طبيعة الاشيـاء خاصة فـى عصر تيقظ فـيه الضمير العالمى ونهض العالم العربى الاسلامـى شرقيه وغربيه نهضته المعروفة وفاز المغرب الاقصى وتونس باستقلالهما بعد كفاح مرير .

ثم نحن نريد ان نذكر القوم اننـا لم نقف الى جانب الجزائر المكـافحـة تعصبـا او انسياقا للعاطفة وانما القضية قضية بشريـة وقد قلنا فى احـدى افتتاحياتنا : « ان الحرية كل متماسك الاطراف اذا أصابها الضيم فى ميدان أو شخص أو فريـق فانما تكـون حينذاك مهددة فـى وجودهـا وجوهرهـا واساسها » .

فليتعظ القـوم بتاريخهم هم وبتاريخ الشعوب فى هذا العصر ان كانوا من أولى الالبـاب .

(*) الفكر س 1 ع 8 ص 1 سنة 1956

لا وهم ... ولا إيهام !

بقلم : محمد مزالي

نحن فى هذه المجلة لا نزال نخدم الفكر (*) ولا نزال نسلطه على مشاكلنا المتكدسة نضيئها بنوره ونسعى الى حلها بهديه ، والكفر – فى اعتقادنا – ليس تصورا مطلقا علويا كالنجم فى لا نهاية السماوات يتأمله الخاصة فيتيهون فى بيداء خيالهم ويقصر عن ادراكه العامة فيطغى عليهم الواقع فيذوبون فيه وتذوب شخصيتهم ، انما الفكر موقف يقظ وعمل يقظ ذكى وآلة بها نغير الكون ونقده على قد مثلنا العليا فى هذه الحياة .

لذا لم نفتا – منذ ان برزت هذه المجلة للوجود – نجتنب الوهم والايهام وننبذ « ادب » الاخلية المريضة استعاضت عن فحولة الخلق بميوعة الاجترار والتكرار وآثرت « رقة الوجد العليل » على « بهجة الامل العريض » ولم نفتا – كذلك – بالمرصاد لصنف من المتأدبين المساكين فرغت عقولهم وامتلأت النوادى واعمدة الصحف بهذيانهم ، تقرا لهم المقال او القصيد او حتى التأليف فتبهر بزخرف لفظه و « روعة » بيانه ثم تبحث عن المعانى التى اليها قصدوا او الفكر التى عنها عبروا فلا تكاد تظفر ببغيتك ، نحن اعداء القيم الزائفة اذن نشفق على انفسنا وعلى امتنا من افيونة المحترفين لقد اخذنا انفسنا مأخذ الجد ووعينا رسالتنا كامل الوعى فتصدينا للصلد نعالجه وللواقع نتعرف اليه لنؤثر فيه ونغير وجهه .

وذلك واضح فيما كتبنا ونكتب حول مسائل التعليم وشؤون الثقافة واحوال الناس واساليب تفكيرهم ونماذج حياتهم وفيما يتوقون اليه ويحرصون عليه من عزة وكرامة وحرمة وحرية وكل ما به يشرف الانسان ويبلغ تمام انسانيته وذلك واضح ايضا فيما نشرنا وننشر من قصص واشعار تصور

(*) «الفكر» س 2 ، ع 2 ، ص 1 سنة 1956

آلام البشر وآمالهم وتعكس حياتهم فى سرائها وضرائبها وتفتح عيونهم على منزلتهم وتدفعهم الى التسامى والتجاوز وافتكاك السعادة .

هذا الاتجاه سنسعى الى البقاء فيه والاخلاص له والعمل من اجل توضيحه وتركيـــزه .

ويحرصون عليه من عزة وكرامة وحرمة وحرية وكل ما به يشرف الانســان ويبلغ تمام انسانيته . وذلك واضح أيضا فيما نشرنا وننشــر من قصص واشعار تصور آلام البشر وآمالهم وتعكس حيـاتهم فى سـرائها وضـرائها وتفتح عيونهم على منزلتهم وتدفعهم الى التسامى والتجاوز وافتكاك السعادة .

هذا الاتجاه سنسعى الى البقاء فيه والاخلاص له والعمل من أجل توضيحه وتركيـزه .

محمد مزالـي

يحـاول الكتاب الافـذاذ (*) ورجـال الفكـر الاحـرار تنشيط مجتمعاتهم وتجديد قيمهـا . كما يحاولون ايقاظ ضمائـر معاصريهم وحملهم على « تعديل ساعاتهم » حتى لا تتجاوزهم الاحداث ويصيبهم الجمود . وكثيرا ما يثير هـذا العمل المتمثـل فـى الخلق الادبـى والابداع الفنـى والتجديد الفكرى حفيظة الناس ويجلـب سخطهـم لأنه يقلق معتقداتهم وينغص عليهم طمأنينتهم وقد يعبـر عن كسلهم وقصورهم وعجزهم . بل ان تاريخ الحضارات يكـاد يكون انعكاسـا لهذا التقابل بين الفكر الحـر والمجتمع المحافظ ، بين قوى التقدم الحية وعناصر الرجعية المتجمدة . وقـد يكون « كامو » عبـر عـن هذه الحقيقة الدائمة عندما قال « ان اتجاه تاريخ المستقبل لن يكون ما نعتقد أنه سيكون . انه يتمثل فـى الصراع بين صولـة الخلـق وخنق حرية الفكر ! »

محمـد مزالـــى

(*) الفكر س 15 ع 3 ص 1 سنة 1969

قواعد ذهبية

بقلم: محمد مزالي

ان العقل ـ منذ ان كانت «الفكر» ـ هو رائدنا ، (*) على ضوئه سرنا ، ومنه انطلقنا « مجتهدين » ما وسعنا الاجتهاد ، واياه سلطنا على ما اعترضنا من قضايا وما جد في شؤون حياتنا هذه الجديدة المتجددة ، وفي تطور مجتمعنا هذا القافز ـ في كل يوم ـ قفزات ثابتة هي مراحل زكية في تحقيق ثورتنا الكبرى ...

ولئن كان العقل ـ بصرك الله بحكمته ـ هو النظر الثابت المجرد عن اهواء النفس ، البعيد عن العاطفة والاسترخاء فانه في جوهره تدبر وأناة ، لا انفلات وتهور ؛ فلا فائدة لنا منه ، ولا هدى ولا رشد الا اذا اقترن بالواقعية ، والا اذا كان بظروف البيئة لاصقا ، والا اذا كان بملابسات المجتمع عالقا .

فالعقل ـ او قل ان شئت الفكر ، والاجتهاد ـ لا تحترم قواعده ، ولا تثبت اسسه حتى يكون بالعمل ، وبامكانية التبلور ...

وهذه المجلة ـ وانت على ذلك شهيد ـ لا تني منذ ان برزت ـ وما زلنا اذذاك نستشف طرق البناء والتأسيس ، تعمل بهدى الاجتهاد العقلي ، وتسير بنور الفكر ... تمكن المثقف من التفكير والخلق والاجتهاد ، وتوفر له اسباب المساهمة في اقامة هذا المجتمع الجديد ... وتفتح له باب النقد النزيه فيما تنشره ... ودونك دليلا قريبا منك ، هذا العدد من المجلة المليء بالنقد والآراء المتضاربة المتلاحقة ...

وكان رائد هذه المجلة التفتح الفكري ، على اساس الغيرة على المبادىء ، واحترام الاشخاص ؛ على اساس طلب الحق والرغبة عن الاعراض ، فالجوهر يبقى فيثبت ، والعرض ينخرم فيتقلقل فيتلاشى ...

على هذه القواعد الذهبية عاهدنا القارىء والمواطن ، وحسبها نواصل السير ، شعارنا الاجتهاد والعقل في غير ابتعاد عن حقيقة واقعنا ، والعمل في غير كلل ...

(*) الفكر : س 5 ع 7 ص 1 سنة 1960

دفاع عن "الفكر"

بقلم : محمد مزالي

الى الاخ حسن عبـاس .

نعم طلبت اليك ايها الاخ ان تنقد فى مفتتح السنة الثانية من حياة مجلـة الفكر (*) ، لا مقالا بعينه ولا حتى عددا بالذات وانما الاتجاه العام للمجلة فى هذه الفترة الدقيقة المتازة من حياة الامة التونسية خاصة والمغرب العربى عامة حتى نضبط نحن المسؤولين عن هذا المشروع والقراء ايضا حظها من التوفيق فيما اضطلعت به من جسيم المسؤوليات فى دنيا الثقافة وعالم الفكر .

ذلك انا تحمسنا لهذا المشروع واقدمنا على انجازه ، رغم ما كنا نتوقعه من مصاعب وعقبات اثبتت التجربـة انها لا تزال قائمة كؤودة لاعتقادنا الراسخ ان المثقفين اليوم مطالبون بعمل قد لا يقل خطورة وضرورة عن ذلك العمـل العظيم الذى قام به زعماؤنا الابرار فى ميدان السياسـة اذ خلصـوا البلاد من قبضة الاستعمار وانتشلوها مما كان يهددها من تفسخ وانهيار وانقراض .

لقد دفعنا الى بعث « الفكر » لنمكن رجال الفكر من تخليص تراثنا الثقافى مما علق به وعشش فيه من غريب النزعات واجنبى التيارات وخادع المظاهـر وبالخصـوص لنمكنهم من ايجاد تلك القواعد الروحية والفكرية الثابتـة التى يقام عليها صرح الامم والتى دلت القرون تلو القرون على انه ما من امة فقدتها او زاغت عنها الا تاهت وتهافتت وذابت شخصيتها وباءت باحتقار الانسانية .

وقد اجتنبنـا منذ البدايـة خطرين كثيرا ما وقعـت فى احدهمـا المجلات والمشاريع الادبيـة بصورة عامـة .

(*) الفكر س 2 ع 4 ص 72 الى 77 سنة 1957

الخطر الاول هو خطر الاطمئنان والراحة العقلية ، فنحن لم نضع باوقاتنا لنخلق مشروعا غايته نشر ما يمكن نشره و « امتاع » القراء بما يتفضل به علينا ... صندوق البريد مما قد لا يوجد بينه انسجام ولا يتبين معه اتجاه وتظهر منه وحدة فكانه الفسيفساء ... لقد رسمنا لانفسنا خطة من اول يوم ووضعنا هدفا وتحملنا رسالة لانا شعرنا بفراغ فى حياتنا الفكرية ولان القلق اعترانا والتساؤل فى شؤون مصيرنا ألح علينا ، فنحن حينئذ شاعرون بما ينقصنا وشاعرون كذلك وبالذات بوجوب استكماله .

اما الخطر الثانى فهو التمذهب « القبلى » والتسليم ببعض الحقائق او المبادىء المقدسة ثم التصدى الى الدفاع عنها والتحمس لها فتنقلب المجلة فى هذه الصورة بوقا لفلسفة بعينها ولا يعدو الكاتب ان يكون كالجندى يحارب من أجل قضية قد لا يدرى هل هى « حق » فى حد ذاتها ولكنه آمن بها فطغت عاطفة الايمان على نور العقل فى بحثه وتثبته وتشككه ومعاناته للتمييز بين الحق والباطل والخير والشر والجميل والقبيح والنسبى والمطلق .

شعرنا بذينك الخطرين وحاولنا اجتنابهما قدر المستطاع وعملنا فى صمت طيلة سنة كاملة رغم المصاعب المادية والنفسية التى لا يعرفها الا من مارس هذا النوع من العمل واصطدم بواقع الناس والاشياء على ان اعضاء أسرة الفكر ادرى الناس بالبون الشاسع الذى لا يزال يفصل ما بلغته مجلة « الفكر » وما نرجوه جميعا ونسعى اليه لذا اردنا ان نحاسب انفسنا وننظر الى الوراء كى نعير ما انجز وما بقى انجازه .

من اجل كل ذلك ـ وفى نطاق تلك المشاغل ـ رجوت منك ـ ايها الاخ ـ ان تحكم على الفكر فى سنتها الاولى عسى ان تنير ـ وغيرك من القراء ـ ما يكون قد غاب عنا او غمض علينا ، لان تعلقنا « بالفكر » وتحمسنا له لم يبلغا حد الهوى او « المحبة الغالبة » كما يقول الفارابى وقد استجبت فاتسع صدرنا لجوابك ورحبنا به وقدرنا فيه الشجاعة والوضوح والرصانة التى كثيرا ما اعوزت النقاد عندنا .

وعلى انى كنت راغبا فى الرد على بعض ما جاء فى نقدك فقد امسكت عن ذلك وانتظرت رسائل القراء وآراءهم حرصا منى على ايجاد « حوار » نزيه بين قراء المجلة لا تخفى فائدته فى هذا الميدان .

فلم نتصل الا برسالة الاستاذ محمد الصالح بن ابراهيم الذى حاول ان ينصف المجلة وان يتبين معالم هذا المذهب الجديد الذى ننشده .

فلا بد اليوم وقد مضى شهران على نشر كلمتك ـ من الرد ولا بد من توضيح الموقف .

لقد بدأت فقسمت المجلات الثقافية الى صنفين كبيرين : صنف المجلات « البرجوازية اليمينية » التى تدين برأس المال وبالمحافظة على النظام الطبقى وتحترم الاديان السماوية ومن بينها ـ فى رأيك ـ مجلة « الاديب » البيروتية ومجلة « ايسبرى » الفرنسية ، وصنف المجلات « الوقورة » اليسارية التقدمية التى تصادمك « بالاحصائيات وجداول الارقام » والتى « لا ترى فى الحب سوى النسل وانتشار العمران ولا تتصور الادب الا ادبا ملتزما ... وتدين فى الاقتصاد بالاقتصاد المسير وتعتنق اللائكية المطلقة وتعتبر الاديان السماوية مخدرات للشعوب وتعتنق فى السياسة مقررات باندونغ والتعايش السلمى » .. ومن أشهر هذه المجلات ـ فى رأيك مجلة « الثقافة الوطنية » فى الشرق ومجلة « لابانسى » فى فرنسا ...

بقى بعد ذلك ان نتساءل عن الصنف الذى يمكن ان تنتسب اليه «الفكر» ترى

هل هى يمينية أم يسارية ، رجعية متعفنة أم تقدمية نظيفة ؟؟ فكان منهجك لا النظر فى محتوى المجلة بصفة عامة واستخلاص اتجاهها من مجموع ما ينشر على صفحاتها ومما لا ينشر ايضا ويجتنب عمدا بل التأمل فى افتتاحياتها وفيما تدل عليه من مواقف وتومىء اليه من اتجاه مذهبى ويظهر ان « الفكر » استعصت عن الحد وضاقت عن كلا الصنفين فليست هى بالمجلة اليمينية الرأسمالية ولا هى بالمجلة اليسارية الخادمة للتقدم ورفاهية الشعوب هى فى منزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة اخص خصائصها بعد ذلك ادعاء خلاب النظريات وبراق المبادىء ثم الاغراق فى الغموض والهروب من المواقف الواضحة البينة ، وكانت الخاتمة تحمل من التفاؤل بمستقبل المجلة ومن حسن الظن باسرتها ما اراني مضطرا الى شكرك عليه ، الم تختم نقدك بقولك : « ولكن عهدى باسرة « الفكر » قد آثرت العظمة على السعادة » .

اريد بعد ذلك ان اصارحك بانى أختلف معك فى تقويم الاشياء اختلافا اخشى ان يكون جوهريا .

فليس من همى الآن ان اتناول المجلات الادبية بالبحث والمقارنة واتعرف الى ايهـا اقرب من التقدم وأدنـى الى المثل العليـا او ان انفى بعض التهم عن مجلة « اسبرى » مثلا تلك المجلة التى لا يقل ايمانها بالله عن ايمانها بالعدالة الاجتماعية والتى كان مديرها ومؤسسها « امانويل مونيى » مثالا فى الاستقامة العقلية والاخلاقية ومثالا فى الشجاعة والاخلاص الى المبادىء السامية رغم ما قاساه من مناف وسجون ايام الحرب العالمية الثانية مما ذهب بصحته واودى بحيانه ، فاهل مكة ادرى بشعابها واسرة « اسبرى » اقدر على الدفاع واقوى على دفع الشبهة ... او ان ابحث عن الحدود التى تفصل واضح الفصل وابقاء « اليسارية » عن « اليمينية » والنزاعات التى قد توجد فى كلتيهمـــا ...

وليس من همـى كذلك ان انقد المنهج الذى سلكته للحكم على « الفكـر » فقد اقتصرت على الافتتاحيات وما تساءلت هل يمكن استخلاص اتجاه عام من خلال المحتوى كما فعل مراسلنا الفاضل الاستاذ محمد صالح بن ابراهيـم ، ولا ان انبهك الى ان شيئا مما اتصفت به المجلات الزائفة حقا من تزلف عظيم او تملق حاكم او اغراق فى الادب الباكى النائح او تكلف او ادعاء وتناقض لم ينشر قط وان فـى ذلك موقفا واضحـا ووعيا لما يجب اجتنابه تمهيدا الى ما يجب الاقبال عليه والبحث عنه والتمسك بـه .

ليس همى كل ذلك بل غايتى ان اصارحك ان ما تراه ضعفا اعتبره انا قـوة وضمانا للمستقبل ، فضعف المجلة ناشىء ، فى رأيك عن هروبها من الاختيار وترددها بين السبل التى تجدها امامها وانت تعتقد « انـه لا مناص لها من ان تختار بين اسلوبى العيش والحكم والتفكيـر اللذين يقتسمان العالم فى هذا النصف الثانى من القرن العشريـن وهما بصورة اجمالية الاسلوب الروسـى والاسلوب الامريكـى » .

ضعف المجلة ناشىء ، فى زعمك « عن اقتصارها على ذكر الحرية والمساواة والعدالـة دون توضيح الطريـق الموصـل اليهـا واكتفائهـا بترديد كلمـة الديموقراطية دون بيان « الاسلوب » الذى به تتحقق الديمقراطية .

ويكفى لينقلب ضعف المجلـة قوة ان نعتنق المذهب الشيوعى ، ولكن اى المذاهب الشيوعية هـو ؟ مذهب تيتو ، ام مذهب شعب المجر ، ام مذهـب الحـزب الشيوعى بروسيـا قبل وفاة ستالين او بعد وفاته ؟؟.. وان نختـار اسلـوب العيش والحكم والتفكير الروسـى ، معنى ذلك انه يجب ان نطـوى

مرحلة البحث والطلب طيا وان نؤمن بان الحب ليس الا النسل وانتشار العمران وان الادب ملتزم ؟ او لا يكون وان الفرد « كمشة مجهولة » امام المجتمع « الالة » وان الاقتصاد هو سر الحياة والمكيف لها وان نعتنق اللاائكية المطلقة و « ندين » بان الاديان السماوية مخدرات للشعوب ... يجب ان نؤمن بكل ذلك وندعو له ونبشر به و « نجتره » اجترارا منتظرين الوحى من « موسكو » كلما جد جديد او حدث حادث ... بذلك يزول التردد وينقشع الغموض ونسمو من حضيض العاطفة الى سماء الفكر ....

انا لا ارى رأيك لانى ــ اولا ــ لا اومن بانقسام العالم الى معسكرين بصورة نهائية اذ كل شيء ينبئنا اليوم بان الشعوب لا تحرص على شيء كما تحرص على استقلالها الفكرى والمحافظة على طرافتها الذاتية واخص خصائصها القومية وكل شيء يدلنا على ان امة من الامم ليست خيرا فقط ولا شرا فقط ، وعلى انها خاضعة ــ جميعا ــ للتطور مطيعة للتاريخ ودليل ذلك انه يوجد فى ما يسمى بالمعسكر الرأسمالى احزاب وكتل تؤمن بالعدالة الاجتماعية وتدين بالاشتراكية وتذهب الى ابعد حدود التضحية من اجل افكارها . انظر مثلا الى بطولة الاستاذ « مندوز » المدرس بجامعة « سترازبور » بفرنسا وما ناله من عذاب وسجن من اجل دفاعه عن الحرية والكرامة البشرية المهانتين فى الجزائر ــ كما يوجد فى المعسكر الشيوعى شعوب وافراد لا يبخلون بحياتهم ليقاوموا الاجنبى ولو كان روسيا بل انظر الى شعب المجر ... ولا يفرطون فى حقهم فى الحرية كلفهم ذلك ما كلفهم .

ولا ارى هذا الرأى لانى اشفق على امتى من التقليد ولا اريد لها ان تلبس ما لم يقد على قدها ولا ان تعتنق غير ما تنتجه قرائح ابنائها وينبثق عن التربة المباركة التى انبتت امثال ابن خلدون ...

ثم انى اخالف هذا الرأى لانى اومن بالفكر فى اسمى معانيه وانبل غاياته الفكر لا يشرف الا اذا « حل » فى الواقع وتسلط عليه واقتحمه وجها لوجه وعالجه حتى فجر اسراره وراضه حتى اذعن وتمذهب ،الا انه وقد قام بدوره وغالب الواقع فغلبه لا يفتر ولا يتعطل نشاطه بل هو يتجاوز المحدود ويتحدى المكانية والزمانية فاذا بوجوه جديدة للواقع فلا يلبث الفكر ان تعود اليه صولته ويكون الخلق متجددا .

وقد تقول : ــ ويكون قولك حقا ــ ان هذا المذهب لم نوجده بعد وان الواقع التونسى لم تتفجر اسراره الى اليوم ، وليس فى هذا ما يضيرنا او يشوب

ثبل العمل الذى اعتزمنا ، اذ نحن لا نخلق الا ما نستطيع خلقه ، وليس فـى سنـة يمكن تلافى ما اهملـه الاسبقون وحجبه صدا عصور الانحطاط وعهـد التواكل والتخـاذل ، انما الجهـد والسعـى والمثابـرة معيار وسـر النجـاح ولا اظن ان التفاؤل يكون وهما اذا كانت الثقـة فى النفس وكان الاخلاص فـى العمل وكان الصدق فى تبين الحق وتعرف الخير وتحسس الجمال .

علـى ضـوء ما سبق يزول ذلـك الغموض الذى بـدا لك فى افتتاحيـات « الفكـر » لان معناها هو ان هذا المذهب التونسي او المغربى الذى ننشده مهمـا كان فهو لن يكون الا خادمـا للانسـان حافظا لحرمته ضامنا لحقوقـه المقدسـة فى الحريـة والعدالـة الاجتماعيـة ، وهذه المبادىء تصبح بمثابة « الموضوعـات » فى الهندسة تقـام على صرحهـا فلسفة برمتهـا كما اقـام « اقليدس » هندسة برمتها على صرح موضوعاته الست .

الا يتبين لك بعد هذا انه يمكننا حينئذ ان نشارك الامم مرفوعـى الرؤوس موفورى الكرامة لانا نكون قد اتينـا بزادنا واضفنا الى تراث البشريـة الخالد قسطنـا المتواضع ؟ الا يتبين لك بعد هذا أنه يمكننا أن نتعايش مع غيرنا من الامم مسالمين متحابين ؟ ألا يتبين لك ان فوزنا بمذهب تونسى او مغربى صميم لا يناقض تعلقنا بمقررات « باندونغ » التى تعلقت بها شعوب اخرى كثيرة لم « تختر » الاسلوب الروسى فى الحياة (اندونيسيا الهنـد ...)

لا شك ان « عهد الابراج العاجية » قد تولى بلا رجوع وانه اصبح من المتحتم على المثقف والاديب والفنان ان تشمل شواغلهم لا ميدانهم الضيق فحسـب بل مختلف ميادين نشاط الانسان من سياسة واقتصاد واجتماع وتربيـة ... وان يتخذوا فى خصوصها جميعا موقفا صريحا ، ولا شـك ايضا ان سـاعة الاختيـار قد دقت و « هى ساعة امتحان ومحنة » ولكننـا اخترنـا بعد ، نعـم لقد اخترنـا الا نذوب فى غيرنـا والا نعتنق مذاهـب جعلت لبيئة غير البيئـة التونسية واستنبطت من معطيات غير معطيات الواقع التونسى ـ ولو اكتفينا بتقليـد الغير وترديد ما تنشره المجلات الاجنبية لوفرنا على انفسنا الاتعاب ولزالت حيرتنـا واصبنا السعـادة ، لكننـا اخترنا تسليط الفكر على واقعنا واعمال النظر فى مشاكلنا القومية والاعتماد على أنفسنا من أجل الظفر بمذهب تونسى صميم يكسب اعمالنا واقوالنا معنى ... لانا بالضبط آثرنا العظمة على السعـادة .

محمـد مـزالـى

في التمثيل الديمقراطي

بقلم : محمد مزالي

نحن في هذه المجلة من انصار الحرية (*) . ولسنا نريد حصرها في ميدان دون آخر او قصرها على طائفة دون طائفة . الحريـة كل متماسك الاطراف ، اذا اصابها الضيم في ميدان او شخص او فريق فانما تكون حينذاك مهددة في وجودها وجوهرها وأساسهـا .

لذلك واجب علينا في هذا القطر ان نخرج بالحرية من حيز الكلام الى طور الفعل ، ولا بد ان نضمن لجميـع المواطنيـن حق التمتـع بالحريـة وحقوق الانسان .

ولا بد ان نكيف حياتنا الاجتماعية والسياسية ، في هذا العهد الجديـد ، حسب المبادىء الانسانية التي اقرتها التجربة وحكم لها « التاريخ » . فننزل عن هذه الامة ما كانت تقاسيه من عسف ، وننزع بها الى الانشاء والخلق في مأمن من الفوضى والالتباس .

وليس يحفظ الحرية ويقيم النظام غير الديمقراطية . وليس يضمن العدالة والحق غير مجلس نيابي مشرع .

ومن الاكيد أن تمتاز التجربة السياسية الحالية بالانجاز السريع في ميدان التمثيل الشعبي وان تبادر حكومتنا ، وهي العازمة على اجراء الاحصائيـات ، باصدار القانون العام الضابط لعمليات الانتخاب .

فان الديمقراطية تعلم وتلقين ، ومن حق هذه الامة ـ بعد طول الحرمان ـ ان تباشر امكانياتها في ميدان التمثيل الديمقراطـي .

(*) الفكر س 1 ع 3 ص 1 سنة 1955

من الشعب تستمد السلطة قوتها

بقلم : محمد مزالي

قد لا نبالغ ان قلنا ان بلادنا تعيش الآن فترة ممتازة وحاسمة (*) من تاريخها الحافل ذلك ان كفاح ابنائها الابرار خرج بها من ظلام الاستعمار الخانق الى نور الحياة الكريمة الحرة وسما بها من حضيض العجز والسفاهة والتقليد الى ذروة القدرة والرشد والخلق .

وانصع اية لذلك واقوى دليل انتهاج الامة التونسية نهجا انشائيا فيما تاتيه من الاقوال والافعال ، فما كادت بشرى الاستقلال الكامل تزف الينا حتى منك خطاب رئيس المجلس التاسيسي مشاعرنا ورفع رؤوسنا اذ قال ، فمن اليوم لن يتصرف فى حظوظ الشعب التونسى غير الشعب التونسى ولن يكون الحكم فى البلاد لفائدة فرد او جماعة او طبقة بل لفائدة مجموع الامة ...

ذلك معناه ان الشعب صاحب السلطة المطلقة ومصدر السيادة الكاملة وان كل نظام ايا كان انما يستمد منه قوته ويعبر عن ذلك العقد الذى يجب ان يربط بين افراد الامة الاحرار المتساوين بحيث يعرف كل مواطن حقوقه فيمارسها وواجباته فيضطلع بها .

ومعنى ذلك ايضا ان الامة تتجه اتجاها ديمقراطيا واضحا لا التواء فيه ولا غبار عليه وانها موفقة فى الطريق الذى رسمته لنفسها ذلك الطريق الموصل الى الحرية الحق والازدهار الشامل والرابط بينها وبين بقية دول العالم ، شرقية وغربية ــ فى عصر اصبح فيه الانزواء والانعزال ضربا من الانتحار الفكرى .

بذلك تحافظ الامة التونسية على اسلامها وعروبتها فى اشرف معانيهما وانبل مقاصدهما وتستمد من قيمهما الخالدة وكنزهما الزاخر ما به تتبوأ مكانة مرموقة بين الامم وتساهم فى اغناء التراث البشرى .

وبذلك تكون قد ربطت بين ماضيها المجيد وحاضرها الباسم ومستقبلها الزاهر .

(*) الفكر س 1 ع 7 ص 1 سنة 1956

الاستقلال رُشْد ومَسْؤولية

بقلم: محمد مزالي

عم السرور واستبشر الشعب (*) وتوالت الافراح وتعاقبت الحان الموسيقى وتجاوبت الاغاني والاناشيد : حققت تونس استقلالها !

الاستقلال رشد ومسؤولية ، مسؤولية كل مواطن ولكن مسؤولية القادة والمرشدين أثقل .

الاستقلال شعور بعد حياة غامضة يكتنفها الظلام والحيوانية .

ليس استقلال تونس صدفة من الصدف وليس وليد الظروف وحدها ولكنه ثمرة عمل طويل النفس ونشاط بشرى واعمال روية وتفكير .

وكأن الحركة السياسية وانتصاراتها مظهر او ما نشاهده من امواج وانفعالات سطحية فى البحر وهى تعرب عما فى الاعماق من اختمار واندفاعات وقوة . والحياة انى وجدت اندفاع ونمو ونظام وذلك ما نراه فى الشعب التونسى .

قوة متدفقة كالسيل العارم ، العقل يسعى فى استخدامها وتوجيهها وتنظيمها . والغلط كل الغلط فى اقامة السدود فى وجهها ، فاما ان تكسر السدود واما ان توقف تيار السدود . وينبغى ان نحافظ على ذلك التيار وان نقويه وان نزيل الحواجز من سبيله .

حياة شعبنا التونسى كعين تجرى مياهها غزيرة صافية ربما تتراكم الرمال عليها احيانا فتخفيها وقد ازلنا الرمال اليوم وجرت المياه من جديد على سطح الارض .

من أكبر أسباب الانتصار السياسى ان كانت غايتنا واضحة جلية فى نفس كل تونسى تقريبا وستسعى مجلة « الفكر » لتكون اهدافنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية واضحة ايضا لكى نتمكن من بلوغها .

على انه من الوفاء « للفكر » ان نعلن عن قلقنا ازاء ما يقاسيه اخواننا الجزائريون ويعانونه من حرب هى الى ابادة ابناء البلاد والقضاء على معنوياتهم وتحطيم مثلهم العليا اقرب منها الى مجرد معركة أو خصومة دامية .

فرحنا بالاستقلال اذن تشوبه المرارة وينغصه الأسى والألم ، لكن عزمنا على بعث الأمة المغربية وطيد.والتاريخ علمنا انالشعوب لا تقهر اذا ارادت الحياة.. وسنحتفل فى السنة المقبلة ان شاء الله بعيد استقلال المغرب العربى الكبير!..

(*) « الفكر » س 2 ، ع 6 ، ص 1 سنة 1957

نحو جمهورية ديمقراطية

بقلم : محمد مزالي

وكان ما ليس منه بد ! قال الشعب كلمته (*) فحكم على الملكية ورضى الجمهورية نظاما للحكم لقد اجتمع نوابه الشرعيون ، اعضاء المجلس القومى التأسيسى ، يوم 25 جويلية 1957 المشهود بقصر باردو ونظروا فى امر العائلة المالكة التى تصرفت فى حظوظ تونس تصرفا فرديا استبداديا مطلقا فى اول الامر ثم لم تلبث ان لعبت دور الستار الذى مسك الاستعمار وراءه بجميع دواليب الحكم وساس هذه البلاد سياسة الاستثمار والقسر والقهر ، ثم نظروا فى نظام الملكية وفى مدى ملاءمته لواقع تونس اليوم ، غداة استقلالها فكان حكمهم واضحا وقرارهم باتا فى هذه اللائحة التاريخية المعلنة للجمهورية :

« نحن نواب الشعب اعضاء المجلس القومى التأسيسى بمقتضى ما لنا من نفوذ كامل مستمد من الشعب .

« وتنفيذا لاركان استقلال الدولة وسيادة الشعب

« وسيرا فى طريق النظام الذى هو وجهة المجلس فى تسطير الدستور

« نتخذ باسم الشعب القرار التالى النافذ المفعول حالا :

« 1) نلغى النظام الملكى الغاء تاما

« 2) نعلن ان تونس دولة جمهورية الخ » .

وقد اختار ممثلو الشعب رئيسا للجمهورية احد ابناء هذا الشعب البررة عرف بحبه واخلاصه للشعب وتفانيه وتضحياته فى خدمة الشعب الحبيب بورقيبة .

(*) الفكر س 3 ع 1 ص 4 الى 8 سنة 1957

وان المؤرخين المقبلين اذا هم راموا الالتفات الى هذه الحقبة التي تعيشها تونس والوقوف عند خصائصها وتياراتها ، ملاحظون ـ بدون ريب ـ ان اعلان الجمهورية التونسية لم يثر في داخل البلاد من التساؤل والتخوف والقلق مثلما اثار في الخارج ، ذلك ان الشعب التونسي لم يفاجأ ولا صودم بقرار المجلس التأسيسي بل تلقاه وكأنه ينتظره من امد بعيد ، امرا طبيعيا وظاهرة سوية لم تتأخر عن ميعادها ولا سبقت أوانها فهو لم يتعد ان كان كالمتفرج في المسرح تتسلسل امامه فصول الرواية وتجرى حوادثها في نظام واحكام ثم يسدل الستار فليس له الا التعبير عما خلفت الرواية في نفسه من الشعور بالرضا او السخط فيصفق او يصفر او يمسك عن هذا وذاك وتكون اللامبالاة ولا تزال حياة الناس في جريانها والكرة الارضية في دورانها .

وليس معنى هذا ان الشعب التونسي لم يعبأ بهذا الحدث العظيم او ان مشاعره لم تتحرك له ولا اهتزت اليه فتلك سلبية ما عرفها في تاريخه قط .

بل معناه ان البلاد التونسية لم تعش اياما حمرا ولا مرت بها اضطرابات وهزات عنيفة على نحو ما سجله التاريخ في مختلف الاصقاع على ممر العصور .

ومعناه ان الامة التونسية لم تعش ازمة نفسية كالتي تعانيها الشعوب عندما تختلط امامها القيم وتتوالد الحوادث بسرعة يعسر معها تبين الصالح من الاصلح والاكيد من الاوكد وتلتبس السبل وان اتضحت الغاية .

ومعناه ايضا انها لم تنقسم على نفسها بل ان مختلف طبقاتها الشعبية المتحفزة من تجار وفلاحين وشغالين وطلبة ومثقفين توحد اتجاههم مرة اخرى وتظافرت قواهم وتجاوب شعورهم وثبت عزمهم على كسر التقاليد ونسف العادات وقلب الاوضاع ما دام ذلك ممهدا الى الحياة الحرة الكاملة التي لم تزل غاية هذا الكفاح الجبار الذى قام به الشعب التونسي وضحى من اجله بالاموال والارواح .

واذن فاعلان الجمهورية التونسية حادث تاريخي تم انجازه بصورة طريفة لم يسبق لها مثال وعلى اسلوب جديد لم يعتده المؤرخون .

والذى يعلل ما سبق ان الحركة القومية لم تزل منذ نشأتها جمهورية شعبية في صميمها موفية الى روح هذه الامة التي لم تلن قناتها قط منذ فجر

التاريخ والتي لم تقل مقاومتها للاجانب الغاصبين المحتلين منذ الرومان الى اليوم عن مناوأتها للطغاة المحليين وزهدها في الحكم الفردي الاستبدادي ونفورها منه ، وليس من باب الصدف ان سمي حزب الامة نفسه منذ نشأته بالحزب الحر الدستور التونسي بل يدل ذلك على ان غاية الكفاح وهدفه الاسمى انما هو الدستور الذي يكفل للشعب الحرية ويضعه في مأمن من أهواء الطغاة ونزوات الملوك وتقلبات الدهر ويحدد لكل فرد حقوقه وواجباته حتى يتيسر التعايش السلمي بين المواطنين وتتوفر اسباب الاحترام المتبادل والتعاون المشترك على بلوغ الغاية القصوى .

فالكفاح من اجل الاستقلال كان يرمي اولا وبالذات الى رفع الحواجز التي كانت تعرقل سير الشعب نحو الديمقراطية وتحول دونه ودون وضع دستور تكتمل فيه شروط العزة والكرامة والحرية الحق ، والاستعمار الفرنسي الى جانب ما كان ينطوي عليه من معاني القهر والنيل من الكرامة كان دائما حريصا على استبقاء النظام الملكي المطلق في ابشع مظاهره حرصه على صون العادات الفاسدة والتقاليد البالية ما دام ذلك كله سدا في وجه التقدم وافيونا مخدرا لاعصاب الشعب وضمانا ـ بالتالي ـ لبقائه والمحافظة على امتيازاته .

وقد يحسن ان ندقق ان النظام الملكي ليس في حد ذاته مدعاة للاستعمار ولا عنصرا من عناصر انتصابه وبقائه فقد قاوم ملوك هجمات الاجنبي الزاحف وحموا حمى اوطانهم وآثر آخرون الموت الشريف على الحياة الذليلة المنقوصة وليس من شك انهم لم يقفوا ـ كلهم ـ تلك المواقف لوجه الله ولا حبا لشعوبهم وتفانيا في خدمة اوطانهم بل ان الانانية وروح الاستعلاء واحيانا الشهامة والكرامة الفردية كثيرا ما حملتهم على الوقوف في وجه العدو ومكافحة الدخيل على ان الذي لا شك فيه هو ان النظام الملكي بتونس قد سجل له التاريخ احلك الصفحات سوادا قبل الحماية الفرنسية وبعدها مما يضيق نطاق هذا المقال عن ذكر تفاصيله لذا نشأت الامة التونسية وتبلورت مقوماتها وانتشر الوعي القومي بين افرادها منذ ظهور الحركة الوطنية عامة وغداة مؤتمر قصر هلال الخالد خاصة (سنة 1934) الى يوم اعلان الجمهورية .

كل ذلك وجد بل اوجد نفسه وفرضته طبيعة الاشياء في هذه البلاد بدون ان يقام للعائلة المالكة وزن ومن دون ان يابه احد بالنظام الملكي او يذكر وجوده ويقرأ له حسابه بل ان سلوك « البايات » سواء لسوء تفهمهم لمطامح الشعب أو لمراوغاتهم ووضع ألاعيبهم أو أحيانا لمناوأتهم لقادة الامة واستخفافهم

بمصالحها العليا كثيرا ما أثاروا حفيظة التونسيين الاحرار وآلموهم واستحقوا سخطهم ونقمتهم فانعدمت الصلة بين « البلاد الشرعية » حينذاك « والبلاد الحقيقية » كما يقال ، بين بقايا الماضي وقوى المستقبل المتحفزة .

واذن فاعتماد الشعب التونسي على نفسه اثناء الكفاح المرير و « جهله » للعرش علماه ممارسة الجمهورية ومكناه من ان يحياها ويتشبث بمبادئها وينفذ اصولها وفروعها في واقعه اليومي : مؤتمرات الشعب والجامعات ، تأسيس الجمعيات والمنظمات وشتى المشاريع وما يستتبعه كل ذلك من مناقشة وتداول وتشاور وانتخاب وانتباه وتفكير في الانتخاب بحيث يمكن القول بدون مجازفة بان الجمهورية التونسية واقع ملموس وحقيقة ماثلة منذ عشرات السنين انما اقتصر نواب الشعب في جلستهم التاريخية يوم 25 جويلية على اكسائها الثوب الشرعي وصبغها بالصبغة القانونية وهذا كله يعلل ما ذهبنا اليه من ان اعلان الجمهورية لم يهز البلاد هزات عنيفة ولا احدث بلبلة وتطورات اجتماعية او نفسانية كما هز واحدث في بلاد اخرى في في عصورنا الحديثة وقبلها .

كل ذلك لا يمنعنا من ان ننظر في اعلان الجمهورية في حد ذاته كحادث طرأ على هذا المجتمع من شأنه ان يغير طبيعة العلاقات بين المواطنين بعضهم مع بعض اولا وبين هؤلاء واولي الامر ثانيا .

والحقيقة انه اذا نظرنا الى نشأة الجمهورية التونسية الفيناها ثورة باتم معنى الكلمة وخطوة شاسعة قطعها الشعب التونسي في سبيل الديمقراطية الحق التي هي طريق الحرية والازدهار والسعادة .

واول ما يخالج نفس المواطن بعد انهيار عرش البايات شعور بالانطلاق والتحرر والرقي الى المنزلة التي هو مهيأ لها بالطبع والتي تجعله وبقية المواطنين على صعيد واحد وفي مرتبة واحدة ، لا اعلياء ولا ادنياء ، يستمدون جميعا حرمتهم وكرامتهم من انتسابهم الى جنس واحد ، جنس الانسان الذي خصه الله بالعقل السامي وافرده بالشعور الراقي والهمه التعلق بالكرامة والتشبث بالمساواة .

والنظام الملكي – لو حللته – يقوم على أساس التفاوت في المنزلة بين الافراد ويوطد اركانه على ايهام الناس بانهم ليسوا من طينة واحدة بل خلقوا

بعضهم ليسوس ويسود وبعضهم ليطيع ويخضع ، لكن التاريخ يشهد بان انتصارات الجماهير فى اطراد وان وعى الشعوب والافراد فى نمو لا سيما فى القرنين الاخيرين بحيث يشعر التونسيون بانهم اليوم اجتازوا مرحلة ودخلوا ثانية فيها اسباب العزة والكرامة وفيها اسباب الانعتاق والحرية والمساواة .

والى جانب ذلك ، ولانهم احرار متساوون ، فقد ادركوا معنى « المواطنة » ادراكا اعمق واوسع من ذى قبل والمواطنة هى الشعور بالانتساب الى جماعة على اساس عقد مبرم بين جميع افرادها يحددها ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات فتصبح العلاقات التى تربط بعضهم ببعض « عضوية » ايجابية بعد ان كانت « آلية » سلبية ، وعن ذلك تنبثق طبيعة دواليب الحكم وانواع السلط وعلاقات بعضها ببعض وما الى ذلك مما هو معروف ، وانما الذى اتاحته الجمهورية هو مستوى الرشد الذى يجعل كل فرد مسؤولا عن نفسه ومسؤولا عن غيره ومسؤولا – فى آخر الامر – عن مصير بلاده وتلك ارقى منزلة يطمح اليها المواطنون فى الامم الراقية ، ولا يشير « جوريس » الزعيم الاشتراكى الكبير الى سوى ذلك عندما يقول فى خطابه الى الشباب : الجمهورية تقتضى ثقة كبيرة وجسارة عظيمة ، فاعلان الجمهورية معناه الاعلان بان الملايين من البشر سيعرفون كيف يضعون الخطة المشتركة لعملهم وكيف يوفقون بين الحرية والقانون ، بين الحركة والنظام ، وانهم سيتناقشون من دون ان يمزق بعضهم بعضا وان خلافاتهم لن تبلغ حد الهيجان الذى يفضى الى الحرب الاهلية وانهم اخيرا لن يلتجئوا الى دكتاتورية ولو محدودة فى الزمن لينعموا براحة مشؤومة .

ومن ذلك نستنتج ان اعلان الجمهورية اذا كان فى حد ذاته حدثا عظيما فى تاريخ الامة التونسية الا انه ليس غاية تقصد لذاتها بل هو فى حقيقة الامر نقطة انطلاق ، بالنسبة للشعب ، وتحرر امكانيات ، وفرصة الى بلوغ اعلى مراتب الرفعة الانسانية ، هو عمل يرشده ويلقى مسؤولية مصيره على عاتقه ، ولنا فى ماضى هذا الشعب وحاضره خير ضمان لمستقبله الزاهر .

وَصيّـــة «حشّـــاد»...

بقلم: محمّد مزالي

فى مثل هذا الشهر (*) ـ يوم 10 ديسمبر 1948 ـ صادقت الجمعية العامة للامم المتحدة على عريضة الحقوق الانسانية . وسوف تحتفل المنظمة الاممية باحياء الذكرى التاسعة لهذا الحدث يوم 10 ديسمبر الجارى وتتهيأ لاحياء الذكرى اقطار العالم الحر ، ومن بينها تونس .

ومن بليغ الصدف ان بطلا من ابرز ابطال الكفاح القومى التونسى قد استشهد فى مثل هذا الشهر ـ يوم 5 ديسمبر 1952 ـ ليصبح الانسان فى هذه الربوع ـ وان كان اسمر اللون وان كان عربى اللسان وان كان اسلامى الدين ـ عزيزا راشدا قادرا على توجيه حياته وانشاء مصيره فى غير ما ضغط ولا عسف .

لقد كان فرحات حشاد يكافح لتكون للشغالين كرامة وليتمتعوا بما يصبو اليه الانسان من رفاهية وسعادة ـ ولكن اتضح له ان هذا الكفاح النقابى لا يستقيم ولا يفضى الى نتيجة مرضية الا اذا عمد الى اصل الداء فاقتلعه من اساسه اى اذا ارتبط الكفاح النقابى بالكفاح القومى الهادف الى تحرير الوطن من الاستعمار والاستغلال الاجنبى . وبذلك مهد حشاد لهذه الثورة التونسية التى نعيشها اليوم ، فى احد ميادينها الجوهرية فنشر الوعى الاجتماعى وربطه باليقظة القومية ووجه الجماهير الشعبية الى التطلع الى حياة افضل اساسها الحرية السياسية وقوامها العدالة الاجتماعية والقضاء على اصناف الظلم والميز سواء فى ذلك الميز الدينى والتفوق العنصرى والعسف السياسى .

هذا هو القسط الذى به ساهم فرحات حشاد فى تحرير الوطن وهو ايضا وصيته ورسالته الينا فى طور البناء والتشييد فى هذه المرحلة الجوهرية التى تتحقق فيها الثورة التونسية بفضل السياسة البورقيبية التى كتب لها ان تحول مجرى التاريخ وتبدل صفحة هذا الشمال الافريقى العزيز .

هذا نصيب حشاد فى ثورتنا الحية المتدفقة ، سيبقى فى التاريخ مقرونا بكفاح الشعب ، وتضحيته ستبقى عنوانا للمثل الانسانية العليا : الحرية والمساواة والعدالة لجميع البشر .

(*) الفكر س 3 ع 3 ص 1 سنة 1957

في الاسلام ...

بقلم : محمد مزالي

انمـا الفكر حى نابض (*) متى أقدم فثابت مصابرا فى وجه الغى والضلال وانما هو يابس ميت متى أحجم فلاذ خائفا الى الانكماش والتجمد .

وانما تقتله المحافظـة قتلا فتسود الجهالـة وينتفى العلم الصحيح وتفقـد فيقبل على التقليد ويتمسك تمسكا بالسنن الموروثة فيفلس افلاسا مرا فتعلو قوى الخمول والجمود على قوى الحياة الناهضة المتجددة .

و « الفكر » لم تزل منذ نشأتها مخلصة لما اتخذته لنفسها من المثل والقيم حتى تحقق تحقيقا كاملا رسالتها التى وضعت لها وتؤدى واجبها فى حـرية ونـزاهة .

فلقد وقفت « الفكر » مواقف الوعى والجد من شتى المشاكل التى نجمت مذ تطورت الحياة ببلادنا تطورا حاسما وسارت سيرا حثيثا فى طريق النهضة والتقـدم .

وانه لا سبيل « للفكر » ــ وقد اختارت الحياة غاية وتدرعت بالصدق مذهبا واعتمدت الحق مسلكا ــ الا سبيل الحزم والاقدام .

وليس للرياء الى « الفكر » منفذ ولا للنفاق عليها سلطان وقد أعضل أمـر من أمور ديننا وأشكل علينا رمضان فى علاقتـه بالشغـل ومعركـة الانتـاج

(*) « الفكر » س 5 ، ع 6 ، ص 1 سنة 1960

اشكالا . فنحن لا نقف من مسألة اليوم الا كما وقفنا بالامس صادقين لا قول لنا الا قول الحق .

انك أردت ـ اللهم ـ ان تكون الجمهورية التونسية منارا ومثـالا لغيرهـا من الشعوب الاسلامية ايمانا بسنة التطور والتقدم واهتداء لأسباب المنعـة والقوة وعملا متواصلا « كأن الانسان سيعيش في الدنيا أبدا » .

اللهم اننا نرجع اليك يا رب الكائنات كلها والعوالم كلها لنتزود مما أودعته في صدورنا من ايمان بالحياة ونتغذى بما قذفته في قلوبنا من نور .

اللهم اجعلنا نتخذ من ديننا قوة على قوى الاضمحلال والانحطاط .

اللهم اجعلنا نتسلح من ديننا بسلاح النهضة والتقدم .

اللهم اجعلنا نستنير بنورك ونهتدي بهديك لنجتهد في أمر ديننا اجتهادا طاهرا يلائم تطور الحياة ويساعدنا على كفاح الباطل ويؤازرنا على مصـارعة البـؤس .

اللهم اشهد اننا لا نزيف من ديننا شيئا ولا نمس به في جوهره قط ولا نعرض للبابه أبدا بسوء .

اللهم اشهد اننا مؤمنون مسلمون وانك اللهم لا تريد للانسان الا الخير فنحن لا نريد لأنفسنا الا الخير ولا رائد لنا في الحياة الا الخير .

اللهم اشهد ان المحافظة ـ وان تقاوت في وجه التقدم ـ ما هي الا حطب يابس يحرق فيسير على حطامه طلاب الحياة .

محمـد مزالـي

في توحيد التعليم وتعريبه

بقلم : محمد مزالي

اخذت هذه المجلة (*) على نفسها منذ ان برزت معالجة المشاكل التي تعترض سبيلنا كتونسيين نمر بمرحلة انتقال دقيقة وكبشر ننتسب الى عائلة الانسان الكبرى .

ولعل مشكلة المشاكل بالنسبة الينا ، نحن ابناء تونس ، مشكلة التعليم والثقافة .

وقد ادرك الشعب التونسي خطورة الثقافة وبعيد اثرها في روح الاجيال وتكوينها فقاوم السياسة التعليمية التي كانت تهدف الى القضاء على الشخصية التونسية وتسعى الى فرنسة الشباب كي يسهل ادماج هذه الامة تماما ، ووقف كالرجل الواحد وصمد وما زال بها حتى سفه احلامها ودرأ خطرها درءا .

اما وقد نجونا من العاصفة فواجب علينا ان نعالج القضية الثقافية معالجة ايجابية وأن ننحو انشائيا فنرسم الخطط ونسطر البرامج ونستوضح الغاية من جميع اعمالنا .

ونحن في هذه المجلة نعتبر ان اوكد ما يجب ان يفكر فيه المسؤولون ويبادروا بالعمل من أجل تحقيقه تكوين لجان من ذوى الاختصاص و « أهل الصناعة » لتنظر في قضيتي توحيد التعليم وتعريبه وفي ما ينشأ عنها من مشاكل وصعوبات ، تبحث عن حل عملي لكل ذلك .

ومن أهم ما يتحتم النظر فيه أيضا مسألة التربية اذ ليس غرض التعليم تزويد الناشئة ببعض المعلومات فقط، بل ــ وقبل كل شيء ــ توجيهها التوجيه اللائق بحيث تنسجم مع الامة وتتجه اتجاهها وتتشبث بمثلها العليا في الحياة.

ونحن نكتفي في هذه الكلمة بتلك الاشارات ونأمل ان يعيرها المسؤولون ــ سواء كانوا في الحكومة او في منظماتنا القومية ــ ما هي جديرة به من الاهتمام وسيجدون مجلة « الفكر » الى جانبهم دائما تدرس وتعالج وتقترح وتوضح أهم تلك القضايا .. وتذكر ايضا لان الذكرى تنفع المؤمنين .

(*) الفكر س 1 ع 5 ص 1 سنة 1956

الإيمان بحرية الأديب المطلقة ...

بقلم : محمد مزالي

لم نزل منذ بروز هذه المجلة (*) ندعو الى الادب الاصيل ونذكر بقداسة رسالة الاديب فى المجتمعات البشرية منادين بضرورة الخروج بالادب عن طور السفاهة واللامسؤولية الى طور الرشد والتكليف حتى نواكب ركب الحضارة ونحظى بشرف المساهمة فى انماء التراث البشرى الباقى المتجدد على وجه الارض .

ولم نزل كذلك نؤمن بحرية الاديب المطلقة لا نقيدها بحدود الزمان او المكان ولا نحصرها فى نطاق مذهب فلسفى او اقتصادى او دين سماوى او قضية قومية مهما تأكدت ، اذ وظيفة الاديب من حيث هو اديب الخلق والابداع وحريته فيهما كاملة او لا تكون . وليس معنى هذا أن الاديب فى حل من قومه بل لقومه عليه حق كفرد من جماعة ولوطنه عليه واجبات كمواطن صالح فمن الواجب ان نميز حينئذ بين المواطن والاديب وان نرفع الالتباس عن جوهر وظيفتيهما من حيث هما وان نصون الاديب من عملية « التسخير » التى قد تؤول به الى الببغاوية وبفكره وفنه الى العقم والنضوب .

ومن دواعى الارتياح ان وفق ادباء العرب الذين ائتمروا بالقاهرة من 9 الى 15 ديسمبر وعالجوا قضية الادب فى علاقته بالقومية العربية وموقف الاديب منها سواء كان ناثرا أو شاعرا او ناقدا الى ادراك خطورة الموضوع وصرف عنايتهم الى اوجه التوفيق بين ضرورتين كنتاهما تفرض نفسها فرضا : ضرورة بعث ادب عربى منسجم مع القومية العربية ، مغذ لها ، عامل على صالحها وضرورة احترام حرية الاديب وصون حرمته ودرء اسباب العجز والعقم عنه .

(*) الفكر س 3 ع 4 ص 1 سنة 1958

والحق ان الموضوع ليس سهلا كل السهولة وقد عولج بما يستحق من العناية والقيت على مختلف جوانبه شتى الاضواء وقد سادت المناقشات الصراحة وان عنفت احيانا وشملها الجد وان تغلبت العاطفة والحماسة على بعضها احيانا اخرى فكانت اعماله مجدية ونتائجه هامة نرجو ان يكتب لها التنفيذ حتى يكون الادباء العرب قد قاموا بالرسالة التاريخية الخالدة التى حملوها فى هذا الظرف الدقيق الحاسم الذى تجتازه الشعوب العربية اليوم

وبعد فان مجلة « الفكر » ترى من اوكد واجباتها ان تنشر لقرائها بتونس على وجه الخصوص أهم المحاضرات والدراسات التى القيت اثناء المؤتمر الذى شارك فيه ادباؤنا مشاركة فعالة وتشرفت اسرة « الفكر » بتمثيلها فيه ، مساهمة منها فى التعريف بنشاط المؤتمر .

عسى ان يكون العرب خلاقين فى ادبهم وعسى ان يخلق ادبهم العروبة التى نريد .

محمد مزالي

فلقد حان الوقت اذن للعمل على توفير لغة تاريخية علمية دقيقة (*) تساعد المؤرخ على الكتابة باللغة العربية ومن الثابت ان التأليف والنشر باللغة الاجنبية لا يفيد العالم العربي الفائدة المرجوة بل النشر باللغة الاجنبية من قبل العرب اشعاع لاصحاب تلك اللغة ولحضاراتهم . فعندما نعرف بما قد يجد عندنا باللغة الفرنسية مثلا تكون النتيجة أن الجمهور الفرنسي أعلم من جمهورنا مما يقدمه التونسيون فى شتى الميادين فواجب علينا ان نقدم هذه النتائج الى الجماهير العربية ولا فائدة فى الجهود الجبارة التى نقوم بها ان لم تستفد منها الجماهير العربية العريضة على مختلف مستوياتها الثقافية ولعل اثراء المكتبة العربية بدراسات لغتها العربية من انجح الوسائل للتعريب واثراء الثقافة العربية واللغة العربية .

(*) الفكر س 23 ع 8 ص 73 سنة 1978 من دراسة بعنوان : **من قضايا تعريب التاريخ القديم بحثا ودرسا** » للاستاذ محمد فنطر .

نعتقد في هذه المجلة (*) ان الادب لا يصدق ولا يحرك النفس الا اذا كـان مرآة للعصر الذى يظهر فيه والجماعة التى ينبثق منها ، لذا سلطنا الفكـر على احوال هذه الامة ووقفنا عند مشاكلها دارسين محللين معالجين ، وصورناهـا طامحـة الى العلا نافضة عنها ادران الرجعية والتقهقر متجددة متحفزة ، وقـد عبرنا فى عددنا الماضى عن شعورنا بمناسبة عيد الاستقلال واستخلصنا منه العبـر ، ونرى لزاما علينا اليوم ان نؤكد معنى مررنا عليه ـ حينذاك ـ مـرا سريعـــا .

ذلك ان ابتهاجنـا بالاستقلال لن يكون كاملا حتى نستقـل ثقافيـا ونبنى بأيدينـا صرح هذا النظام التعليمى التونسى الخالص الذى يضمن لنا طرافـة الشخصية ويهيىء اسباب بعث الثقافة القومية الخالصة ، فلا بد اذن من اعادة النظر فى اصول البرامج حتى ينسجم التعليم مع الواقع التونسـى وتتيسـر عملية « التاصل » تاصل الاجيال الصاعدة فى بيئتهم وربطهم الى وطنهم بحيث يعطفون عليه ويعتزون به ويستمدون منه .

وليس معنى ذلك انا ندعو الى التعصب او نريد ان نعيش فى حدود الوطنية الضيقة منغلقين منكمشين ، بل نحن نريد ـ بعكس ذلك ـ ان نشارك غيرنا من الامم بقدر الامكـان ونمتن علاقاتنـا معهـا جهد المستطاع الا اننا نعتقـد ان « الاممية » من غير « وطنية » سليمة تطفل وادعاء ، فلا بد ان تساهم كل امة بزادها وتفيد غيرها بقدر ما تستفيد هى حتى لا تبقى عالـــة .

نريـد اذن استقلالا ثقافيـا يتمخض ـ طـال الزمن او قصر ـ عن ثقافـة تونسية وادب تونسى طريف ـ ينزلنا المنزلـة اللائقـة بيـن الامم . وليس بالانتصارات الحربية فقط يعظم نفوذ الشعوب بل ان اعلامـا فى الفن والادب وافذاذا فى العلوم الصحيحة اكسبوا اوطانهم من النفوذ ما تحسدها عليه دول عظمى لا تنقصها الثروة ولا يعوزها العتاد الحربى .

واجب اذن ان نفكر فى الاجيال الصاعدة ونوفر لها اسباب الخلق والابداع واجب ان نستمـد من عيد الاستقلال الذى صادف يومه عيد الشباب ، الايمان بحق شباب اليوم والغد فى الحيـاة .

(*) س 2 ع 7 ص 1 سنة 1957

في أصالة الشخصية وتفتحها والكفاح من أجلها

الصفحات الموالية التى وضعناها تحت هذا العنوان أردناها معبرة عن العدد العديد من الدراسات والمقالات العميقة المرتبطة بهذا الموضوع . قائمة الكتاب والادباء الذين انكبوا على موضوع الاصالة والتفتح درسا وخاطرة طويلة وطويلة جدا نورد على سبيل الذكر جعفر ماجد ، محمد فنطر ، أحمد خالد ، الطاهر اللبيب ، البشير المجدوب ، احمد القديدى ، محمد الصالح الجابرى ، وحيد الخضراوى ، محمد مواعدة ، محمد العروسى المطوى ، الشاذلى القليبى ، على البلهوان ، عبد الوهاب بوحديبة ، محمد الحبيب بلخوجة ، المنجى الشملى ، هشام جعيط وغيرهم كثير .

وقد أثبتنا نصوصا مختلفة تبرز عدة جوانب من الموضوع ككفاح الشعب الجزائرى أثناء ثورته لاثبات الذات وتقرير المصير (محمد مزالى) والثورة الفلسطينية التى هى صراع حضارى للبقاء والابقاء على الشخصية العربية (محمد مزالى) وكذلك أوردنا التعليق على كتاب الشخصية التونسية للبشير بن سلامة (محمد فاضل الجمالى) ومقالا يوضح أسس التربية والتعليم فى تونس ابان الاستقلال (محمد مزالى) وشهادة (لمحمد عامر غديره) يحدد فيها المظاهر السلبية للشخصية الثقافية التونسية والدعوة الى تجاوز هذه السلبيات وأخيرا جزءا من دراسة طويلة حول المرأة والنهضة الاجتماعية وتنظيم النسل (فتحية مزالى) (الفكر) .

تربية وتعليم

بقلم : محمد مزالي

التعليم (*) يمكن النظر فيه والاشتغال به من حيث هو صناعة أو فن يرجى منه تزويد الطفل بجملة من المعلومات وتيسير العلوم والمعارف على ذهنه وتقريبها من عقله وتحبيبها الى نفسه مما يثير مسألة المناهج والتعرف الى أيها أنجع وأبسط والصق بطبيعة الطفل وكل ذلك تجده مفصلا مستقصى فى كتب فن التعليم وأساليب التربية .

والتعليم يمكن التفكير فى شأنه باعتباره واسطة لمعرفة العالم وكشف أسراره والسيطرة عليه وتسخيره لفائدة البشر ، فهو من هذه الناحية سبيل الى أن يتجاوز الافراد والجماعات منزلتهم ويغيروا ما بهم . هو سبيل الى ذلك كله ولكن الامم اختلفت فى تصورها له وتباينت فى تخطيطها إياه . فجهاز التعليم وتنظيم البرامج ووضع المواد وتوزيعها وصورة تنسيقها فى البلاد الجرمانية مثلا يختلف عنها فى البلاد اللاتينية . ومن الامم من طبعت تعليمها بطابع « الانسانيات » فعظم حظ اللغات القديمة فى برامج مدارسها وتضاعف الاعتماد على الذاكرة ، ومنها من ادخلت تحويرا جوهريا على التعليم القديم فنقصت من العلوم النظرية وزادت فى الدروس التطبيقية بحيث يستطيع المتعلم ان يعلم وأن يستغل علمه .

ونحن فى تونس قد ورثنا تعليما قديما فى اصنافه اعترف الجميع اليوم بوجوب تحويره وتبديله وتلقيحه . فأى السبل نسلك وأى الاساليب نتبع ؟..

(*) « الفكر » س 2 ، ع 2 ، ص 32 سنة 1956

والتعليم يمكن البحث فى أمره أيضا باعتباره مشكلة قومية أو بشرية فهو بهذه الصورة حق لجميع المواطنين واجب الحكومات والمنظمات القومية والدولية ان توفره للجميع حتى تشع الشمس على الجميع . لذا نفكر اليوم جميعا فى تعميم التعليم وفى رفع الامية وفى التربية الاساسية ونفكر أيضا فى كيفية تذليل ما قد ينجم من مصاعب فى طريق تحقيق تلك الاغراض الحيوية بالنسبة للافراد والجماعات .

التعليم كل ذلك وغير ذلك ومن الضرورى أن تعالج جميع جوانبه وأن نبحث عن حلول تلك المسائل الشائكة التى تعترض طريقنا اليوم ونحن فى مفترق الطرق نريد ان نبنى قواعد حياتنا الفكرية على أسس ثابتة .

* * *

غرضنا فى هذا المقال أن نبين ان التفكير فى تلك المشاكل والتوفق الى حلها وان كان ضروريا فهو غير كاف . فقد نعرف طريقة التعليم المثلى وقد نهتدى الى البرامج المثالية وقد تتحقق المعجزة الكبرى فيعم التعليم وترفع الأمية فى وقت قصير ... قد يكون كل ذلك وتبقى أم المشاكل ونقطة الاستفهام الكبرى ؟؟..

ذلك ان التعليم وسيلة لا غاية . هو وسيلة لتكوين المواطن أولا والانسان ثانيا فالطفل يولد على الفطرة والمجتمع يكونه وينمى ملكاته ويصقل عقله ويهذب ذوقه ويرهف احساسه وانما يفعل ذلك بواسطة المدرسة . المعلم لا يروم تزويد الطفل بالمعلومات ولا يسعى الى تلك « الخزائن المتنقلة » وانما هو يستخدم الحساب وتفسير النصوص والتاريخ ... ليكون الطفل عقليا وشعوريا ويعده لمجابهة الحياة ...

والتعليم وسيلة أيضا تهيىء الطفل ليتفاعل مع مجتمعه تأثرا وتأثيرا وتنفخ فيه روحا وتغرس فى قلبه مثلا عليا تنير حياته وتكسب اقواله واعماله معنى . فنظرة الانسان للدنيا وموقفه ازاء الحياة ازاء الوجود ازاء القضاء على الموت والغيب كل ذلك ثمرة المدرسة بل ان ثورة الشباب على المدرسة وعلى ما تغذى به فى المنزل والشارع والفصل ما كانت لتكون لو لم يتكون عقليا ولو لم يتهيأ بالتربية الى ذلك .

التعليم وسيلة اذن بها نربى الطفل ونخلق الانسان . كيف يجب ان نربيه ؟ ما هى القيم العليا التى نريد ان نغرسها فيه ونحمله على التعلق بها والسير على هداها ؟ ما هى فلسفة التعليم او ما هى روح التربية ؟؟ ذلك هو المشكل الذى يفرض علينا اليوم نفسه ويلح إلحاحا .

* * *

والحقيقة ان من استقرأ مذاهب التربية على ممر الاجيال وفى كافة الاصقاع يلاحظ ان التربية فى أى مجتمع انما هى مرآة تنعكس عليها فلسفة القـوم واخلاقهم ونظرتهم الى الحياة .

وليس للتيقن من ذلك كالنظر فى ما يطرأ على برامج التعليم من تغييرات جوهرية حالما يتغير النظام السياسى فى دولة من الـدول او تنشب ثـورة مذهبية كالتى نشبت فى روسيا سنة 1917 أو فى الصين أو فى الهند الصينية الشمالية فى هذه السنين ؟ بل انظر الى البرامج فى المـدارس الالمـانية فى عهدها الفاشيستى تحت زعامة « هتلر » وانظر اليها اليوم وتأمـل ايضا فى روح التعليم بآثينا الديمقراطية أربعة قرون قبل المسيح وقـارن بينها وبين روح التعليم بجارتها « سبارتا » العسكرية النظام ! وفى أيامنا هذه نشاهد المربين وذوى الاختصاص بروسيا ينكبون على برامج التعليم وموادء مراجعة وتحويرا وحذفا وزيادة ... ذلك انه حدث تغيير فى الاتجاه المذهبى الماركسى بعد وفاة « ستاليس » فوجب ان يتغذى الشباب الروسى بروح المذهب الجديد .

ونحن اليوم بتونس نحيا ثورة تختلف عمقا باختلاف الميادين ونمر بفترة تحول تضاءلت فيها قيم وبانت أخرى فى الافق . ونحن لا نـزال نبحث عن أنفسنا من الوجهة المذهبية ولا نزال نتعرف الى حقيقة جوهرنا وسر طابعنا .

فمن الواجب إذن ان تتسع نظرتنا الى ابعد من برامج تحور او لا تحـور ومن طرق تربوية تناسب او لا تناسب ومن تعميم تعليم يمكن او لا يمكن وان أمكن فهو لا يحل المشكلة الا من حيث الكم لا الكيـف ... يجب ان تتسـع نظرتنا الى ابعد من ذلك وان نفكر جديا فى مصيرنا كأمة وفى فلسفتنا كبشر حتى لا نتلعثم وحتى لا نتفسخ فى غيرنا فنكون آلة أو نقلد غيرنا فنكون على الغير عالة .

ان التربية إنما نطلب اليها ان تنشىء جيلا يكون صورة للأمة التى نريـد فما هى مقومات الأمة التونسية وما هى مشخصاتها ؟؟

ذلك ما يحسن بمفكرى هذه البلاد العطف عليه ومن واجب وزارة المعارف التى هى عين الأمة على التعليم ان تقرأ لهذا الامـر حسـابه وان تسهـر على التعليم وعلى مواده وبرامجه واتجاهه بحيث لا يبنى عقولا فحسب بل يكـون المواطن الصالح والانسان الصالح أيضا .

أما كيف يكون ذلك فهذا من وظيفة الاخصائيين وأهل الصناعة .

محمد مزالى

حياتنا اليومية بين الجفاف والرونق الادبي

بقلم : محمد الفاضل بن عاشور

في صباح باكر (*) ، من اصباح الشتاء كان واصح الصحو ، قارس البرد ، وطبقات الغيم الكثيفة لم تزل لاصقة بوجه الارض ، كانت السيارة تنهب بنا الطريق نهبا ، بين الضاحية والمدينة ، لندرك الساعة الاولى للعمل .

وكانت السيارات ، امامنا ومن حولنا ، تسير عجلى كسيرنا ، منها ما يحمل اهل الكد ، من الكبار والصغار ، متوجهين الى الدواوين والمتاجر والمدارس ، على عادتهم اليومية المضنية ومن بينها سيارات اخرى فيها أناس عليهم سيماء النشاط للمتعة ، والحزم للقصد المحبب ، والعمل اللذيذ : كانوا جادين ، في هزل ، مرحبين في عزم ، وقد بدت على ظواهر السيارات ومن دواخلها ، بنادق وكنانات وابواق ، وخيام وأزواد ، وكلاب الصيد رابضة حولها تتقد نظراتها من وراء زجاج النوافذ ، وقد تبدى الادميون في لبوس الصيادين من اهل الهواية ...

انه يوم اباحة الصيد ، وانها قوافل الهواة تقصد الى البراري والغابات ، في طلب الرياضة واللهو .

فسرنا وساروا ... حتى بلغنا منعرج الطريق ، عند مدخل المدينة ، فافترقنا .. متوغلين نحن في الحضارة ، وقد اصحر رفاقنا الى البوادي . وانغمسنا نحن في حياة المدينة ، بين تشييع الابناء الى المدرسة ، وقضاء الحاجة من الدكان ، والمبادرة الى الكلية ، ثم الانقلاب الى المحكمة ، ولم يزل في النفس هوى يشايع رفاق الطريق ، ولم تزل انفاس الصحو ، واشعة الشمس تميل بنا الى حيث مالوا .

وقصدت مسرعا الى دكان احد الكتبيين ، في حاجة خاطفة ، فاذا الصيادون الذين فارقتهم عند مدخل المدينة ، يطلعونني بحياتهم الزاهية البهيجة المرحة ، من واجهة دكان الكتبي ، واذا عشرات من المجلدات ، جذابة صورها ، ناطقة عناوينها ، تدور كلها حول الصيد والصيادين ، من تاريخ الصيد وصلاته

(*) الفكر س 3 ع 2 ص 49 الى 53 سنة 1957

بالادب ، ومذكرات الصيادين ، وروايات محورها الصيد ، وكتب عن حياة الحيوان وطباعه الى قوانين الصيد العلمية ، وفنون تركيب آلاته ، وخصائصها ومواقعهـا .

عجبا .. هذه حياة الفكر والادب والفن ، تتصل بالحياة العملية وتماشيها ففى اليوم الذى يسيطر فيه الصيد على حركات اناس ، ويجلب اهتمام آخرين، يريد الكتبى ان يقنع هؤلاء وهؤلاء بان من روح تلك الحياة وسرها ومتعتها وفنها ، ما يوجد بين رفوفه ، ولا يوجد بين الاحراش والغابات .

امتلات النفس عبرة بهذا المعنى ، وقلت : هكذا تكون الاداب قوية ، بسلطانها على الحياة العملية وهكذا تكون الحياة العملية ناعمة منشرحة ، بما يفيض حولها من الادبيات .

وانصرفت بسرعة الى مقارنة حال آدابنا العربية بحال تلك الآداب الغربية التى امتزجت بالحياة العملية ، امتزاجا اكسبها ما فازت به من قوة سلطان ، واكسب حياتهم العملية ما امتازت به من رونق الادب . فكم من نكتة ادبية ، سامية رائعة ، تلاحظ عندهم ، فى تسمية الديار التجارية ، وفى تسمية المطاعم ، وفى تسمية اصناف الاطعمة والحلويات ، وكم من تعبير له وزنه البلاغى ، المرتفع فى الحسن والقبول ، وحليته البديعة التى يزيد بها حسنا ؟ يقترن بشىء تافه من شؤون الحياة اليومية ، فيروجه ، يشيعه ، ويرفعه فى منازل الاذواق الراقية . وان ذلك لفن مهجور فى ادبنا ، وشان متروك فى حياتنا العملية ، كما يصدق ذلك كل من عرف اللغتين من ذوى الالباب . افترى ان ما فى حياتنا الادبية من عزلة وضعف سلطان ، وما فى حياتنا العملية من خشونة وجفاف امر ذاتى لادبنا ، ليس له من مطمع معه فى ان يساير الاداب الغربية فى تلك المسالك ، او تراه امر عرض لادبنا بعلة تقبل العلاج . الحق اننا اذا استعرضنا فنون الادب العربى فى عصور حياته الزاهرة تبين لنا ان ما عليه اليوم ، من عزلة فى شؤون الحياة العملية ، لم يكن ذاتيا له ، اصليا فيه ...

وان كثيرا من تلك العلوم ، التى قد يزدرى اهل الثقافة العربية اليوم ، باعتبارها علوما ، لما يرجع الى ذلك الموضوع الذى كان حديثنا ، وهو موضوع الصيد ففيه « علم البيزرة » و « علم الرمى » و « علم الفهود » وفى كل منها رسائل وكتب خاصة ، لو حليت بها واجهة كتبى عربى فى يوم افتتاح فصل الصيد ، لكانت مظهرا لما نصبو اليه ، من سلطان الادب على الحياة العملية ، وازدهار الحياة العملية برونق الادب ، فلو جمعت طرديات ابى

نواس ، وديوان اسامة بن منقذ ، والكتاب المنصورى فى البيزرة والفهود ، الذى منه نسخة خطية بديعة ، فى المكتبة الاحمدية بجامع الزيتونة الاعظم هــى من تراث الخزانة الملكية المستنصرية الحفصية ، وكتاب تحفة الانفس وشعار اهل الاندلس لابن هذيل ، لاروت هذه الكتب واضرابها ، من معينها الفياض ، حياة الصيادين فى ذلك اليوم ، ولكن تفكك الاوصال بين فنون العلم والادب بذاتها ، هو الذى قضى بتفكك الاوصال فى ما بينها وبين الحياة العملية .

فان الثقافة لما ضاق مدلولها وجفت الادب وجفت منه ، انكسر الجسـر الواصل بين الحياة العملية وبين الحقل العلمى . فمنذ اعتبرت الثقافة قاصرة على العلم ، الذى هو الالات والدراسات والبحوث ، وسقطت طرائف الانتـاج الادبى عن المنزلة الثقافية ، فاتصلت بالشؤون العامية والمطالب الامية ، سـد من يومئذ ، فى وجه الحياة العملية ، مسلكها الى مقام الادب ، وفـى وجـه الادب ، مسلكه الى سعة الحياة العملية .

فان الثقافة لما ضاق مدلولهـا وجفت الادب وجفت عنه ، انكسر الجسر الواصل بين الحياة العملية وبين الحقل العلمى . فمنذ اعتبرت الثقافة قاصرة على العلم ، الذى هو الالات والدراسات والبحوث ، وسقطت طرائف الانتـاج الادبى عن المنزلة الثقافية ، فاتصلت بالشؤون العامية والمطالب الامية ، سد من يومئذ ، فى وجه الحياة العملية ، مسلكهـا الى مقام الادب ، وفـى وجـه الادب ، مسلكه الى سعة الحياة العملية .

ذلك هو طور الانكماش الذى اعترى الاجهزة الفكرية فى ما بعـد القـرن التاسع ، وهو الذى ضيق مدلول « الثقافة » فحددها بمفهوم « العلم » وجعل البواقى الراكدة من آثار الاتساع الثقافى محشورة فى مدلول تلك الملكة التـى اعتبرت وسطا بين الملكات العلمية ، والسذاجات الامية ، وهى الملكة التى عبروا عنها قديما بملكة « المحاضـرة » . وباعتبار ملكة « المحاضرة » تكونت طبقـة سميت طبقة الادباء احترازا من طبقة « العلماء » واصبحت طبقة العلماء عن تلك الطرائف الادبية بمعزل ، واستفحل الامر حتى صار الادب والمحاضرة يزريان بمقام العالم . فرجعت شؤون الحياة العملية ، التى كانت سجلتها الاداب فى القرون الماضية ، الى حفرة السذاجة والامية .

فلقد كان لظهور الصنف الجديد من التآليف الموسوعة الجامعة ، الذى اطلق عليه اسم : « دائرة المعارف » واكتمـال حظـه فى الادب الانكليـزى والادب

الفرنسي في القرن الثالث عشر مسيحيا ، اثر قوى فى احكام الصلة بين مختلف فنون الثقافة نظريها وعمليها ، وتمتين اللحمة بين روح الادب وبين مجارى الحياة ، بحرص دوائر المعارف على استيفاء ما يتعلق بكل مادة من المواد اللغوية ، من استعمالات وتصاريف ، فتاتى على ما فيها من المثل الشرود واللفظ الكتابى المنتخب ، وما اتصل بها من استعمال اصطلاحى فى مختلف فنون العلم ، والاثار الادبية التى ترجع الى ذلك الموضوع ، بحيث صارت المادة اللغوية الواحدة تبسط فى دائرة المعارف باعتبار معناها اللغوى الاصلى ، والمعانى الاصطلاحية المتصلة بها : من علم الفلك ، او علم الحيوان ، او العقائد الخرافية البائدة ، وما يتصل بها من اوضاع علمية فى اسماء الرجال ، او البلدان، او الاشياء وما يتفرع عنها من آثار ادبية وفنية فى اسماء التآليف ، او عناوين الروايات والمسرحيات او اسماء القطع الغنائية والصور الزيتية والتماثيل .

فلما دخلت « دائرة المعارف » فى اوضاع التآليف العربية ، فى اواخر القرن الماضى ، بتاليف بطرس البستانى ، بدات تجمع شتات الثقافة العربية ، من بين مصادر العلم ومصادر المحاضرات ، وبدأت تصل بين الحياة الأدبية والحياة العملية ولكن تأثر البستانى فى وضعه الدواعى المباشرة لوضع تأليفه العظيم ، وهى دواعى الاخذ بأسباب النهضة الصناعية ، جعله اكثر انصرافا الى نواحى المعارف العملية منه الى نواحى النظريات والاداب . ومع ذلك فان ما احيى البستانى من الجوامد ، وحرك من الرواسب ، قد جعل له على بعث روح الادب العربى وتجديد صلتها بمجارى الحياة الادبية يدا لا تجحد .

فلذلك ابتهجنا ايما ابتهاج عندما راينا احد اخلافه الامجاد ، وهو الاستاذ فؤاد أفرام البستانى رئيس الجامعة اللبنانية ، قد توفر على تجديد دائرة معارف البستانى وتهذيبها وتوسيعها ، وانه فى عمله ذلك قد جبر ما كان فيها من نقص ، بادراجه الامثال والشواهد وجوامع الكلم واسماء الكتب والرسائل والسير ، وتعاريف الفقه ، وتحاديد الفلسفة .

واذا كان بعض ناقدى الاستاذ فؤاد افرام البستانى يرى انه خرج عن التقاليد المتبعة فى مثل هذه الموسوعات . فاننا نرى ان مقارنة دائرة معارف البستانى ، فى وضعها القديم ، بأمثالها من دوائر المعارف فى اللغات الاوربية ، يدل على انها قد كانت حقا قاصرة عن التقاليد المتبعة . ولكنها فى تهذيبها الحديث . قد جاءت غير خارجة عن تلك التقاليد العلمية النبيلة . ولعل هذا التهذيب الجديد الذى تظهر به اليوم دائرة معارف البستانى هو الذى سيجدد سلطان الادب على الحياة العملية ، فيكون ما اخذه عليها الناقد اصل تفوقها ....

رسالة
على هامش الشخصية التونسية
د. محمد فاضل الجمالي

بسم الله وحده

أخي الفاضل الاستاذ البشير بن سلامة المحترم (*) .

تحية أخوية عاطرة وشكرا على هديتكم القيمة « الشخصية التونسية » (**) وتهنئتي لكم على معالجتكم موضوعا خطيرا هو من مواضيع الساعة لا في تونس وحدها بل في عالمنا العربي المتحرك كله .

لقد طالعت كتابكم القيم باهتمام بالغ لسببين رئيسيين :

اولهما انه يعالج قضية هي من اهم القضايا التي تعنى بها التربية المعاصرة أعني بها قضية **الانتماء والولاء** . فالتربية المعاصرة في كل بلدان العالم الحي تعنى عناية خاصة بتنشئة أفراد الشعب على الانتماء والولاء الى الكيان الانساني الذي يختاره ذلك البلد سواء أكان ذلك الانتماء سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا **والانتماء** يتطلب **الولاء** عادة . ولا أشك في أن معالجتكم موضوع الشخصية التونسية تستهدف دعوة المربين الى العناية البالغة في توعية ابناء الشعب صغارا وكبارا للانتماء والولاء للشخصية التونسية . وهذه خدمة صادقة تسدونها لامتكم ووطنكم .

والعامل الثاني الذي جعلني أعني بالكتاب هو اني كانسان يدين بالدين الاسلامي الحنيف وينتمي الى كيان العروبة من الخليج الى المحيط أعتز بشخصية كل قطر من الاقطار التي يشملها هذا الكيان ولا سيما بشخصية تونس الخضراء ولا عجب فاني قد أحببت تونس قبل ان أراها ثم ان تونس قد احتضنتني منذ ان غادرت العراق قبل ثلاث عشرة سنة فصرت أستطيع

(*) الفكر س 20 ع 5 ص 17 الى 25 سنة 1975

(**) كتاب « الشخصية التونسية خصائصها ومقوماتها » تاليف البشير بن سلامة نشر عبد الكريم بن عبد الله ، تونس سنة 74 .

القول بـأن شخصيتــي كانسان فرد تغذت وتفاعلت مع الشخصية التونسية ولذلك فقد عنيتفكريا وعاطفا بمطالعـة كتابكم القيم ولا يسعنـي الا ان أبدى تقديرى لجهدكم الصادق وهدفكم النبيل . وهـا أنا أطلب صفحكم وسماحكـم لابداء ما عن لـي من ملاحظات وآراء وأنا أطالع كتابكم الثميـــن .

مشكلـة المصطلحــات :

من اولـى المشاكل التى يجابهها الكاتب الاجتماعى ان فى الشرق أم فى الغرب هى مشكلة عدم الاتفاق على مدلول بعض الكلمات الاساسية . ولنضرب مثلا على ذلك : ماذا نعنى بكلمة « شخصية » وماذا نعنى بكلمة « امـة » وماذا نعنى بكلمة « لغـة » .

أقتـرح أن يكون تعريف الشخصية على الوجه التالى : « هى وحدة الهيئـة الشاملة لكل الظاهرات الماديـة والمعنويـة التى يتكون منها فرد أو جماعة » . فهناك شخصية لكل انسان فرد وهناك شخصية لكل **جماعة موحدة منسجمة** صغيرة كـانت ام كبيرة . والشخصيـة هى نتاج تفاعل الوراثة مع المحيط وظروفه المتغيرة فهى اى الشخصية متطورة ما دامت العوامل المحيطة تتطور .

وكلمة « امة » من الكلمات التـى تتخذ معانى ضيقة تارة وواسعة أخـرى . فهناك من يقول « بالامة المصرية » او « الامة السورية » او « الامة التونسية » وهناك من يقول بان هناك أمة عربية واحدة تشمل كل هذه الامم المار ذكرها وسواها من الخليج الى المحيط . وهناك من يقول بان هناك أمة اسلامية واحدة وما الشعـوب العربية الا قومية واحدة من القوميـات التى تتشكل منها الامـة الاسلاميـة . مستشهدا بالآيـة الكريمـة « **ان هذه امتكـم واحدة وانا ربكـم فاعبدونى** » . (سورة الانبياء 92) .

ليت العرب اتفقوا على استعمـال « شعـب » للشعب المصـرى والشعـب السـورى والشعب التونسى وسواهم من الشعوب العربية وليتهم اتفقوا على استعمال « قوم » و « قوميـة » لمجموع الشعوب فقالوا القومية « العربيـة » والاقطار العربية و « الوطن العربى الكبير » وليتهم خصصوا كلمة « امة » للامة الاسلامية التى تشتمل على كل القوميات التى دينها الاسلام .

وكلمة « عربى » قد تستعمل لمن أصله ونسبه عربى أى لكل من جاء هو أو أسلافه من جزيرة العرب وقد تخصص « للبدو » الرحل وقد توسع فتشمل كل من تكلم بالعربية وتثقف بالثقافة العربيـة وانتمى الى الشعوب المتكلمـة

بالعربية مشاركا اياها فى امالها وعواطفها افراحها واتراحها هذا وان الذين ينادون بالقومية العربية فى عصرنا هذا يستعملون اصطلاح « العربى » بهذا المعنى الواسع . فالعربى لا يقتصر على من كان من أصل عربى قادم من جزيرة العرب . بل العربى كل من تكلم العربية وتثقف بثقافتها وانتمى الى الوطن العربى . اذ من المعلوم ان اكثرية ابناء الاقطار العربية ليسوا من اصل عربى فهم مستعربون فهم « عرب » بالمعنى الشامل . والعروبة قومية مفتوحة تحتضن أقواما ليسوا بعرب رسا . وبهذا المعنى فالتونسى المتكلم بالعربية كالعراقى أو المصرى المتكلم بها هو عربى مهما كان أصل أسلافة .

وكلمة « لغة » ، ما حدودها ؟ وهل هناك لغة عربية واحدة ام هناك لغات عدة تنتمى الى العربية ؟ وهل تطلق كلمة « لغة » على اللهجات العامية العديدة التى قد توجد فى أية لغة من اللغات الواسعة الانتشار ؟ نحن نقول بان هناك لغة عربية واحدة هى اللغة الفصحى وان اللهجات المحلية ما هى الا وليدة الفصحى فى ظروف وأقاليم خاصة . ففى كل من الاقطار العربية نجد اللغة الدارجة (واحدة أم أكثر) تكتسب صبغة محلية وتقتبس الفاظا قد تكون غريبة او جديدة فالعربية فى العراق تحتوى على أكثر من لهجة واحدة فلهجة ابن بغداد تختلف عن لهجة ابن الموصل وفى العراق تسربت كلمات عدة من الفارسية والتركية والانقليزية الى اللغة الدارجة . ويصدق القول ذاته على كل قطر عربى خضع للاستيلاء الاجنبى تقريبا . فما يقال عن العراق يقال عن تونس او مصر او المغرب . ففى تونس تختلف لهجة الجنوب التونسى عن عن لهجة الشمال التونسى وحين أصغى الى الاذاعة التونسية باللغة الدارجة أجد ان نحو 99٪ من الكلمات هى كلمات عربية فصيحة وانما تلفظ باللهجة التونسية المتصفة بالامانة . وهناك « لغة وسطى » هى عربية فصحى مبسطة مسكنة الاواخر « بدون اعراب » يمكن ان لا تفهم فى كل الاقطار العربية من الخليج الى المحيط هذا وان الاذاعة العربية اليوم تقوم بدور مهم فى جعل ابناء العربية يفهم بعضهم بعضا مهما اختلفت لهجاتهم . وعلى هذا الاساس نحن من القائلين بوجود لغة عربية واحدة ولهجات متعددة .

فلو تحقق الاتفاق على مدلول الكلمات وتحددت معانيها لقضى على الكثير من سوء التفاهم ولتوفرت جهود كبيرة تصرف فى الجدال والحوار بين الكتاب والباحثين فى المواضيع الاجتماعية .

مشكلة التاريخ :

اعرب عن تقديري لجهودكم القيمة فى تحرى الحقائق التاريخية التى اعتمدتم عليها فى ما توصلتم اليه من استنتاجات واسمحوا لى ان أبدى بأن التاريخ سلاح يتوقف استعماله فى القضايا الاجتماعية والسياسية على غرض من يحمله ومن يستعمله ذلك اذا كان سلاحا ماضيا غير مغشوش العتاد اى ان يتحرى الحقيقة كاملة من كل جوانبها وبكل تجرد . لقد عشت ما يزيد على الخمسين سنة من تاريخنا المعاصر وساهمت فى بعض صفحاته فأود ان أؤكد لكم بأن التاريخ الذى نتداوله قد لا يخلو من فجوات كما قد لا يخلو من تحريف واختلاق ترجع الى عدم احاطة المؤرخ بكل المعطيات أو الى تحزبه وغرضه الامر الذى قد يضر بوحدة الامة وتماسكها . فالتاريخ قد يستخدم للتفريق او التمزيق بين الامم والشعوب فى وقت تطمح الامم فيه الى التماسك والالتحام . نحن نعتمد كثيرا على بحوث وأساليب اجنبية فى دراسة تاريخنا وليس من الانصاف ان نتوقع من الاجنبى ان يكتب التاريخ لمصلحة امتنا ومجتمعنا مهما كان منصفا وموضوعيا فجل ما ننتظره من الاجنبى هو ان يكتب التاريخ للتاريخ ذاته الامر الذى قد يضر بمجتمعنا ولا يخدم اهدافنا اذ التاريخ للتاريخ يجب ان يكون فى حوزة العلماء الاختصاصيين اما المسؤلون عن توجيه الامة ومستقبلها فعليهم ان يقتبسوا من التاريخ ما يخدم حاضر أمتهم ومستقبلها . نحن على علم بأن الذين كتبوا التاريخ من ابناء جلدتنا قد لا ينجون من التعصب او التحيز الذى فرق شملنا فى الماضى ويؤخر سير أمتنا فى الحاضر . فيجدر بنا اذن ان نحتاط فى استعمال التاريخ كهاد او دليل ما لم يكن هدفنا القومى واضحا وفلسفتنا صحيحة . التأكيد يجب ان ينصب على درس واقعنا وعلى التخطيط لمستقبلنا ثم الرجوع الى التاريخ للاستعانة بما فيه من عوامل ايجابية وبناءة . وترك ما يضر بحاضرنا ومستقبلنا الى الاختصاصيين الذين يدرسون التاريخ لاجل التاريخ . أود أن أستخلص من هذا بأننا نعيش فى عصر ليس له مثيل فى التاريخ وان الشخصية التونسية يجب ان تكون مستقبلية اكثر منها تاريخية فلننظر الى واقعنا والى واقع العالم الذى نعيش وقضايا الانسان المعاصر ونستقى من تاريخنا ما يساعدنا على حل مشاكلنا الحاضرة وتجنب ما يزيد فى تعقيدها او ما يؤخر سيرنا ويمزق شملنا .

علاقة الشخصية التونسية بالاسلام وبالعروبة :

أما ان لتونس شخصية تمتاز بها فذلك أمر لا يقبل الجدال . فلتونس

شخصيتها كما ان لمصر شخصيتها وكذلك للعراق أو سورية أو اليمن . هذا وان تعدد الشخصيات القطرية في الكيان القومي العربي مما يزيد في ثروة هذا الكيان وقوته الخلاقة . أما تحديد علاقة الشخصية التونسية وارتباطاتها في تسلسل الشخصيات الاخص او الاعم واما تعيين مقومات هذه الشخصية وتوفير وسائل بنائها وتنميتها فهو أمر يتوقف على اختيارات الشعب التونسي سياسيا وتربويا . واما اللغة القومية سوى ناحية واحدة هامة من نواحي الشخصية التونسية يقرر مصيرها سياسيا وتربويا .

اما في الحقل السياسي فقد اختار الشعب التونسي ان تكون لغته الرسمية العربية ودينه الاسلام ذلك ما نص عليه الدستور التونسي ثم ان الدستور التونسي ينص على ان تونس هي قطر من أقطار المغرب العربي الكبير ثم ان تونس عضو في جامعة الدول العربية وتساهم بنشاط في مؤتمرات العالم الاسلامي اذن فعلاقة الشخصية التونسية بالعروبة وبالاسلام علاقة عضوية متينة . ولذلك في الامكان اقتراح سلسلة الانتماء بصورة صريحة بحيث يقضي على الكثير من البلبلة والترجرج الذي نشاهده عند بعض المثقفين . نحن نقترح ان تكون سلسلة الانتماء على شكل هرم قاعدته الانسانية وعلى قاعدة الانسانية تقوم المعتقدات الدينية (الاسلامية) ومن الاقوام الاسلامية الشعوب العربية ومنها شعوب المغرب العربي الكبير ومنها تونس هذا الترتيب الهرمي هو في نظرنا منطقي يتدرج من العموم الى الخصوص ثم انه انساني لانه في الاساس يعترف بوحدة بني الانسان وترابطهم . هناك من يرى ارتكاز الهرم على قمته وجعل القمة هي الاساس اى أن نبدأ بالتونسة ثم نرتفع الى العروبة ثم الى الاسلام ثم الى الانسانية . هذا الترتيب قد يكون مناسبا للمبتدئين الصغار على أن يفهم فيما بعد بأن الواقع العلمي هو أن في البداية كان الانسان والانسان يشمل الاسلام والاسلام يشمل الاكثرية الساحقة من العرب والعرب يشملون المغرب العربي الكبير والمغرب الكبير يشمل تونس . ولا حاجة للتأكيد بأنا نستعمل مصطلح « العرب » بمعناه الواسع الحديث وليس المعنى الرسمي الضيق .

ان هذا التسلسل يعترف بالشخصية التونسية ويدعو الى المحافظة عليها وتنميتها وهذا ما استهدفه كتاب « الشخصية التونسية » . نحن لا نسير مع الذين يريدون دمج الاقطار العربية كلها ضمن وحدة مركزية عظمى . فالأمر غير عملي وغير مفيد بل انه ضار فعلا . فتعدد الشخصيات القطرية العربية

المتحدة تعطى الامة العربية قوة خلاقة لا حد لها . ولقد علمتنا التجارب الحديثة خطأ الدمج بين سورية ومصر من سنة 1958 الى 1961 . فقد فشلت التجربة بشكل محزن . واذا كنا لا نرتضى عملية الدمج ومحو الشخصية لكل قطر ذى شخصية متكاملة فانا ندعو بالحاح الى القضاء على الحواجز القائمة بين الاقطار العربية . نحن من دعاة وحدة اتحادية (كونفدرالية) بين الاقطار العربية على ان نسير نحو هذه الوحدة بخطى حثيثة وبصورة جدية .

وكما اننا نحذر من مغبة الوحدة الاندماجية التى بها تمسخ وتذوب الشخصية كذلك نحذر من المغالاة بالتمسك بالشخصية القطرية وتكريس الانعزال كما حدث فى الدعوى الى عزل مصر باسم « الفرعونية » ، نحن استبشرنا خيرا يوم دخلت مصر جامعة الدول العربية فلا العزلة تحقق اهدافنا القومية ولا نظرية الدمج والاستيلاء التى طغت على السياسة المصرية بعض الوقت فى الماضى القريب . وما قيل عن « الفرعونية » يقال عن دعوة الحزب القومى السورى الى تأسيس أما سورية (تتكون من الهلال الخصيب ونجمة قبرص) مستقلة عن الامة العربية . العالم اليوم يسير نحو التجمعات ونحو الوحدات السياسية الكبرى . فالاقطار العربية وهى مترابطة مع بعضها جغرافيا وتاريخيا تجمعها وحدة اللغة كما يؤاخى بين ابنائها الايمان بالله الواحد الاحد اله ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . مكملة بعضها البعض اقتصاديا وثقافيا مدعوة الى تحقيق اتحاد كونفدرالى فلا دمج ولا اذابة للشخصية من جهة ولا عزلة او استعلاء من جهة اخرى .

مميزات الشخصية التونسية :

الشخصية التونسية تشترك مع شخصية سائر الاقطار العربية فى كونها انسانية واسلامية وعربية وتتميز عن شخصية سائر الاقطار العربية بما يتركه مناخها المعتدل وطبيعة أرضها الخضراء وبما تركه تاريخها المحلى والعالمى من تأثير سجايا سكانها وبما حققه قادتها ومفكروها من تنظيم وابداع وما يقوم به مربوها من توجيه وبناء .

اما للطبيعة والمناخ أثرا على حياة الشعوب وشخصيتها فهو امر يؤيده الواقع والاختبار وقد شرح ذلك ابن خلدون فى مقدمته كما أيده الاستاذ هنتغنن Huntington فى كتابه « سجايا الاعراق » «the Character andraces» الذى ظهر فى الثلث الاول من هذا القرن . ونحن لا نشك فى أن لاعتدال مناخ تونس اثرا واضحا فى سجايا أهلها اللطيفة والمعتدلة

بينما المناخ الناشف الجاف كما هو الحال فى أوساط العراق له أثر فى طبيعة العراقيين العنيفة والمتطرفة احيانا .

ولا شك فى ان للتاريخ وللفاتحين أثرهم أيضا فى سجايا الشعوب . والتاريخ ذو علاقة مباشرة بالموقع الجغرافى فحيث تكون البلاد معبرا للفاتحين والغزاة كما هو الحال فى تونس والعراق مثلا تنشأ صفات التحدى كما قد تنشأ صفات الانزواء أو الاستسلام .

أما دور القادة والمفكرين والمربين فى تنظيم شؤون الشعب وبناء شخصيته فهو من الامور البديهية التى لا تحتاج الى برهان ويكفى تونس دليلا على ما قام به القائد المجاهد الحبيب بورقيبة فهو ومن آزره من الشيوخ والشبان استطاعوا ان يضمنوا ثقة الشعب فساروا به نحو التحرر والاستقلال . والآن يجدر بنا أن نتساءل ما هى الميزات التى تمتاز بها الشخصية التونسية بعد هذه المؤثرات ؟ ان الزائر لتونس سرعان ما يلاحظ المزايا التونسية التى يعجب بها ومع ان اى واحدة من هذه المزايا قد تتوفر فى أى قطر من الأقطار العربية الا ان توفرها مجتمعة هى من مزايا تونس الخاصة وها أنا أعدد بعض هذه المزايا :

1) لطف الشعب التونسي وتأدبه
2) نظافة الشعب التونسي
3) حبه للعمل والمثابرة .
4) حبه للعلم والتقدم
5) اعتداله واتزانه واحترامه للنظام .
6) احترامه للمنطق والعقلانية مع ضبط الاعصاب .
7) تمسكه بدينه وتقاليده .
8) تفتحه على الخارج .
9) له لهجته الخاصة به فى العربية .
10) حبه للفن وحسن ذوقه .

وفى رأينا ان البورقيبية وما تنطوى عليه من تأكيد على الشمول والانسجام والتطور الى الاحسن هى أصدق تعبير عن الشخصية التونسية .

دور التربية فى بناء الشخصية التونسية :

ان التربيـة تشكل فـى نظرنا أهم عامل فـى بناء شخصية الامة اذ عليها تتوقف تنشئة نوع الانسان الذى يقوى هذه الشخصية او يضعفها .

لقد تلـوت بكل تأثر وتقدير ما ورد فـى « الشخصية التونسيـة » حول أوضاع التربية والتعليم فـى عهد الاستعمار ولا سيما مـا حصل من « غربـة لغوية » ومجاعة تربوية قصد بها المستعمر اضعاف الشخصية التونسية . ولما كانت اللغة هى من المقومات الرئيسية للشخصية القومية فانه حاول طمسهـا والاذلالهـا . هـذا وان افظع انواع الاستعمـار واكثرها نفـوذا ودواما هـو الاستعمار الثقافى . ولذلك فقد كان من نصيبى فى مؤتمر سان فرنسيسكـو سنة 1945 حيث كتب ميثاق الامم المتحدة ان اقترح نصا أدخل فى الميثـاق يلزم الدولة المستعمرة احترام ثقافات الشعوب المولى عليها وهى تشمل اللغة القومية بالطبع (المادة 73 ب من الميثاق) .

ولقـد لفت نظرى حديثا وانا اتصفح دستور كورية الشماليـة المعلن فى التايمس (المنديـة) فى عددها الصادر فى 27 ديسمبر 1974 المـادة 46 من الدستور والذى نصهـا :

« الدولـة تدافع عن لغتنا القومية ضد سياسـة الاستعماريين واذنابهـم المخربة لها . وتنميها لتصبح مؤهلة لتلبية حاجات العصر الحاضر » (الترجمة عن الانكليزية لكاتب المقال) ما احـوج البلاد العربية التى رزحت تحت نيـر الاستعمار أن تأخذ بمنطوق هذه المادة فتحل اللغة القومية المحل اللائق بها . وفى رأينا أن أهم ما تحتاج اليـه البلاد العربية اليـوم هو تفكير واعادة نظـر جدية فى أوضاع التعليم من نوأحيه الانسانيـة والاسلامية والقومية وعلاقتـه بالحياة المتطـورة بفضل العلم والتقنية والتنظيم الاقتصـادى والأخذ بأصح الاساليب والمناهج التعليمية قديمها وحديثها .

الكل مجموعون علـى حاجتنـا الى اتقان ، لغة أجنبيـة واحدة علـى الاقل ويفضل الأخذ بلغتين أجنبيتين فأكثر ولقد أختارت تونس اللغـة الفرنسيـة وهى لغة علم صحيح وفلسفـة وأدب رفيع وكل مـا نرجـوه ونتمناه هـو ان نقتبس من الفرنسيين غيرتهم على لغتهم وعملهم على الرفع من شأنها فنعمـل

الشيء نفسه مع لغتنا العربية المحبوبة . فوضع لغتنا العربية في المدارس وفي الحياة يتطلب اعادة نظر على جميع المستويات ولا سيما على المستوى الجامعي فقد ورثنا من عهود الاستعمار شيئا من التشكيك والازدراء باللغة العربية الامر الذي أدى بالبعض الى ترك استعمالها والانصراف كلية الى اللغة الاجنبية . أن عدم اقبال الشباب الجامعي على مطالعة الكتب والمجلات العربية يرجع الى عوامل عدة أهمها عامل تربوي . فلو عني باللغة العربية ودرست بأساليب جديدة حية وفعالة في كل مراحل الدراسة ودرس كل علم باللغة الاجنبية بعد ان يدرس بالعربية لشاهدنا ترابطا وتعاونا بين اللغتين القومية والاجنبية . اما ان تدرس الدروس العلمية من الرابع الابتدائي فصاعدا باللغة الاجنبية ولا تستعمل العربية ففيه حرمان الطفل التونسي من تعليم لغته القومية اذ ان اللغة تكتسب في كل الدروس وليس في درس اللغة وحده . وما يقال عن العربية يقال عن الدين الاسلامي فانه يعطى على المستويات الابتدائية والثانوية ويحرم طلاب المعاهد العالية من درس دينهم وقرآنهم وفي ذلك ما فيه من ضرر واضعاف للشخصية التونسية . ونتيجة حرمان طلاب المعاهد العالية من درس لغتهم ودينهم وفلسفتهم القومية (المتمثلة في البورقيبية) هو ان نشأ عندنا جيل يحوي أفرادا تائهين عقائديا او هدامين سياسيا ولو انهم قلائل لحسن الحظ .

وأخيرا نقول نحن نعيش في عصر تضاربت فيه التيارات والاتجاهات ونحن استيقظنا وبدأنا نبحث عن شخصيتنا ومستقبلنا . وها هي الظروف السياسية الدولية والاقتصاد الدولي تعيد للعرب تدريجيا مكانتهم اللائقة في التاريخ واصبحت اللغة العربية من اللغات المعترف بها والمطلوب تعليمها عالميا . والعالم الاسلامي بدأ يبعث حيا من جديد ويبحث عن مستقبل أفضل نحن نأمل ان يكون لتونس البورقيبية الدور الطليعي في زيادة العالمين العربي والاسلامي وذلك يتطلب اعادة نظر جدية في نظم ومناهج التربية والتعليم واعداد المربين المهيئين لتحقيق الانتماء والولاء للشخصية التونسية وحمل رسالة بورقيبة الى الانسانية عامة والاسلام والعروبة خاصة .

هذه ملاحظات عجلى خطرت لي وانا اتلو كتابكم القيم الشخصية التونسية اسجلها مع اعتذاري عما فيها من فجوات او هفوات ولكم فريد الشكر من أخيكم

د . محمد فاضل الجمالي

إنّي أشهد ...

بقلم : عثمان غديره

هذه رقعة ضيقة من الارض أبرز ثرواتها العقل (*) وأكبر حظها أن تعمد الى الفكر فتستوحيه فى جميع الميادين .

وان هذه الرقعة من الارض ، الضيقة فى ذرعها ، العاقلة فى أمرها ، قد اجتازت النصف الاول من طريق ثورتها العظمى : فكان لها بتخلصها من الاستعمار وعى قومى ما ينبغى له ان يبقى عند هذا الحد دون ان ينقلب وعيا سياسيا فوعيا بشريا كاملا .

وانه حرام علينا ـ وقضية التخلف قائمة فى جميع العقول ـ ان ننسى تخلفنا الثقافى ومشاكله .

انى اشهد ان تونس لعلى نصيب وافر من الانتاج وحظ كبير من العمل وانى اشهد ان شيئا ـ ما كان ليكون ـ موجود بين ايدينا نستطيع ان ننظر فيه واكاد اقول أن نعتز به . غير انى اشهد أيضا أن ما بين أيدى الناس من انتاج ثقافى تونسى قد يستحسن بالاضافة الى ما نراه فى بعض البلاد المتخلفة او الشرقية وقد لا يستحسن دائما بالاضافة الى امكانيات بلادنا واستعداد ابنائها وطموح رجالها وتطلع نشئها وتراث المتقدمين فيها .

انى اشهد ان الذنب ذنبنا نحن معشر المريدين . نحن نذنب كلما سكتنا راضين عن تخلفنا الثقافى ونحن نذنب كلما قمنا خاطبين أو كاتبين وليس لنا ما نقول وليس لنا ما نتحدث به .

(*) « الفكر » س 5 ، س 5 ، ع 6 ، ص 2 سنة 1960

نعم ان بالبلاد سوقا ثقافية قد يسودها الكساد وقد ينعشها الربح ولكنها كثيرا ما تغلب عليها السخافة ويقيدها الفتور وكثيرا ما يبغضها لنا الكذب والتدجيل ورداءة الانتاج . انى أعيب بعض من كتب بالسكوت والانصراف يفعلون ذلك لا أصدق فيما بينهم وبين انفسهم اذ ايقنوا ان ليس لهم ما يقولون — فانى احترم الصدق واعشق الحرية — وانما لسوء انسجام مع الصحب والركب ولقلة الوقت لمخاطبة النفس . وانى أعيب أيضا بعض من يكتب بكثرة الكتابة بالثرثرة الدائبة دؤوب الليل والنهار : يفعلون ذلك لا لتزاحم فى المعانى وصدق فيما بينهم وبين انفسهم وانما لتوفر الوقت ولسكوت الغير .

وانى اشهد انى أرى — متجسما بين يدى — الى جانب هذا السكوت الذى لا ينبغى له ان يكون أو قلّأن يطول والى هذا **التضخيم** الذى هو شبيه **بالافلاس** أرى انتاجا غريبا أعيبه بالرجوع دائما وفى غير نفع وبدون مبرر الى المقاييس الغربية والمصطلحات الاجنبية ، انك تنظر الى الصحيفة وتعيد النظر فاذا هى لا عربية كلها ولا لاطينية الحروف كلها بل هى مزيج غريب أقول — وأنا أعلم انا لسنا فى حاجة اليه . فلعل بعض الكتاب يأملون من وراء تزيينهم هذا ان ينظر القارىء الى كل ما كتب بالعربية فيشمئز — من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر — ويمل ثم ينظر الى الكلمات الاجنبية فيعمد الى قراءتها بكل شغف وبكل اعجاب فيظن ان هناك الفوز وان هناك العلم فتكفيه قوت يومه انما مثله فى ذلك مثل الطفل ينظر الى المسفوف فيحل المسفوف ويفشل امام « الكسكسى » ثم يعمد ، جهارا أو خلسة ، الى حبات العنب أو ما شاكلها فيلتقطها ويلتهمها بكل لذة ويقول : حسبى اليوم انى قد تغديت .

ثم ان قوما اختاروا الغريب من الكلام والمعقد من المعانى ظنا منهم ان الالتباس اقرب الى الذكاء من الوضوح وان التحليق فى عليين خير من الاندماج فى الشعب والواقع وان الانقطاع عن العامة اجمل من الارتباط بجمهور القراء وان الجرى وراء القارىء ومخاطبته قلبا لقلب وعقلا لعقل من سخيف الامور لا يهتم بها الا امثال ابن المقفع والجاحظ اما ابناء القرن العشرين الذين عرفوا من المدنية احسنها ومن أدب الاجانب أعمقه فلا .

وانى اشهد ان تهاونا كبيرا باللغة وقواعدها قد انتشر فى بعض ما يكتب وفى بعض ما يقرأ وانه لا يسعنا الا ان نعده غلطا وخبطا ما دمنا ندافع عن اللغة الفصحى وما دمنا لم نتقدم خطوة بصفة رسمية فى سبيل تيسير قواعد

النحو وتجديد الرسم وانى اشهد ـ على حبى للعامية وعلى ما فى تركيبى من ميول تقدمية ـ انى ما زلت من أولئك الذين يدافعون عن الفصحى ولا يدخلون العامية فيها الا بمقدار فانى ما زلت من أولئك الذين يخيرون « **بدء الوحى** » و « **قيام العبيديين** » على « **نقطة انطلاق الوحى** » و « **نقطة انطلاق العبيديين** » ويفضلون عبارة « **محمد رسول الله** (صلعم) » على عبارة « **محمد مؤسس الاسلام** » مصلعمة أو غير مصلعمة .

وانى اشهد انا نستطيع من جهة اخرى ان نؤاخذ القراء بقلة العدد وعدم الاكتراث وفرط الكسل وسريع الاعراض لقد يعترى الاديب القارىء والرجل المتطلع الى الحياة الثقافية شىء من العياء وشىء من الملل وشىء من الانصراف لا حد له . لقد يعتريه ذلك كلما شاهد فى عالم الادب ما يشبه التطفيف والغش والاحتكار أو ما يشبه الضعف والرداءة وقلة الابتكار . وان هذا الملل قد يصرف جيلا كاملا عن القراءة باللغة العربية وقد يلجأ به الى المنتوج الفرنسى والى الاساتذة الفرنسيين فيتخذ الشبان من الكتب الاجنبية غذاءهم الوحيد ومن الاساتذة الغربيين مرشدين واصدقاء . ويلتجىء الشباب الى هذا الملجأ لابتعاد الاساتذة التونسيين فى كثير من الاحيان عن دور الارشاد والصداقة ولارتقائهم الى عليائهم وانصرافهم الى الانانية وحب الذات والادعاء الفارغ .

انى اشهد ان جيلا صاعدا طفولته غير طفولتنا وامهاته غير امهاتنا اما تربية أو اصالة أو جوارا ولغته متحسنة بالاضافة الى لغتنا وتعلمه يخالف تعلمنا بما فى هذه الفروق من محاسن ومساوىء ، من تقدم وتخلف . انى اشهد ان هذا الجيل الصاعد مهدد بالانقطاع عنا مهدد بالذبذبة والتفكك والتفجر والسخط والعزلة والتمزق محتار بين كبار لا يسمعونه ولا يهتمون به وبين أجانب لا يستطيعون ان يثق بهم دائما وفى جميع الاحوال .

يجب ان نعتنى بهذا الجيل وان نعمل له وان نراوده على الحوار وان نعالجه طلبا لثقته وانها لعسيرة المنال . ويجب علينا ان نؤمن كل الايمان بان غايتنا انما هى ان نجعل من هذا الجيل الصاعد جيلا أحسن منا يفوتنا معرفة ووعيا واستعدادا وانتاجا وان نعينه على ان يتحرر ثقافيا كما تحررنا نحن سياسيا لا الاشخاص اعنى فى كل ما اقول وانما اعنى الجيل فى جملته ! وانه ليحسن بنا ان ننادى وان نؤمن بان غاية الثقافة هى ابعد من غاية التعليم وانها ترمى فيما ترمى اليه الى احترام كرامة الانسان مهما كانت الظروف والى احترام

الحرية مهما كانت التكاليف . وانى اقول على اسلوب بعضهم : انما العبقرية الحرية أو لا تكون . اقول ذلك وأؤمن به . اقول : الحرية حتى الجنـون ! فانه لا خير في أدب لا تزعزعه من حين الى آخر رعدة الجنون والخروج عن المعروف بمعناه العامى وبمعناه القرآنى .

انى اشهد انا فى حاجة الى محاسبة النفس والاتكال عليها متحـرين فى عملنا من انفسنا ومن غيرنا وانا فى حاجة الى ان نأكل خبزنا « الاكحل » معا وان نأكل مسفوفنا فيما بيننا ـ بلا عنب ولا زبيب ان كان العنب والزبيب من تلك الثمار التى اذا أكلها الآكل مسخ ! وانا امام الخطر فى حاجة الى أن نغلق أبوابهـا فى وجه كل حصان « طراودة » حشـى بخبيث الاطعمة وان كان هذا الحصان عربيا مطهما . وانى فى حاجة الى مد اليد الى القراء والشباب فى عطف وتفاهم وحسن ظن بهم ورغبة فى الحديث معهم . وانا فى حاجة الى ان نجعل لأنفسنا مثلا أعلى نطلبه على الدوام .

انى رأيت فشهدت ـ واحدا منكم ـ لا ابتغى مرضاة احد ولا ضر أحد .

انى واحد من بينكم ! فشهد شاهد من أهلكم ان بالحقل الثقـافى رجـالا احتكروا الكتابة والخطاب وليس لهم دائما ما يقولون وان من الحقل الثقافى قوما لزموا الصمت والانعزال وهم ليسوا دائما فقيرى المادة ضعيفى القريحة وان القراء ازاء هذا الوضع فضلوا الراحة وعدم الاكتراث .

وانه يجب علينا ان كان الامر كذلك ان نكشـف القنـاع . قنـاع الخطـل والكذب والعجب وانه يجب علينا ان نغربل انفسنـا وان نخاطبهـا خطـاب الصدق حتى نفحص عن واجبنا وحتى نوضحه فى بيـان نؤمـن بـه ونعمـل لتحقيق غايته وانه يجب علينا ان نلتفت الى القراء وان نحسب لهم حسابهم وان نجعل بيننا وبينهم ميثاق الادب الحق .

عامـر غديـره

النهضة الاجتماعية وتنظيم النسل

بقلم : فتحية مزالي

ان البلاد التونسية (*) تعتبر من بين البلدان المتخلفة الماسكة زمام أمرها بنفسها وهى نسبيا بلاد صغيرة من حيث مساحتها وعدد سكانها وثروتها الطبيعة متوسطة . انها أيضا بلاد فتية اذ نصف سكانها لم يبلغوا عشرين سنة من العمر مع العلم ان 32 من بين 100 مولود جديد يموتون قبل بلوغ السنة الاولى و 20 يموتون قبل بلوغ سنة التاسعة عشر ومعنى ذلك انه فى سنة 1950 — 52 فى المائة لم يبلغوا سن العشرين . ان هذا الشباب مهدد الا ان كثرة الولادات تضمن دائما تعويض الهالكين ويكفى التأكد من ذلك ان ينظر المرء حوله .

واذا نظرنا الى المرأة التونسية وجدناها كثيرا ما تشكو وتئن وربما طاب لها ذلك . ان مشاكل كثيرة تعترضها طبعا ويدفعها الحياء الى التظاهر بالابتسام والمرأة الصريحة تقول لك ان لى عدد كذا من الاولاد واترقب مولودا آخر فاذا قلت لها ماذا تترقبين لانهاء ذلك أجابت أعتقد انه المولود الأخير . ويتجدد الحوار فى السنة الموالية وقد تفر المرأة من عناء الجواب قائلة تلك ارادة الله ، انه القدر . ولكن هذه المرأة تسعى دائما فى الحقيقة لاجتناب الحمل وتتفضل أحيانا عجوز باقتراح بعض الوسائل وهى تستر خبثها واقول تستر خبثها لانى رأيت الابتسامة تضىء وجه امثال هذه العجوز عندما تعلم ان العروس حامل منذ الاسابيع الاولى بعد الزواج . ان هذه العروس منذ ان حملت دخلت جيش النساء المتعذبات . لم تمض أسابيع على زواجها واذا بها تنفذ حكم القدر . ويسليها القوم عندما يرثون لحال العائلة المحرومة من الاطفال ويشفقون عليها ايضا فى نفس الوقت الذى يهنئونها فيه بالحدث السعيد ويعلمونها التجلد ، لقد أنتهى عهد الشباب . يجب ان تقرأ حسابا للاشخاص (المحترمين) الذين هم حولها ويجب عليها ان تتكلم وان تعترف وان تنتصح ، لقد أنتهى عهد الحياء ايضا وكذلك طبيبها المتأثر بالقانون

(*) من مقال مطول صدر بمجلة الفكر س 5 ع 59 ص 84 الى 92 سنة 1960

الفرنسى فهو الحيطة نفسها والحذر بالذات : عليها اذن ان تعول على نفسها اما ميزانية العائلة المتوازنة بعد عناء كبير فانها يجب ان تبقى متوازنة أيضا بالنسبة الى ثلاثة أشخاص ثم لخمسة ثم لستة ثم لعشرة وربما لـ 12 واليوم ايضا بساعاته المحدودة يجب أن يكون كافيا للقيام بشؤون العائلة كلها على تزايد اعضائها الا ان طيبة القلب وربما خشية سوء العاقبة تمنعان ربة المنزل من الوقوف عند هاته الاعتبارات الانانية واذا بها تشمر على ساعد الكد وكثيرا ما تعجـز عن ذلك ويقسو القدر فاذا هى حامل من جديد وعوض ان تنتظر من الزوج اعانة ما تدفعه الى البحث عن شغل يوفر مداخيل كافية .

تلك هى الوضعية من الناحية العائلية وصعوباتها المادية . الا انه عندمـا يكبـر الاولاد يشعر الاباء بصعوبـات التربية وكـم من بينهـم يهربـون من مسؤوليتهم فتعتمد الام على صرامـة الاب الذى كثيـرا ما يعتبر غريبـا عن المنزل مهمته فرض النظام ولو فى الظاهر . واعتبارا بذلك تقسم الام انها لن تزوج ابنتها فى سن مبكرة حتى لا تقاسـى كثرة الأولاد وتقسم أيضـا انهـا ستثقفهـا حتى تقدر على السيطرة على الموقف فـى العائلة وتقسم انها ستهيئها كى تقدر على القيام بوظيفة او شغل ما فيتيسر لها ان تتحرر . وقد لاحظت ان بعض الاوسـاط تعرف كيف تجتنب الحمـل ولاحظت ان اخوتها فى تلك الاوساط يتمتعن بقدر كبير من الحرية وان لهن شخصية وانهن لا يرزحن تحت عـبء عدد الاطفـال المتكاثر وان لهن مـن الحيـل والوسـائـل مـا يتمكن بـه من الافلات من عبوديـة المادة وان رؤية طفلين او ثلاثة يتجولون لابسين ثيابا نظيفة ومتمتعين بصحـة جيدة ومشمولين بالعطف والتقدير لمن شأنه أن يفتح الافق حيث عالم جديد وقيم محببة الى النفس محترمة .

وهناك أشخاص كثيرون يؤثرون ازدياد عدد التونسيين بسرعة ملاحظين ان 4 ملايين عدد ضئيل بالنسبة للامم الاخرى والجواب المعروف هو ان الاولوية يجب ان تكون للكيف لا للكم وان البلاد التى تروم الخروج من التخلف فـى حاجة الى اطارات اى اشخاص مكونين تكوينا صحيحا وقادرين على مسك زمام مستقبل البلاد بأيديهم .

وبعضهـم يلاحظ ان نسبـة وفيات الاطفال كبيرة واذن فلا موجب لتحديد الولادات والجـواب هو انه بالرغـم عن خطورة هذه النسبة فان سرعة ازدياد عدد السكان بتونس كبيرة جـدا .

وان هذا الحل الذى نسميه حلا ديموغرافيا سوف ييسر النمو الاقتصادى والنمو الاقتصادى من شأنه أن يقلل من نسبة وفيات الاطفال . حذار اذن من الوقوع فى هذه الدائرة المفرغـة .

ومن الناس من يؤثرون التفكير المطلق ولا يقبلون بحال استعمال الوسائل الكفيلة بتحديد النسل لكن اذا كانت مصلحة المجتمع وتوازن العائلات يقضي بتحديد النسل واذا وفرت قلة الاطفال في العائلة الواحدة المجال للام كي تعتني اعتناء أكمل باولادها وتستعد لذلك الاستعداد المطلوب ما هو المبدأ الذي يستند عليه القوم ليخشوا تحديد الولادات ؟ ان الخطر الوحيد هو شيخوخة الامة المهددة بالانقراض ومن واجب العالم الديمغرافي في هذا المقام ان يمدنا بتدقيقات أكثر في شأن ظواهر العمران وربما امدتنا احصائيات 1960 بمعطيات جديدة ولا بأس ان يدرس الشباب في برنامج الجغرافيا البشرية مثل هذه المشاكل ، اما اطباؤنا وصيادلتنا فمن واجبهم ان يعرفونا بقيمة مختلف الوسائل المستعملة لتحديد النسل والتي يزداد عددها يوما بعد يوم . فقد احدثت مصحات في بعض بلدان الغرب امجرد اعداد المرأة لتصبح قادرة على تحديد نسلها ولتتعلم أسباب الوقاية من الاضطرابات الناتجة عن سوء الاستعمال ومن ملاءمة بين الوسيلة المستعملة وحالة المرأة البدنية ، ان المراقبة الطبية في هذه المصحات واجبة وكثيرا ما يستعملون في غير وجل اسلوب (اوجينو) وقد انعقد يوما بالهند اجتماع ضم نساء اميات وحاولت المسؤولة ان تشرح لهن هذا الاسلوب فسلمت لكل واحد منهن آلة تحتوي على كويرات وكان يكفي ان توجه المرأة كرة منها كل يوم من اليمين الى اليسار لتعرف بالضبط ما هي المدة التي تكون فيها عقيما فارتاحت الحاضرات لهذه الطريقة البسيطة الا ان البعض منهن وضعن دفعة واحدة جميع الكويرات على اليسار ليصبحن جميعا عقيمات حالا وقد اثبت الفحص الطبي انهن حملن ذلك الشهر ، واذن فان الوسائل المستعملة لا تنجح بسهولة وبسرعة ولا بد من ممارسة طويلة وصبر كبير وتربية وتثقيف لبلوغ الغاية .

وبالعكس من ذلك نجد في الولايات المتحدة بعض المصحات المختصة في معالجة العقم وفي كلتا الحالتين فان الغرض هو تحرير الفرد ، هو ان تكون الأمومة مقرونة بالسعادة وان يكون الطفل مرغوبا فيه عوض ان يكون عالة .

لم نصل في تونس بعد الى المرحلة التي يجب ان ندرس فيها برنامجا عمليا لتحديد النسل . المهم اليوم هو خلق تيار في الرأي العام يساعد على ذلك ولا أشك في أن النساء وخاصة الصغيرات السن منهن يرحبن بذلك وقد لا يوافق ازواجهن وقد يحرصون على ان تبقى نساؤهن في حالة عبودية

ولسان حالهم يقول : اذا كانت المرأة لا تلد فماذا عساها تفعل وقد سمعت اما انجبت سبعة أبناء تقول انه ليعز على الانسان ان يرى ابناءه يغادرون المنزل العائلى الواحد بعد الآخر وعندما قيل لها : يجب ان تجد هذه المرأة شغلا آخر لا يعتمد فقط على تربية الاولاد أجابت المسكينة : لا أبدا بل يجدر بها ان تباعد ما بين الولادات ثم تلد دائما الى بلوغ سن الخمسين . وربما خشيت هذه المرأة الشيخوخة او بالاحرى ان يعتبرها الناس دخلت الشيخوخة اذ من علامات الشيخوخة عند النساء التوقف عن الولادة .

ان المرأة التونسية تعتبر منذ زمن بعيد انها خلقت لتتزوج ثم لتلد وتعتبر أيضا ان المسؤوليات الحقيقية فى الحياة ليست من نصيبها هى فلا بد من وقت طويل لتقتنع بأنه يمكنها ان تتحمل مسؤولية حياتها عوض ان تخضع لها .. ان البشر منذ غابر العصور حاولوا دائما ان يحددوا من نسلهم ولم تكن المسألة تهم الدولة فى الماضى وكانت النساء تتهامسن حول السر فى تحديد النسل معرضات أنفسهن الى الهلاك . وقد امكن للانسان بفضل تقدم العلوم فى جميع الميادين ان يتعلم كيف يقهر الموت . الا انه من الضرورى أن تتمكن البشرية من التغذية ومن حل المشاكل الناتجة عن تزايد السكان . لذلك رأينا بعض الحكومات تخصص فى التخطيطات الكفيلة بتوفير أسباب الازدهار الاقتصادى والاجتماعى برنامجا لتحديد النسل بينما تترك بعض الحكومات الاخرى الحرية التامة للمنظمات الاجتماعية . ان الحكومة الفرنسية عندما سجلت انخفاضا فى نسبة الولادات حرمت الوسائل المستعملة لتحديد النسل ومنعت الاجهاض بقانون 1920 ويوجد فصل فى القانون الجنائى يقر نفس الامر بنفس الصيغة منذ ذلك التاريخ بينما الفرق واضح بين البلادين من جميع النواحى واذا طالب بعض الفرنسيين اليوم بالغاء ذلك القانون فباسم تحرير الفرد كما يقولون اما بالنسبة لنا نحن التونسيين فان ذلك يكون من أجل تحديد نمو السكان والاعتبارات الاقتصادية .

واذا ما وجد تيار مناسب فى الرأى العام ووقعت دراسة مضبوطة للظاهرة الديموغرافية فى تونس ودراسة طبية للوسائل المناسبة فانه لا شىء يمنع البلاد التونسية من المضى ـ من غير تشاؤم ـ نحو عهد الرفاهية والازدهار لجميع المواطنين .

وان المرأة التونسية تعلمت بفضل سياسة الرئيس الحبيب بورقيبة الرشيدة البصيرة كيف تلعب دورها الاجتماعى بجد فالواجب يدعو الى ان نعينها على القيام بدورها .

فتحية مزالى

في الثورة الجزائرية

بقلم : محمد مزالي

تدخل الثورة الجزائرية (*) فى عامها الرابع ولم يزدها مر الزمان الا احتداما ولم تثنها المحن والمصاحب عن هدفها المقدس ولم تنل نيران الاستعمار من ذلك التوق العظيم الى الحرية والكرامة ولا من ثبات شعب كامل صابرا متجلدا امام اهوال الحرب وعسف الجبروت .

تدخل الثورة الجزائرية فى عامها الرابع وقد كانت فى اول نشاتها جهدا مباركا تضطلع به قلة من المجاهدين الاحرار فاصبحت اليوم تتنفس بانفاس شعب باكمله مهما تعددت مشاربه فى الماضى ومهما اختلفت طرق كفاحه فى القديم . ذلك بانها نشرت الوعى القومى فى جميع طبقات الامة الجزائرية من عملة شغالين وساسة مثقفين حتى تطرق النور الى تلك الاطارات الادارية التـى كان يعتمد عليها الاستعمار فالتفت هى بدورها حول قادة الثورة واعلنت كفرها بالاستعمار وساهمت فى الكفاح .

ومن معجزات هذه الثورة الجزائريــة ان المحن والرزايا لا تزيد أصحابها الا ايمانا برسالتهم الوطنيــة وثباتا وبسالــة ، فليس اجتمــاع كلمــة الشعــب نتيجة حساب او طمع : على عكس ذلك فان كل ضربة يسددها الاستعمار نحو الشعب انما تزيده تيقظا وتحفزا وشغفا بالمخاطرة .

ذلك ان الثورة الجزائرية مغامرة عظمى ، مغامرة الانسان يتطلع الى انشاء كيانه من جديد ، ويتطلع الى الامساك بمقاليد مصيره حرا بريئا من شوائب السيطرة . هى المغامرة القصوى تحرك من الشعوب سواكن ومن النفوس اتواقا لا يكون الانسان جديرا بلقب الانسان اذا تخلى عنها ، ولا تكون الشعوب جديرة بالحياة اذا لم تنشدها ولم تسع لتحقيقها مهما كلفها ذلك من الثمن .

لذلك هى تقيم الشعب الجزائرى مقام اختيار : بين الموت والحياة . وقـد فهمت ذلك المرأة الجزائرية فهى تزج بنفسها فى هذه المعركة بكل ما لديهـا من قوة وعتاد وهى تتفانى الى جانب الرجل فى صمت وتبصر وشجاعة جديرة بالاعجاب . ولسوف يكون ذلك خير بذر للمجتمع الحر العادل الذى سيشيده اخواننا الجزائريون غدا عندما يطل عليهم النصر ، « وما ذلك على الله بعزيز » .

(*) س 3 ع 2 ص 1 سنة 1957

تحية الى مؤتمر الأدباء والصحفيين الفلسطينيين

بقلم : محمد مزالي

ان من (*) العواطف والاحاسيس (1) ما يملأ الصدر ويفيض فيضا حتى اذا رام المرء ان يترجم عنها ضاقت الكلمة واستعصت ، لانها مهما صفت وامتد اشراقها اشعاعا وايحاء فلن تسمو الى التعبير عما تزخر به الروح ويجيش به الوجدان .

وتلك حالي وانا التقي بهذا الحشد الحاشد من اخواننا رجال الفكر والادب الفلسطينيين ، جنود النضال المقدس من اجل الثورة الفلسطينية المباركة المسلحين بالرشاش والقلم معا ، الذين وفدوا على تونس من كل ساحات الوغى ومواقع الكفاح والصمود وشرفوا هذه الرقعة المباركة من الارض العربية ليعقدوا فوق اديمها مؤتمرهم الثاني هذا .

بل تلك حالنا جميعا ونحن نلتقي بكم فنقرأ في وجوهكم آلام الشعب الفلسطيني وآماله ، وننظر اليكم فتمر بمخيلتنا مآت الوجوه من زملائكم الذين استشهدوا لانهم آمنوا بقدسية الحرف وتقمصوا قضية شعبهم بكل اخلاص وتفان وماتوا لتحيا فلسطين ولتنتصر القيم الانسانية التي تجسمها الثورة الفلسطينية ، ونقف معكم فاذا بكم رغم هجمات العدو التتريه ، ورغم مكايد الاحداث وظلم ذوي القربى وشدة مضاضته ، عزم حديد وجهد دائب ، بل

(*) الفكر س 22 ع 7 ص 1 سنة 1977

(1) كلمة السيد محمد مزالي عضو الديوان السياسي ووزير التربية القومية ورئيس اتحاد الكتاب التونسيين آنذاك (الوزير الاول الآن) في افتتاح المؤتمر العام الثاني للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين (دار الحزب في 4 مارس 1977)

انكم في جدل الثورة الفلسطينية رؤية رسولية للكون ودفقة حضارية وعزم على شق الطريق الى القمم وفتح سبل الامكان امام التاريخ . انكم امل شعب آمن بأنه اذا اراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر .

فلتسمحوا لي وانا في هذا الموقف المؤثر بأن اتوجه اليكم من ربى تونس الخضراء باسم تونس رئيسا وحكومة وحزبا وشعبا ، بتحيات أخوية تعبق حبا وتقديرا ، وان ارحب بكم ترحيبا صادقا باسم اتحاد الكتاب التونسيين الذين يشرفهم ويسعدهم ان يلتقوا بكم وان يساهموا بكل ما يملكون من طاقة وامكانيات ، في انجاح مؤتمركم الثاني الذي يعقد في هذا الظرف الدقيق من حياة الامة العربية اي من حياة القضية الفلسطينية .

أيها الاخوة المناضلـــون

اني لست في حاجة لتأكيد تضامن الكتاب التونسيين بل كل التونسيين معكم لاننا نعتبر ذلك امرا طبيعيا وواجبا . وليس تضامننا معكم ووقوفنا الى جانبكم من باب التغني بفلسطين القضية التي تزين الخطب وتمهد الى الزعامات وتريح الضمائر ، ولا من نوع المحاولات الاحتوائية ـ سياسيا او مذهبيا ـ التي تعمد اليها بعض الدول المدعية لنفسها رسالة تبشيرية في هذا العصر ، انما موقفنا معكم هو ايمان بفلسطين الثورة ، بفلسطين الشعب الذي له حق الوجود الحر الكريم ، الشعب الذي ابتلي منذ أوائل هذا القرن باستعمارين في نفس الوقت الاستعمار البريطاني الذي كان سياسيا واقتصاديا وعسكريا والاستعمار الصهيوني الاستيطاني الذي يروم ولا يزال احلال اشتات من اليهود الصهاينة محل شعب فلسطين العربي منذ المؤتمر الصهيوني الاول المنعقد سنة 1897 في مدينة بال .

ان تضامننا معكم لا تمليه علينا مشاعر الاخوة في الدين واللغة والحضارة فقط ، بل هو مظهر لكفاحنا المشترك ضد الاستعمار والامبريالية والتمسك بقيم الحرية والعدالة والسلم التي يؤمن بها كل البشر ويكافحون من اجلها لاننا في تونس قاسينا طوال ثلاثة ارباع القرن استعمارا توطينيا حاول هو الآخر ان يقضي على اصالة هذا الشعب العربية الاسلامية وتمكنا من التغلب عليه واجتثاث جذوره بفضل كفاح مرير دام اكثر من ربع قرن بقيادة محرر تونس وزعيمها الفذ الرئيس الحبيب بورقيبة .

وفي احلك فترات الكفاح بينما كان يفصلنا عن العالم العربي وعنكم خاصة جدار حديدي ضربه الاستعمار بين جناحي العروبة ، كنا في رحاب الحزب الدستوري نتظاهر سنة 1936 و 1937 ونعقد الاجتماعات ونصادق على اللوائح،

ونعبر عن تضامننا مع ثورتكم بقيادة فوزي القاوقجي ثم مع نضالكم في سنة 1943 ثم انطلق سنة 1947 و 1948 مآت من الشبان التونسيين عبروا الحدود راجلين لضم جهودهم الى جهودكم في معركة التحرير واستشهد منهم الكثيرون في القدس وغيرها بينما ظهرت جلية خيانة بعض الحكومات والانظمة العربية التي ادعت انها بعثت بجيوشها لتحرير فلسطين .

وان اصالة هذا الشعب ووطنيته وصدق مشاعره تجلت في مواقف تونس البورقيبية غداة الاستقلال تجاه الثورة الفلسطينية ثباتا على المبدأ ، ودعما أقصى ماديا ومعنويا ، ووفاء خالصا ليس ادنى مظاهره ما اخذ به الرئيس الحبيب بورقيبة نفسه من صراحة في القول واجتهاد في التحليل وابداء للرأى وهو الذى دعاكم قبل غيره من المسؤولين العرب الى التخلص من كل أنواع الوصايا وتنظيم صفوفكم وشنها ثورة مسلحة حتى النصر في أرض فلسطين بالذات ، وهو الذى نبه الى اهمية الرأى العام العالمي وضرورة توعيته ومخاطبة الاجانب بما يفهمون اى محاربة الصهيونية بسلاحها وتعريتها وكشف مغالطاتها .

ولئن دعا الرئيس الحبيب بورقيبة الى الشرعية الدولية وقرارات 1947 القاضية بالتقسيم فانما كان ذلك ضمن خطة كفاحية مضبوطة تعتمد بلوغ النتائج الايجابية ولا تقيم وزنا للهذر السياسي العقيم .

وقد جاء في البيان الذى القاه الرئيس الحبيب بورقيبة في اجتماع رؤساء الدول العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1964 « ينبغي ان نفهم الكفاح على انه حركة ايجابية وقوة منطلقة وزحف منظم نحو الهدف . وجدلية صارمة في مبادئها ولكنها حية مرنة تعمد الى تذليل الصعاب بنسف معاقل القوة المعادية معقلا بعد معقل لفتح الطريق نحو الهدف النهائي .

وليس هناك صلة بين هذه الطريقة والسلوك الذى عرف بمبدأ خذ وطالب والذى فيه معاني الاستكانة والتسول والرضى باى شيء .

فلا بد من التمييز بين الحلول المنقوصة الايجابية الثورية التي تساعد على السير وتزيد في قوة الكفاح وبين الحلول المغشوشة التي تعرقل السير وتوصد الابواب وتزيغ عن الطريق النافذة » .

نقول هذا للتاريخ وللعبرة والمهم هو ان الفلسطينيين ارادوا الحياة واختاروا من دون اية وصاية درب الكفاح الذى هو الكفيل وحده بتحقيق الهدف المقدس . وان على الكتاب والمثقفين العرب ورجال الفكر الاحرار في كافة

انحاء العالم ان يناضلوا اليوم من اجل الثورة الفلسطينية باعتبارها كفاحا غايته تحرير الانسان .

وانه ليتعين علينا ان ننزع من صدورنا مهابة العدو فشر الهزائم هزيمة الروح وهى أخطر من سلخ الارض وضرب المقاتلين . وان عملنا الثقافى هو قبل كل شيء المحافظة على روح الامة وعلى معنويات الشعب .

ان للكتاب العرب رسالة لا بد من ان يضطلعوا بها تتمثل فى الاسهام فى التقدم الحضارى من اجل بناء عالم مبرا من الاستعمار والظلم والعنصرية .

وان على الكتاب الفلسطينيين قبل غيرهم ان يثبتوا الذات القومية الفلسطينية وان يسجلوا خصائص الشعب الفلسطينى من اجل ابطال الدعايات الصهيونية التى تجند فى العالم اضخم اجهزة الاعلام قصد محو بطاقة الهوية الفلسطينية ، كما ان دور الادباء هو فضح الطبيعة العنصرية الرجعية للكيان الصهيونى وفقا لقرار الامم المتحدة الصادر فى 10 نوفمبر 1975 والذى ادان رسميا اسرائيل بوصفها مقامة على اصول عرقية وايديولوجية تفوقية .

ان العمل الثورى ينبغى ان يندرج فى سياق التاريخ ويتعين على رجال الفكر ان يميزوا بين ما قد يعترينا من نكسات وهزائم وقتية تفرضها اللحظة وبين الخطة الطويلة النفس وما نتوخاه من طرق وترسمه من مراحل .

هذا وبالرغم مما يؤمله اعداؤنا بسياساتهم العدوانية وبعددهم وعتادهم من انكسار همتنا واستسلامنا للامر الواقع ، فاننا هنا فى تونس نتمسك بالتفاؤل ، ولهذا التفاؤل فى نظرنا مبررات اهمها انكم انتم شباب فلسطين تمثلون أقوى تسفيه لاحلام العدو . انكم تمثلون الجيل الذى ظن العدو انه سينسى فلسطين ، فاذا بكم اشد مراسا واصلب عودا واقوى ذاكرة . لقد ابتعدتم عن الرومانتيقية البكاءة ودخلتم بالادب سن الرشد والفاعلية .

انتم جيل الوعى والمسؤولية تمثلون امل الامة العربية فى الخلاص والنهضة والقضاء على الظلم والعدوان .

وفى ختام هذه الكلمة لا يسعنى الا أن اجدد لكم باسم تونس رئيسا وحكومة وحزبا وشعبا وخاصة باسم اخوانى الكتاب التونسيين عبارات الترحيب وان ابارك اعمالكم وان اعبر لكم عن تضامننا من اجل ثورة حتى النصر .

محمد مزالى

في وظيفة الأدب والفكر

بقلم: محمود المسعدي

ان وظيفة (*) الادب والفكر ـ فيما نعتقد ـ وظيفة تتصل بالجوهر الدائم القار من « الوجود الشرقي العربي » وليس من الافتراء على العلم ان يقال ان الذي تمتاز به المغامرة الوجودية التاريخية للعالم العربي انها لا تزال على كر العصور تتجدد معجزتها ، ومعجزتها في ان هذا العالم لم يزل من يوم نشاته وتكونه تمر به تقلبات الاحوال السياسية وتتغير به انظمة الحكم والادارة ويصطبغ في ذلك بصبغ العصور والبيئات بل وتتكون فيه احيانا الخلافات المتجافية ببغداد وقرطبة او ببغداد والقاهرة المعزية ـ او تنشأ فيه الامارات والدويلات المستقلة بعضها عن بعض ـ فاذ هو يخرج في كل مرة من تلك المغامرة الخطيرة بخاصية باقية فيه لم تؤثر فيها الحوادث اى تأثير الا وهي وحدته في الروح وفي العاطفة وفي الاتجاه الفكري العام ، ووفاؤه الى هذا النوع من الحضارة الذى ابتكره وغذاه بعقول خيرة رجاله وشارك به في بناء صرح الحضارة الانسانية الشاملة ، ذلك ان الشرق العربي قد وفق خلال جميع هذه الاطوار الى طريق الحكمة والسداد ، وعرف كيف يميز بين الجوهر والعوارض ، وكيف يعتبر الواقع الانساني من تاريخي وسياسي واجتماعي وجغرافي واقتصادي ، وكيف يحسب حساب مقتضيات الاحوال فلا يعارضها بل يترك كل تجربة محلية نبعت من صميم الواقع العمراني وصميم الظروف التاريخية تجرى مجراها الطبيعي حتى تنصب بالطبع كما ينصب الجدول في نهر الحضارة العربية الاعظم ....

ان ماضينا قد القى علينا درسا لا تقدر قيمته في الحرية والاختيار ، وان كل حصر او ضغط او توجيه للفكر لا يكون فيه على الفكر الا الوبال والموت ، ليكن نصب اعيننا الجوهر ، ولنعمل على توضيح العوامل القارة للاخاء العربي ولرقي الحضارة العربية والتفكير العربي ، معرضين عن عوارض الزمان والمكان كما فعل اجدادنا من قبل .

(*) الفكر س 3 ع 4 ص 4 الى 5 سنة 1958

هل من سبيل الى الخروج من هذا الوضع ؟

بقلم : البشير بن سلامة

التأمت بالبلاد التونسية في غضون شهر افريل 1978 (*) ندوتان اعتبرهما هامتين من الوجهة الفكرية والحضارية ، الاولى بقفصة في نطاق الملتقى الخامس لابن منظور الافريقي (أيام 30 ، 31 مارس و 1 ، 2 أفريل 1978) حول دور التعريب في تطوير اللغة العربية . والثانية بقمرت ضمن أول لقاء يجمع بين الجامعيين المصريين والتونسيين بتنظيم من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة ومن مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس (من 12 الى 17 أفريل 1978) حول الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع .

فملتقى دور التعريب في تطوير اللغة العربية كان فرصة لتداول عدة مواضيع تتعلق بلغة الضاد لا فيما يختص بالتعريب فقط بل تطوير اللغة وفهم اسرارها أيضا ذلك ان موضوع التعريب أصبح في بلادنا أمرا لا يناقش فيه الكثير نظرا الى أنه أصبح من المسلم به أن يستعمل أهل العربية لغتهم في كل شؤونهم سواء كانت تعليما أو ادارة أو حياة عامة لأنه لا خلق ولا نهضة حقيقية لا في اللغة الأم حسب ما أكده جميع علماء العالم . اذ الانسان لا يمكن له أن يستوعب وينتفع بغذاء خارج عنه الا اذا أمكن لمعدته أن تحتويه وتهضمه وتوزعه في نسق دقيق على كل أعضاء البدن وكذلك نتاج اللغات الاجنبية الذي هو غذاء الحضارات لا يثمر ولا يعطى أكله الا اذا انصهر في بوتقة اللغة الأم وتلاقح معها وقدرت هذه على هضمه وتكييفه لبثه في شرايين المجتمع . هذه الحقيقة أصبحت لا منازع فيها اليوم .

(*) الفكر س 23 ع 8 ص 1 سنة 1978

كسب آخر تجلى لـي من هذا الملتقى هـو ان جيلا شابا من الجامعييـن التونسيين تحمس لهذه الحقيقة وتخلى عن كل احتراز فى شأنها وهو أمـر هام ، نظرا الى الدور الاساسى الذى تقوم به الجامعة فى هذا الشان . وليس معنى هذا ان الصعوبات قد زالت واننا سوف نتخلى عن اللغات الاجنبيـة بل ان المطلوب من اطاراتنا العليا العارفة باللغات الاجنبية والمتشبعة عن طريقها بالعلوم والمعارف الجديدة أن لا ترضى بدور المترجم الببغاء أو المترجم عنه فى مباشرتها للحياة العامة وفى افادتها للجماهير بل ان مجهودا يتعين القيام بـه لتجاوز ذلـك بحذق اللغة الأم وتفادى اضاعـة الوقت والمصاريـف الزائـدة والمجهودات المهدورة شأنهم فى ذلك يجب أن يكون كشأن الفرنسى والروسى واليابانى الذى يتلقـى مستحدثات الأمم الاخـرى فيستوعبهـا ويفرزها فى مجتمعه بصور متعددة من دون ان يتقمص نفسية المترجم السلبى الذى يقتصر على القيام بدور الناقل وهذا فى الواقع وجه الازدواجية القاتم الذى تشبثنـا به فى جل البلدان العربية ، بينما الوجه الآخر المشرق الخلاق أعرضنا عنـه لأنه الأصعب والمتطلب لجهود أكبر للخروج من طور المستهلك للجاهز المقدم فى قالب حقن أو أمصال للأبدان العليلة غير القادرة على الغذاء الطبيعى .

أما الملتقى الثانى الذى تناول موضوع الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع فانه كان مجالا خصبـا للتدول فى ثلاثة أغراض هامة هى الشخصية العربيـة والشخصية التونسية والشخصية المصرية . وبالطبع كان الملتقى مفيدا جدا لأنه نبه التونسيين والمصريين على حد السواء الى دقائق هامة اذا سهى عنهـا أو أهملت لا تعين على المضى خطى ثابتة فى سبيل الوحدة المنشودة . وقـد أسهم فى هذا الملتقى الاستاذ محمد مزالى وزير التربية ومدير هذه المجلـة برأيه الاسهام العميق المستوفى .

ولسائل أن يسأل بعد هذا ما علاقـة هذا كله بعنوان السانحة : هـل من سبيل الى الخروج من هذا الوضع ؟ والوضع بالطبع هو وضع العالم العربـى الاسلامى الفكرى والحضارى الذى لا يحسد عليه . العلاقة واضحة هو ان أهل العربية الممثلين فى نخبتها السياسية والفكرية والعلمية يعانون نفس القضايا التـى اصطدموا بها فـى العصر الحاضـر ولم يجدوا حلا لهـا منذ ان بدؤوا نهضتهم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وهذه القضايا تتمثل فى ثلاث حسب رأيـى :

ـ المعاصرة والأصالـة وركضهم الحثيث للالتحاق بركب الأمم المتقدمـة والمحافظة على روح حضارتهـم .

ـ شعورهم بالانتماء الـى أمة واحدة لشعورهم بخصوصياتهـم الوطنية .

ـ البترول الذى احدث أخيـرا فروقا فـى البلدان العربية وعقد الوضع السياسى والاقتصداى والاجتماعـــى .

واعتقد ان كل المشاكل العربية الاخرى بما فيها القضية الفلسطينية ناجمة عن هذه القضايا الحضارية التى لم تقدر المجتمعات العربية بقياداتها السياسية والعلمية والفكرية على تجاوزها . وما دمنا نلتقى للخوض فيها والتعرف علـى الجزئيات منها والدقائق الكامنـة فيها نبقى فى طور البحث والدرس وطرح المشكل بينما الوضع يقتضى القيام بهذا كله بالطبع ولكن المهم هـو ايجاد الحل والظفر بالسبيل الذى بفضلـه يمكن لنا الخروج من طور التردى فـى المشاكل الى طور التجاوز للانصهار فى الحضارة العصرية والمساهمة فيها كما أمكن لليابان أن يقوم به . وليس معنى هذا ان نقف نفس الموقف الذى وقفـه اليابان بل المقصود هو ايجاد التوازن الذى بفضله نخرج من هذا الوضع .

ولقد كنت نبهت (*) الـى الظاهرة اليابانية الفريدة فى نوعها فى العـالم الثالث وسقـت ما كتبه زائر اوروبى عن هذه الأمـة عندما تحير من درجـة الحضارة التى فاقت بها الغرب فى ثقافة ابنائها وفى المعجزات التقنية الحاصلة بفضل « جدهم فـى العمل وحنكتهم وفعاليتهم بدون انقطاع ولا طفرة كأنهـم ارضـة الكترونية » ولكن الذى حيره ليس هذا فقط ولا انهم يعدون مائـة مليون نسمة بل الذى حيره هو ان هذه المائة ميلون نسمة يخرجون أغلبهم فى الصبـاح من القرون الوسطى ليدخلوا فى ظرف عشر دقائق القرن الحـادى والعشرين من دون صدام ولا ضجة . انه لأمر محير بل هو مأسوى » .

هو مأسوى حقيقة بالنسبة لهذا العقل الاوروبى لكن العقلية اليابانية التى تعودت نمط التفكير الاوروبى وبقيت متشبثة بأصالتها لا تعد هذا مأسويا . لان الفكر اليابانى « لا ينحو المنحى الاستدلالى المنطقى بل هو حدسى ولا يهمه المبدأ الذى يستنكف مما يعد تناقضا كما دأب عليه الغرب فى منطقه » فالفكر اليابانى هو أبعد ما يكون عن العقلية الرياضية لان اليابانيين يميلون الى المعرفة عن طريق القلب أكثر من المعرفة عن طريق العقل . « وان عقلية مثل هـذه لا تعجبها الدقة المنطقية ؛ اذ ان كل معطى هو فى حد ذاته كامل ومن واجبنا ابقاؤه

(*) انظر كتاب قضايا ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس 1977 ص 122 .

كما هو لأن تحليله وتدقيقه هو تجزئة له وتشويه وتسليط ضرب من العنف على كليتـه . ومثل ذلك موقفهـم من الواقع الاجتماعـي . فالنظام والسلم الاجتماعية من المعطيات المسلم بها فلا فائدة اذن من ادخال التشويش عليها ، ولهذا فان المشاكل الاجتماعية تلقى مسؤوليتها على الجميع والواجب يدعـو الى تلافيها لأن الياباني يكره الحلول القاضية بتغليب شق على شق .

وفي هذا السياق أسوق نادرة تشرح هذه العقليـة ..

ـ يحكـى ان جباسا أضاع وهو مار بالطريق كيسا به ثلاثة ريو (السكـة في عهد الامبراطور توثوكاوا) وخاتمـا ووصلا . فعثر على هذ الكيس نجـار ودله الوصل على عنوان صاحبه . فتوجه رأسا الى منزل الجباس وسلمه مـا وجده . ولكن النجار لم يتوقع موقف الجباس الذى أبى أن يسترجع المال بعـد ان احتفظ بالخاتم والوصل وقال للنجار : « ان الثلاثة ريو فارقتني عن طيب خاطر لتدخل حوزتـك . لهذا فانـي استنكف ان استرجع شيئا هو في مثل هذا العقوق . ان هذا المال لك وحدك » فاستشاط النجار غضبا لما تجشمه من مشقة للوصول الى منزل الجباس ونجمت خصومة بين الرجلين كان مآلهـا الوقوف أمام القاضـي . فحكم هذا بافتكاك المبلغ المالي واعطاء كل واحد مـن المتشاكيين اثنين من الريو . ثم شرح لهما أسباب هذا الحكم قائلا : « انـي مسرور أشد السرور بما تتحليان به من أمانة . ولهذا قررت جزاء لأمانتكمـا اصدار حكم سميته : كل من ثلاثتنا يخسر ريو ، لماذا ؟ فالجباس خسر ريو لانه لولا اضاعتـه لكيسه لأبقـى على الثلاثة ريو والنجـار خسر ريو لأنـه لو قبل عرض الجباس لربح ثلاثة ريو وانا خسرت ريو حتى تمكنت من اعطـاء النجار والجباس اثنين من الريو » .

هذه النادرة تدل على انه ليس هناك ربح وخسارة حسب المفهوم الاروبـي اذ الطرفان رضيا بالحكم فلا غالب، و لا مغلوب . بينما الجماعة ضحت بشيء من أجل استتـاب السلم حتـى الحاكم ، وهذا هـو المثل الاعلى في الحيـاة الاجتماعية المتمثل في الاعراض عن اثارة اى نوع من الخلاف . واذا اتفـق ان وقع خلاف فان واجب المعنيين بالامر يقتضي الوصول الى اتفاق مهمـا كـان الأمـر .

(**) المعلومات مستفادة من مادة يابان في دائرة المعارف العالمية .

لا أريد أن افيض فـي هذا الاتجاه وفي هذا المقام لان الحديث عن اليابان يستدعي فصولا وفصولا . وانما الذي أغراني بذكر ما ذكرت هو قدرة اليابانى على تذليل ما عجز عنه العربي وتخطى ما بقي فيه أهل العربية من تردد دائم وبحث طويل عن الحلول التي تخرجهم من هذا الوضع المشين .

لذا فانه يتعين علينا جميعا في درس القضايا المذكورة ـ ويجب قتلها بحثا ودرسا مـا في ذلك شك ـ ان نخلص بسرعة من هـذا النوع من الدراسـات والبحوث وأن نصل الى اقناع الرأى العام العربي الاسلامي وبالتابع السياسات بضرورة تجاوز هذه المرحلة في أقرب وقت والاقدام على عقد ندوات طيلـة عام تقوم بها اليونسكـو مثلا وتكون سنـة التجاوز بالنسبة للعالم العربـى تجاوز الخلافات والهامشيات والقضايا العاطفية المصطنعة مرة واحدة . اذ يظهر أن الوعـى بالبديهيات فـى هذا المجال بطـىء جدا حتى فـى بعض القيـادات الفكريـــة .

واقصد من هذا ان يتفق أهل الحل والعقد في العالم العربي الاسلامي على رؤوس الملأ وبمشاركة وسائل الاعلام كلها وفي البلدان العربية جميعها لا في القاعات المغلقة على تجاوز هذه المتناقضات والاصداع بالطرق التى يجب توخيها لصنع مستقبل الجماهير العربية فـى الوضوح التام وبالعزم الاكبر والانبل .

واعتقد ان هذا الاقتراح يظهر من قبيل الخيالات والاوهام نظرا الى الخلافات الموجودة في العالم العربي سياسيا ولكنى أومن بأن الفكرة مهما كانت خياليـة فانها كالبذرة التى تنتظـر الظرف الملائم لتينـع وتزدهر . ولا مناص للعالم العربي من ان يشق طريقا أخرى غير التى سلكها منذ النهضة الاولى والا فانه حكم على نفسـه ان يبقى طويلا وطويلا فـى هذا الوضع المقيت المزمن الذى لا يشرف أمة أسهمت في حضارة العالم بقسط وافـر .

فهلا دقت ساعة التجاوز ؟ .

من اجل حوار حقيقي بين الشرق والغرب

بقلم : محمد مزالي

انى لسعيد بما اتاحته لى جمعية الصداقة التونسية الفرنسية (*) من فرصة للمشاركة فى هذا الملتقى بمحضر عدد من جلة الضيوف الفرنسيين امثال الوزير « ديجـو » وعضو الاكاديمية « موريس دريون » ورئيس جامعة باريس « روبار مالى » وجملة من المسؤولين عن التربية والثقافة بفرنسا ، وكذلك بحضور وزراء ونخبة من الجامعيين ورجال الفكر التونسيين ·

ان ملتقاكم هذا ليكتسى اهمية عظيمة اذ يقوم شاهدا جديدا على التعاون التربوى والمبادلات الثقافية بين بلدينا ويطمح الى ان يكون دافعا الى التفكير العميق فى آفاق التعاون وأبعاده ومستقبله وفى المصاعب التـى يواجهـها ، وكذلك فى شروط النجاح لهذا الحوار الذى نواصله بين تونس وفـرنسا ، وبصفة اعم بين الشرق والغرب ·

وانى أود بادىء ذى بدء أن أؤكد ، مثلمـا فعـل السيـد وزيـر خـارجية تونس منذ حين على الاختيار الحضارى الذى صدع به الرئيس الحبيب بورقيبة وعلى المدلول الذى أضفاه على كفاح الشعب التونسى من اجل استرجاع سيادته والظفر بحريته ، ذلك الكفاح الذى افضى الى ايجاد الظروف الحقيقية الدائمـة لارساء الصداقة التونسية الفرنسية ، وفعلا فلقد كانت العلاقات بين تـونـس وفرنسا طيلة ثلاثة ارباع القرن علاقات مسيطر بمسيطر عليـه بحيث كـانت الصداقة والسلم مستحيلتين فى مثل تلك الظروف · ومع ذلك فقد كان بورقيبة صديقا لفرنسا ، فرنسا التى سنت حقوق الانسان لا تلك التى كانت تبرز وراء

(*) الفكر س 23 ع 8 ص 6 سنة 1978

(1) هذا نص الكلمة التى القيت بالفرنسية امام المشاركين فى الملتقـى حـول «العلاقات التونسية الفرنسية فى الحاضر وآفاق المستقبل » والذى نظمته فى كلية الاداب بتونس جمعية الصداقة التونسية الفرنسية (افريل 1977)

وجه الحماية البشع • فبقدر ما كان معجبا بالثقافة الفرنسية كان يرى — ويسانده فى ذلك التونسيون — انه بدون استقلال وحرية وكرامة ، لا يمكن اقرار تعايش سلمى بين البلدين ، بله اقرار تعاون سليم بينهما • ولم يكن ثمة من يرى باستثناء عدد من المعمرين والمستعمرين تناقضا بين تمسك بورقيبة بقيم الثقافة الفرنسية وبين ارادته الجامحة والمنصرفة الى تحطيم الحماية وتحرير تونس من نير الاستعمار الفرنسى والعمل على احياء الثقافة القومية •

ومن هذا الموقف استخلص المتطرفون الذين ربما قرأوا تاريخ «تيت ليف» شكلا حديثا من اشكال « الخداع البونيقى » وبلغ انفعال « المتفوقين » (1) أشده عندما كان بورقيبة فى احلك ساعات الكفاح يدعو بكل قواه الى تعاون صادق نزيه مع فرنسا •

وانفتحت الطريق فى وجه صداقة خالصة غداة الاستقلال الذى تم الظفر به سنة 1956 بعد كفاح وتضحيات استمرت خمسا وعشرين سنة كان نصيب بورقيبة منها عشر سنوات قضاها فى السجون فضلا عن السنوات الاربع التى قضاها فى «الغربة» بمحض اختياره ، ولم تسفه تونس المستقلة منذ أكثر من 21 عاما رهان بورقيبة، اذ ان التعاون بين البلدان قائم كاحسن ما يكون التعاون .

انى ساقصر حديثى — ان سمحتم — فى مجال هذا التعاون على التربية والثقافة وسأتناول ذلك بصراحة وصدق بوصفى رجل ثقافة وتعليم ، بل بوصفى مواطنا تونسيا •

ان التحليل الصحيح الصادق لشروط النجاح الدائم للتعاون التربوى بين البلدين يفترض الاتفاق بخصوص الوسائل الملائمة للتوفيق بين مقومات الشخصية التونسية العربية الاسلامية وبين الثقافة الغربية التى تواجهها والتى لا يتعين عليها ان تتبنى اخلاقيتها وطريقة كينونتها ووجودها بل يحسن ان تتعايش معها فى تفاعل وتكافل • وهو يقتضى ايضا وبالخصوص فى النظام التربوى التونسى الاصيل تحديد مكانة اللغة الفرنسية ووظيفتها باعتبارها وسيلة اتصال بالمعاصرة واكتساب التقنيات والتكنولوجيا •

---

(1) هكذا كان يسمى غلاة المعمرين والموظفين المستوطنين بتونس (Les Prépondérants)

ولقد كانت سياستنا التربوية ، طوال سنوات الاستقلال العشرين عبارة عن مجهود متواصل للبحث عن توازن صحيح وناجع بين حرصنا على الاحتفاظ بذاتيتنا وبين طموحنا الى معانقة عصرنا بتحديد محتوى تربوى يساعد على تكوين اجيال تونسية بحق ، متفتحة على العالم الخارجي ، تتميز بالاستعداد النفساني والقدرة الفكرية على انعاش ثقافتنا القومية واحيائها بعد ان حنطتها قرون الانحطاط وكبلها الاستعمار .

وانها لمهمة دقيقة ومفاوضة شاقة حتمها بالخصوص هذا «الارث» التربوى الذى خلفته الحماية اذ نظمت أو أبقت بسابق اضمار على ثلاثة انظمة مدرسية (الزيتونية والصادقية ، والليسى الفرنسى) فأفرزت بذلك انماطا ثلاثة من العقليات على الاقل ، بغض النظر عن الاميين الذين كانوا كثيرين ، فشروط المعادلة كانت ولعلها ما زالت الى اليوم ، غير مفهومة بنفس الصورة من قبل كل البيداغوجيين وكل المثقفين وحتى كل السياسيين . ذلك أن المنطق التعليمى الماشى للعصر والآخذ باسباب التقنية يمتزج بالمنطق التقليدى المحافظ • وهكذا تكون الاولوية فيما يبدو لطلب النجاعة ومقتضيات البناء الاقتصادى على حساب تاكيد الذات القومية التى لم يحدد بوضوح اطارها التاريخي والايديولوجى • وبذلك يصطدم مفهوم للتعريب سلبى الى حد الوسوسة بميل عنيف وساذج الى كل ما هو اوروبى (Européocentrisme naïf) اى بتقليد لعادات الغير لا يخلو من خنوع ، وبتحذلق يدفع بالكثير الى الترطن بالفرنسية طلبا الى الظهور بمظر العصريين المتحررين المتطورين •

فما هى الاصالة التونسية اذن ؟ هل معناها الانغلاق داخل غل مانـوى : شرق ــ غرب ، عروبة ــ فرنسة ، رجعية ــ تقدم ••• ام يجب ادراك المشاكل بصورة واعية وجعلها تنعكس على المستقبل ؟ أفلا يقتضى واجب المسؤول ان يختار عن روية ، وان يعد الحلول المواتية والصحيحة وان يتخذ القـرارات الملائمة ؟

فنحن بصدد تحديد هذه السياسة التربوية المتوازنة ووضعها حيز التنفيذ ، اذ التحليل والفعل متكاملان وان هذه السياسة كفيلة بان تتيح لنا تجسيم هذا الاختيار الحضارى الذى قمنا به على صعيد وجودى وادرجناه فى سياق مصيرى والذى يتعين تعميقه وصقله باستمرار على الصعيد الثقافى •

ان الامر لا يتعلق بمشكل اللغة فقط ، ولو انه فى حد ذاتة مشكل شائـك

ومعقد ، بل هو يتعلق خاصة بمشكل محتوى الثقافة ، والمراجع الحضارية ومفهوم مصير تونس ومنزلة التونسي باعتباره عربيا مسلما وباعتباره انسانا .

وان من الناس من لا ينفكون يتحدثون عن المعاصرة والتقدم والعلوم والتقنيات وعام 2000 انهم لا يدركون الا الجانب العلمي بل العلموي ، وحجتهم الدامغة هي النجاعة والنمو المادي . انهم ينسون ان أي سلوك واية معرفة وأي فعل لا بد ان يقتضي الخضوع الى نسق من القيم قائم الذات والى رؤية كونية خاصة ومراجع ايديولوجية معينة ، وانه لا يكفي ان يكون لنا تكوين علمي وان نتحدث عدة لغات للاضطلاع باصالتنا والاسهام في تغيير العالم والنهوض بالانسان . ان الاقتصادوية (Economismé) والتقنوية (Technophilie) لا يشرحان كل شيء وهما لا يستطيعان بمفردهما مصالحة الانسان مع نفسه .

ويتضح اليوم اكثر فاكثر انه لا توجد حضارة واحدة ، بل حضارات ، كما انه لا توجد ثقافة واحدة مهيمنة بل ثقافات ، فكل الناس ـ باستثناء العنصريين والاستعماريين الذين لم يتعظوا بالاحداث ـ متفقون على ان الحضارة العالمية انما هي حصيلة اسهامات متعددة مختلفة تأتي من كل الشعوب ومن كل الثقافات . ولذا يتعين ان يتم تنظيم المبادلات الثقافية على أساس التعامل بالمثل : ان جدلية الاخذ والعطاء يجب ان تقود خطانا منذ الان ، فلكل شعب ذاتيته الخاصة وعبقريته القومية وان التعاون هو ايضا اثراء متبادل يفترض احترام الغير والتواضع والتسامح والاستعداد النفساني والفكري من قبل كل فرد وكل شعب للتعرف الى طرافة ما اسهم به الاخر وتقبله ان وجب الامر .

ولا يخفى اليوم على احد ان عهد « الغربوية » (Occidento-centrisme) ان جاز هذا التعبير ، قد ولى وانقضى ، وخوفا من ان يكون كل شعب نسخة طبق الاصل لغيره او فرعا ذاويا ثانويا فانه ينبغي له ان يقد ثقافته على قدر قياسه مع التفتح على الاخرين حتى لا يختنق بالانطواء على ذاته وينبغي لكل شعب ان يواصل البحث عن شخصيته ، وان يعمل على البقاء وفيا للارض التي انبتته واذا قدر للشعوب بان لا تأخذ بناصية تاريخها وان لا تنشد كمال ذاتيتها فانها تسهل انتشار الثقافات « الاخطبوطية » او الامبريالية التي توحي لها القوى الاقتصادية او العسكرية دائما بالقيام برسالة تمدينية او «انسانية» جديدة على مستوى العالم .

وفي هذا السياق يجدر ان نؤكد النزعة العدوانية واخطار التسطيح التي تنشرها على رؤوس الاغلبية الساحقة من الشعوب ـ لا الشعوب المتخلفة فحسب

ـ هذه الاجهزة السمعية البصرية ووسائل الاتصال الجماهيرى التى تفرضها التقنيات العصرية والتى « تطرق » الضمائر وتطوقها لصالح قوى تجارية وسلطات مادية لا هم لها الا تجميع الثروات على حساب اكثر الناس ضعفا وسذاجة . ولقد لفتت الجلسة العامة لليونسكو سنة 1972 انتباه المسؤولين الى الاسقاطات الخفية المتعذر ادراكها والمتنزلة من الوسائل التكنولوجية والبرامج المنعوتة بالثقافة والمذاعة « من فوق رؤوس الشعوب » ـ بأتم معانى الكلمة ـ والتى توشك ان تضر بطرافتها وان تستلب شخصية الامم .

ونحن لا ندعى ـ درءا لهذا الخطر ـ انه بوسعنا ان نبسط المظلات الواقية فى كل مكان ، بل انه ينبغى لنا ، اذا ما اتفقنا على تحليل هذه الظاهرة ، ايجاد البيداغوجية القادرة على تكوين شبابنا بطريقة تمكنه من الاحتفاظ بذاتيته والامتزاج بالكثرة مع اجتناب عدوى هذه الاسقاطات «الثقافية» التى تصر على جرنا الى «جناتها» جرا . ان مثل الروح كمثل الجسد ، اذا تحصن قاوم الجراثيم التى تسكنه وقدر على احتوائها اما اذا كان واهيا غافلا «مشوشا» من جراء عوامل اجنبية عنه ، فانه يضمحل ، وفى ذلك انبثاث المرض الثقافى واستشراؤه ثم الموت .

هذا المشكل مطروح على كافة البلدان . ولقد استمعت شخصيا بمناسبة انعقاد الجلسة العامة لليونسكو التى اشرت اليها آنفا ، الى ممثلين لاقطار اوروبية كبرى « نشيطة » ـ بل « غازية » فى علاقاتها الثقافية مع العالم الثالث ـ يعبرون بدورهم عن شديد مخاوفهم ازاء إمكانية « اغتصابهم » فى سلامة ذاتيتهم القومية عن طريق هذه الحملات « الثقافية » التى تعدها الدولتان العظيمتان اللتان تسيطران على التكنولوجيا وتراقبان الفضاء ، طالما ان كلا منا متخلف بالنسبة الى غيره ! ومهما يكن من امر ، فانه يحق للاقطار النامية ان تضاعف من جهودها وتبصرها للمحافظة على ثقافتها وان تفكر بجد فى محتويات الانظمة التربوية المقدمة لشبابها .

وهكذا فاننا جميعا ، سواء انتمينا الى الضفة الشمالية او الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، نجابه معا نفس المشاكل وتتهددنا نفس الظواهر .

فينبغى اذن ان ينهض كل منا بحضارته ويخصب الفوارق القائمة بيننا وفى نفس الوقت يجب ان نتعاون ، اى ان ناخذ ونعطى وان نتكامل وان يثرى بعضنا الاخر ، وان نناضل معا ضد كل شكل من اشكال التلوث الثقافى ، وان نتمسك

بما نشترك فيه ، اى برؤية موحدة للانسان ، ووعى مماثل لمصيره ، وبفلسفة انسية .

والواقع ان التعاون القائم بين تونس وفرنسا يعد صيغة من صيغ التعاون بين الغرب والشرق ومظهرا من مظاهر الحوار بين الشمال والجنوب ، اذ يتعلق الامر بجبهة ثقافية مشتركة للوقوف فى وجه الاخطار التى تتهدد حرية الانسان وكرامته وكمال ذاته فى كل مكان .

وليس ادل على ذلك مما يعانيه تصورنا للتعاون الثقافى السليم ، من مقاومة الماسكين بزمام الامبريالية الثقافية الذين يعملون ما وسعهم العمل ، باسم الشمول او التقدمية او الحداثة ، على بيع بضاعتهم الثقافية التافهة وفرض ايديولوجياتهم على الشعوب ، شعوب العالم الثالث بالخصوص ، وابقائهم بهذه الصورة فى منزلة المستهلك .

• • •

واود من ناحية اخرى ، وفى نفس هذا السياق ، ان اتحدث قليلا عن لغتنا القومية .

ان لغتنا القومية هى العربية هذا امر لا ينازعنا فيه احد ولا يمكن أن نقبل فيه النقاش مع أحد . وينبغى لنا كما اكده منذ لحظات السيد الوزير «ديجو» نفسه ان نعلم ابناءنا بفرنسا لغتهم العربية حتى لا يتعرضوا الى الانتزاع الثقافى والاستلاب . ولكن احرى بنا ان نعلمها لابنائنا بتونس بوصفها اللغة الام ، اى ان نعلم كل الاولاد بالعربية حتى يتمكن الشبان التونسيون من اتقانها ، والاعتزاز بها . فيتيسر بفضلها وعن طريقها ظهور الكوامن الخلاقة فى مجموع المجتمع التونسى ، على غرار كل الشعوب التى تمتلك لغة قومية . وارى شخصيا ـ وارجو ان اكون مخطئا فى هذا التاكيد ـ اننا لم ندرك هذا الهدف . ان الشبان التونسيين اليوم يقرؤون ويكتبون العربية ، لاجدال فى ذلك ، بل ان عددا منهم يقرؤونها ويكتبونها بصورة مرضية ، ولكن كثيرا منهم عاجزون عن الخلق بواسطتها،كما ان عددا من بينهم يترطن فى حياته اليومية «بفرنسية ـ عربية» تنم عن فساد ذوق ، فلنصدع بها جلية اذن : ان اللغة الفرنسية هى اليوم مسيطرة واسعة الحضور رغم انها على هامش الثقافة القومية التى هى اساسا عربية اسلامية ومتوسطية ، وبامكان هذه الظاهرة ان تكون ايجابية طالما لم تخنق أصالتنا ولم تتعرض لغتنا القومية بسببها الى المنافسة والاستصغار .

ولكن اذا تجسم هذا الحضور ـ كما يخشى او ... يؤمل البعض ـ فى نهاية بضع عشريات في انتقال السكان تدريجيا وبدون شعور الى اللغة الفرنسية عن طريق ظاهرة التغطيس (Submersion) كما يسميها الاخصائيون ، التى قد تكون شبيهة بما جرى فى بلاد الغال (La Gaule) منذ ألفى عام ، واذا نزلت العربية الى مستوى لغة فلكلورية قد تجاوزها الزمن، واذا احست الأجيال الصاعدة بان اللغة الفرنسية اصبحت منافسة للغة القومية التى هى وطننا العقلى والوجدانى أو هى كما يقول عنها «هدفير» «مسكن الكيان» والتى بها يتفاهم العرب من المحيط الى الخليج وبأسبابها يتواصلون ، اذ ذاك يظهر شعور بالحرمان والكبت وينطلق من أعماق الجماهير احساس اساسه الدفاع الذاتي ويتراءى فى الافق رد فعل قوامه كره الاجانب وبذلك نكون قد سرنا نحو الهاوية من حيث اردنا المبالغة فى تأكيد « التفتح اللغوى » .

واجتنابا لهذه القطيعة المتمثلة فى الانتكاسات التى يعطينا عنها التاريخ اكثر من مثال سخرت جهودى ـ فى موضع المسؤولية الذى أنا فيه ـ مع عدد كبير من البيداغوجيين والمثقفين قصد تعزيز لغتنا وانجاز التعريب التدريجي للعلوم الانسانية فى مراحل التعليم ـ الابتدائى والثانوى والعالى ـ مع العمل على تحسين مستوى اللغة الفرنسية باعتبارها لغة اجنبية وبوصفها اداة ناجعة فى أيدى الاجيال الصاعدة تساعدهم على معانقة عصرهم .

واود ا ن اطمئن بعض المتخوفين واوضح ان التعريب ليس مرادفا للتقهقر من حيث المحتوى مثلما ان الخصوصية ليست بالضرورة محافظة وتقوقع . ان بعضهم ، عن جهل او عن سوء نية ، لا يحجم عن التعبير عن خشيته من الرجوع الى القرون الوسطى والجمود والتحجر كلما سمع بتعريب الفلسفة او التاريخ وانا لا ارد هنا على المنبتين والمستلبين ثقافيا ، بل اريد ان اهدىء من روع ذوى النية الحسنة الذين يلاقون صعوبات فى تهدئة مخاوفهم من ان يتسم التعليم بطابع « القروسطية » نتيجة للتعريب .

ان اللغة العربية التى يتكلمها اكثر من مائة واربعين مليون عربى ، والتى تنقل تراثا حضاريا عربيا اسلاميا يمتد على مدى 14 قرنا ، والتى اعترفت بها كلغة رسمية وكلغة عمل منظمة الامم المتحدة واهم المنظمات الدولية هى قادرة مثل كل اللغات الحية على التعبير عن كل المفاهيم والدقائق وعلى تبليغ كل المعارف ، اذا ما قدر مستعملوها على اتقانها وارادوا ذلك . انها تنتعش وتثرى وتماشى العصر بفضل ما يبلغه الناطقون بها من مستوى ثقافى وملكات خلاقة وبفضل قدرتهم على جعلها لغتهم الناقلة للعلوم والمعارف .

ذلك انه عندما يدرس استاذ تونسى فى سنة 1977 مادة التاريخ او الفلسفة بالعربية ، فانه لا يعتمد فى تعليمه هذا على الكتب التى اصفرت على مدى العصور ، بل انه يحرص على نقل المعارف وافكار عصره بأكثر ما يمكن من الايجابية ، على غرار زملائه باروبا وبأمريكا أو بآسيا ، الذين يباشرون التعليم بلغاتهم القومية . ولكى تطمئن القلوب فى هذا المجال فان مجرد الاطلاع على البرامج الرسمية الجديدة لوزارة التربية القومية يكون كافيا شافيا ، ثم ان الاساتذة التونسيين الذين يتولون اليوم تدريس الفلسفة او التاريخ ، هم اولائك الذين كانوا يدرسون هاتين المادتين بالفرنسية .

ان اللغة الفرنسية التى يتواصل تدريسها فى المرحلة الثانية من مدارسنا الابتدائية وفى معاهدنا الثانوية ، وبالطبع فى معاهدنا العليا ينبغى ان تمكننا من ان نكون دائما فى حالة تفاعل واتصال مع العالم الخارجى ، فهى اداة مساعدة ووسيلة احتكاك بالواقع المعاصر وبمشاكل عصرنا .

كيف يمكن تحقيق هذه الاهداف فى برامجنا ؟ كيف نكون الشباب بطريقة تمكنه من اتقان العربية وممارسة الخلق فى نطاقها مع التضلع فى اللغة الفرنسية باعتبارها لغة وظيفة ؟ ذلك هو المشكل وذلك هو ايضا التحدى البيداغوجى الذى فرضناه على انفسنا والذى نامل ان نكسبه بمساعدة كافة المدرسين التونسيين وكذلك باعانة اصدقائنا من غير التونسيين . ولئن كان هذا الهدف صعب المنال ، فانه ليس خارجا عن طوقنا .

بيد انه ينبغى ان نكون صرحاء وألا نتجاهل العراقيل ، فهناك اتجاهان يقفان عرضة امام نظرتنا هذه وطريقة عملنا ، ومن الضرورى التعرف اليهما للتخلص من تاثير التفكير التبسيطى الساذج الذى ينبعان منه .

هناك اولا السلفيون أولئك الذين ينظرون الى عالم اليوم من خلال مرآة الماضى المشوهة ويبلغ بهم الامر الى الدعوة الى الانطواء على الذات باسم الرجوع الى المنابع. ومن البديهى ان هؤلاء الناس لا يستطيعون مواجهة الحاضر فضلا عن مواجهة المستقبل . ثم هناك ادعياء التعصر الذين يندهشون اعجابا امام كل ما يأتى من الضفة الشمالية للبحر المتوسط ، فيقتصرون على محاكاة الاجانب وينزعون شخصيتهم عن طيبة خاطر ليظهروا بمظهر المتطورين ، شأنهم شان الاجلاف الذين يسعون الى الظهور بمظهر المتنبلين . وهؤلاء هم الذين يؤكدون بوثوق كبير ان العربية لغة ميتة كاللاطينية وان الفرنسية هى وحدها التى تضمن

المعمرين السابقين والاستعماريين الذين لم يهضموا استقلال تونس والاقطار التى استرجعت سيادتها حديثا ويتكهنون بنهاية الثقافة الفرنسية فى هذه البلدان كلما وضعت سياسة التعريب اى سياسة التأصيل التربوى موضع التنفيذ .

ان هذا يذكرنى بسلوك غلاة الاستعماريين قبل الاستقلال الذين أشرت اليهم فى مستهل حديثى ، وسلوك اصدقائهم « التونسيين » الذين باعوا انفسهم للشيطان وهم يتنافسون فى الانبطاح • لقد كان بورقيبة فى نظرهم عدوا لفرنسا ، اذ هو يكافح من اجل استقلال بلاده ، ذلك الاستقلال الذى كان بالنسبة اليه ، شرطا ضروريا لاقامة روابط صداقة وتعاون دائمين بين البلدين . كان هؤلاء الغلاة يعدون من بين الاصدقاء ، كل التونسيين الذين يحنون ظهورهم امامهم ، عن جبن او انتهازية ، ويتسابقون للحصول من اسيادهم على شهادة رضا بخصوص ولائهم « للوطن الام » . ولقد بين تاريخ تونس المستقلة من هم اصدقاء فرنسا الحقيقيون وأقام الدليل من جديد على أن حب الوطن هو وحده الذى يخول لنا إرساء أسس المحبة الحق التى يمكن ان نكنها لام صديقة اخرى • اما « الحركى » (I) الذين هم فى خدمة المستعمر ، أولئك الذين لا يتعزون عن أفول الازمنة الاستعمارية، فانهم ما زالوا يشكلون عبئا ثقيلا يربك اسيادهم ويحرجهم • واذا كان لمقاومة التعريب فى اقطار المغرب العربى « حركيوها » ـ وهذه ظاهرة يمكن فهمها باعتبار ان كل جسم بشرى او اجتماعى يحمل معه طفيلياته ـ فانه من المؤسف ان نلاحظ ان الذين يحنون الى عهد الحماية مازالوا يخلطون بين التعريب وانقراض الفرنسية ، بين الاصالة والتاخر ، فلا عجب اذن ان يعتبروا هؤلاء الانصار الحقيقيين لتعاون ثقافى تونسى فرنسى سليم ودائم اعداء للثقافة الفرنسية وحتى لفرنسا ذاتها . وسيتكفل الزمن بفتح بصيرة كل الذين لا يرون الا اللحظة التى هم فيها •

ونحن فيما يخصنا ، لا نزال نعتقد ان تلقين كافة المواد بالعربية اثر الانتهاء من عملية التعريب التدريجى المنظم بقدر ما هو واقعى ، لا يتضارب مع دعم اللغة الفرنسية فى مدارسنا كلغة حية •

(I) اسم اطلق على نفر من الجزائريين تحالفوا مع قوات الاحتلال الفرنسية ضد المناضلين الوطنيين وكان مصيرهم بعد استقلال الجزائر النزوح الاجبارى الى فرنسا ••••

نحن نعتقد ولا نزال على اعتقادنا ان اللغة العربية اداة وظيفية لاكتساب المعرفة واعمال العقل والتعبير عن مكنوناته وتبليغ ثمار الفكر العميق وهي الى ذلك اداة لنقل العواطف والمشاعر والاحلام والحماس البشرى . واذا كانت اللغة العربية طوال عصور افول العالم العربي وعهود الاستعمار الذى جمد الثقافات القومية قد نقلت الاتباعية والجمود الفكرى ، واذا كانت في زمن ما قد اكتظت فعلا بالمحسنات البديعية والتحذلق والتفيهق شأنها شأن كثير من اللغات الاخرى ، فانه من قبيل الخطا والاجحاف ان ننسى انها نقلت ايضا طوال قرون عديدة ، العقلانية وانها كانت لغة علمية رصينة دقيقة ومعبرة • لذا فان الامر يتوقف علينا ، نحن الاساتذة والمربين والعلماء والمبدعين والسياسيين والاقتصاديين والموظفين والمتصرفين ••• لنعطيها ، بل لنعيد لها وظيفتها البيداغوجية ، ونرتفع بها الى مستوى الاداة العصرية الوظيفية القادرة على العمل والخلق ولنشحنها ايضا بالمثل العليا ، اى ان نوكل اليها مهمة الافصاح عن مشروع مجتمع جديد •

اننا نريد ان تتفهموا موقفنا : ان اللغة العربية ليست فى نظرنا مجرد صدى لاحساسنا بتاريخنا ولا مجرد تعبير خاص عن كينونتنا الجماعية ، انها ايضا وبدون شك اداة عمل ناجعة او أننا ألينا على انفسنا ان نظفر بذواتنا من خلالها فى الزمان والمكان وان نسيطر عليها وان نطهرها من أنساقها السطحية المتكلفة وان نعيد اليها مهمتها العلمية المضادة للجهالة ، حتى نكون على حقيقتنا وحتى نحافظ ونصون ذاتيتنا الثقافية •

ولكننا لا نفتأ نفكر ايضا ، وفى الاعادة افادة ، ان اللغة الفرنسية مساعد ضرورى ، وانه لا غنى لنا عنها فى الوصول مباشرة الى البيبليوغرافات وفى تسهيل الاتصال بالخارج وفى تنويع مصادر الاعلام • وفى هذا السياق فان اللغة الانكليزية ايضا ينبغى ان تدرس وان تقرأ من قبل تلاميذنا واطاراتنا .

كل هذا يجب ان يحثنا على تحسس الصداقة الفرنسية على صعيد الثقافة كصداقة بين ثقافتين متماثلتين فى القيمة متكاملتين تحققان فيما بينهما نوعا من التراشح المخصب وليس ثمة خارج هذا الاختيار الا الماضى المخنق المعقم او ابتلاع الاقوى للاضعف،مع ما يتضمنه ذلك منعواقب سيئة تنذر بانتفاضات وارتجاعات مفاجئة . وعبثا يحاول السحرة الماكرون ـ محليين كانوا أم مستوردين ـ الاستيلاء على لغتنا القومية وعلى ذاتيتنا الثقافية فالواقع يسفه مسعاهم ، وان حكم التاريخ سيكون صارما •

ان كل تعايش لا يتم على اساس العدالة ، والوفاق الحر واحترام ذاتية الآخر انما يحمل فى باطنه بذور انحلاله وسرطان انقراضه وكذلك الشان بالنسبة لكل تعاون ثقافى لا يقرأ حسابا لتاريخ الشعوب الـذين تشبعـوا بالنـزعة الانسانية واعتقد ان الفلاسفـة الفرنسييـن والبيداغوجيين الحقيقيين وكذلك رجال الثقافة الاحرار بفرنسا واوروبا يبذلون الجهد الكفيل باعانتنا على ان نكون على حقيقتنا وعلى ان نطالب بحقنا فى الاحتفاظ بما يفرق بيننا وبيـن الاخرين وفى انماء خصوصيتنا اذ بدون ذلك نكون نسخا مطابقـة للاصـل ، مقلدين للتافه من الامور وعلى وشك ان نموت اختناقا من جراء هذا «الاحتضان» الثقافى مهما كان «مثاليا» «واخويا» • وبدون ذلك ايضا يتعذر علينا ان نكون اطرافا اكفاء اذ لا يكون عندنا ما نقول وما نعطى وما نبلغ • ان حجة «النجاعة» مثل حجة «السلطة» ، لم تكن ابدا مشروعة ، خاصة عندما نتحدث عن الثقافة وغاية ما فى الامر انها اضاعت الامل خلال القرون ، واطلقت العنان للمهانة •

• • •

ان الدفاع عن ثقافتنا القومية بابعادها العربية الاسلامية ، والحوار الصادق البناء الذى ننادى به مع الثقافة الفرنسية وبوجه اعم مع الثقافة الغربية ـ وكذلك مع الثقافات الاخرى ـ علاوة على مظهره المساعد المثرى بالنسبة الينا ، يمكن ان يفيد الغرب ايضا رغما عن الفوارق الاقتصادية والتكنولوجية .

انى لشديد الانتباه لما ينشر باوروبا وخاصة للدراسات الخاصة بمشاكل الحضارة • ولقد قرات عددا من المؤلفات والفصول للسيدين « موريس دريون » و « روبير مالى » اللذين أستشهد بهما لحضورهما معنا . ولاحظت ما يعبران عنه فى مؤلفاتهما من حيرة بل ومن شعور بالضيق . ولقـد خص « ريمون ارون » هذه الظاهرة بصفحات رائعة • كما ان « مالرو » لم ينفك يحلل حتى الممات ما اسماه بازمة الحضارة الغربية ، وان من بين الاستفهامات الممضة التى انطوى عليها كتابه الاخير (الانسان العابر والادب) ما يتعلق بمعرفة هل ان الغرب المصنع ما زال قادرا على افراز حكمة جديدة •

وبعد مرور خمسة وعشرين قرنا على موت افلاطون يتساءل اليوم عدد كبير من كبار المفكرين بلهجة واخزة الى ابعد حدود الوخز ، عن السعادة ومعـنـى الجهد • انهم يتساءلون عما اذا كان النمو الاقتصادى يضمن بمفرده نـشـر السعادة والسلام بين البشر •

وبدون ان ندعى كما يفعل عدد من الغربيين انفسهم ان العالم الغربى مقلوب راسا على عقب ، فضلا عن كوننا لا نستطيع ارجاعه الى نصابه ، فانه ليس من قبيل الادعاء ان نؤكد ان الشرق وان العالم العربى الاسلامى وان تونس بوسعها ان تساهم رفقة الشعوب الغربية فى تحريك العزائم ، وتاتى بما يشهد بطراوتها وان توجد لغة جديدة بامكانها ان تفضى الى حوار حقيقى بين الثقافات وتيسر تآلف الافكار ٠

اذا كنا جميعا بفضل قيمنا الروحية المشتركة واحساسنا الموحد بمعنى المغامرة الانسانية على اقتناع بان حضارتنا ، خلافا لتأكيدات « لانك » وغيره من المفكرين والاطباء النفسانيين العديدين ، ليست ضربا من ضروب الاسر ، ففى اى اطار وباية لغة وكيف نرد الفعل ونناضل من اجل ان لا يكون الجسم سجنا والعمل عبودية والمجتمع اداة استلاب ؟ كيف نحرر الانسان ونتيح لكل فرد ان « يرتاح الى نفسه » ، ان يعيش حياته ، ان يتفتح ، ان يتجاوب مع الاخرين فى كوكبنا الذى يعتبره بعضهم « صخرة قردة » عظيمة ؟ كيف نخلص المواطنين من « مسالك الخردة المصهورة » التى اصبحت عليها شوارع المدن الكبيرة ؟ وهل من امل فى خلاص العمال مما قدر لهم من مد وجزر بين مكان الشغل وحافلات النقل والنوم ؟ اية ثورة ثقافية ينبغى القيام بها لمكافحة الالية التى فرضها التصنيع حتى لا يؤول العمل الى « استفراغ الدماغ » ، والقضاء على الانسان ؟ كيف العمل لمكافحة نزعة القطيع فى الاقتداء بالموضات والنزول بالثقافة الى مستوى الاشياء ، ومكافحة العنف والمخدرات والانتحار وهى ظواهر تشهد اليوم انتشارا مقلقا فى الاقطار الثرية على الاخص ؟ كيف نتجنب خطر تقليص الفكر ، وخطر حضارة مضادة يكون فيها شطط العقلانية القاسية والايجابية المؤدية الى التشاكل ـ غامرا اكثر فاكثر لنشيد الرقة والفن والايمان والحرية والحساسية والخيال والحب القادرة كلها على خلق المستقبل واختراعه واعادة استنباط الحياة ؟ ٠٠٠

ان الامر يتعلق بمشاكل حقيقية ارتبطت بطبيعة الانسان او فرضها ضرب من النمو ٠ ولسنا فى تونس وفى العالم العربى عنها بمنجى ولكننا قادرون اذا وحدنا الصفوف على ان نتصالح مع انفسنا وان نواصل التقدم بالتنقيص من مصادر الضرر وبالعمل من اجل اقرار السلام والسعادة فى العالم ٠

بيد انه ، ولا غنى لنا عن التكرار ، لا يمكن القيام باى عمل جدى اذا ما استمرت ، ولو بشكل محتشم متستر ، الهيمنة الثقافية او حتى نية الهيمنة الثقافية ٠ ولا نجاة لنا بدون اعتراف متبادل بفوارقنا الثقافية ٠

وخوفا من الظهور بمظهر من يمنع الصداقة من ان تتمتن اذ لا صداقة صحيحة دائمة الا برسوخها وانطلاقها من ارادة الجماهير الشعبية ، فانى لا اتردد مؤكدا بان المصاعب ما تزال ماثلة مع الاسف ومعرقلة لقيام الحوار الغربي الشرقي ٠ وان جهلا بين الغرب والشرق ما يزال موجودا لاسباب تاريخية يدركها الجامعيون وكبار المثقفين حق الادراك ، فهناك التباسات خطيرة لم تتم ازالتها بعد ، بحيث يبدو الحوار الذى يتشدق به بعضهم سطحيا . ان « البترودولارات » تدفع كثيرا نحو الحوار فى بعض العواصم ٠ ولكن الوجدان منعدم فى كل ذلك والنية ليست لوجه الله دائما ٠

ان العديد من «المهذبين» الذين يتنافسون فى الافصاح عن تفهم ـ جاء متأخرا !.. ـ للعروبة والاسلام، قصد استرجاع بكارتهم التاريخية يثيرون الحذر قبل اى شيء آخر. وحتى ذوو العزائم الطيبة ، اعنى المسؤولين السياسيين او الثقافيين الصادقين يقف امامهم هذا «الحجاب» التاريخي وهذا التكييف الثقافي اللذان صنعتهما القرون العديدة وراحا يفسدان تصور كل طرف للطرف الاخر . ان الاحكام المسبقة تحول دون الحكم الصحيح ٠

فلقد مضى عدد من المستشرقين والمؤرخين والموسوعيين منذ قرون يصورون العرب والمسلمين فى صورة مشوهة ويعطون عنهم فكرة مبتورة مجحفة ، فاثروا بذلك فى كثير من الاجيال فى الغرب ، وجعلوا هذا الاحتقار مشروعا واباحوا الاستعمار وحروب « التهدئة » وبرروا كل الاعمال التى اضطلع بها المبشرون والمأجورون والمعمرون من اجل « اسعاد » الاهالى رغما عنهم . ذلك ان صلف اليقين بتفوق الرجل الابيض مريح للضمير .

وأسوق لكم على سبيل المثال بعض ما كانت تقوله الموسوعات الالمانية عن بلادى ٠

فقد القى مؤخرا بتونس السيد « رينر ريمنشنيدر » ، وهو مؤرخ المانى ، محاضرة رائعة من حيث الصراحة والشجاعة بعنوان « شؤون وملذات ٠ تونس فى الموسوعات الالمانية الصادرة من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين » ٠

انكم تعلمون جيد العلم ، وانتم من انتم علما ومعرفة ، ان الموسوعات ليست جرائد تعتمد الاثارة او مجرد خزانات للمعارف ، بل هى على غرار موسوعة « دالمبير » و « ديدرو » وسيلة لتكوين الاراء يستقى منها الطلبة والباحثون

المعارف بكامل الثقة اذ تعتبر بمثابة كتب علمية ومراجع ثابتة • وفى هـذه الموسوعات الالمانية نقرأ فصولا عن العرب والتونسيين والبربر تتناول بالحديث مدينة تونس دون الاشارة الى البلاد التونسية اذ لا وجود عند هؤلاء لامة ولا لسكان متجانسين ونجد فيها تمييزا بين البربر والعرب والاتراك واليهود الذين يمثلون تكتلات وفسيفساء من الاجناس ، وحذار ان يتبادر للاذهان انه يوجد شعب واحد منصهر العناصر !•••

وفيما يلي امثلة من الاحكام على مختلف العناصر المتساكنة بتـونس فـى القرن الثامن عشر مأخوذة من موسوعة « بروكهوس » الصادرة سنة 1818 (الجزء I ــ ص 8 ــ 59) فصل «البربر» تقول : البربر متوحشون ، اشداء ، ذوو هيبة ورشاقة ، يتمتعون بقوة بدنية كبرى ويتحملون الجوع وكل اشكال الحرمان بسهولة . ولكنهم يكرمون الضيف ويتجول المسافر فى امان طالما كان تحت حمايتهم ، وهم لا يطيعون ملوكهم الا نظريا لفرط تمسكهم بحريتهم ويحاربون الجنود المكلفين بجمع الضرائب .

أما العرب فهم « الشعب الاكثر عددا من بين شعوب افريقيا الشماليـة ، وينقسمون هم ايضا الى صنفين : المغاربة سكان المدن ، والبدو وهم من الرحل الساكنين تحت الخيام • وهؤلاء هم احفاد المسلمين ، فارعو القامة ، اشداء ، ذوو قسمات وسيمة حية وعيون واسعة سود ، وابصار حادة ، وانوف معقوفة شيئا ما وأسنان منتظمة بيض كالعاج ولحى كثة وشعور سوداء » وتـلاحـظ الموسوعة انهم يبغضون النصارى ولكنهم اقل مكرا وغشا مـن البربـر أمـا « المغاربة » فتصفهم بانهم « حساد لا يؤمن لهم جانب قليلو المعاشرة ، منافقون قساة ، لا يعرفون حبا ولا صداقة ، بالاضافة الى انهم كسالى عاطلون الى درجة انهم يجلسون طوال ايام ، الى الحائط متربعين وهم ينظرون الى المارة فى صمت كامل » • ويضيف فصل الموسوعة « لم يعد من اثر لتلك الثقافة الفكرية التى سموا اليها فى ظل حكم افضل فى اسبانيا خلال القرون الوسطـى . وهـم يتطيرون الى اقصى حد ، وان مجرد امتلاك كتاب يعد فى نظرهم جريمة • ان « المغربى » لا يضحك مطلقا فهو جدى ومكبوت على ما يبدو ، يمسح على لحيته ولا تبدر عنه علامة فضول او حياة ، واكبر متعة لديه هى الذهاب الى الحمام وترشف القهوة والاستماع الى الحكايات » •

ثم نأتى الى الصنفين الاخرين ، اليهود والاتراك « الذين هم حسب موسوعة « بروكهوس » لصوص من اسوء الانواع وخلاصة الاجرام الدولى قد حولوا البلد

الى مسرح للجريمة والبؤس وجعلوا منه وكرا حقيقيا للقتلة • وقد تسببوا فى ما اصاب الحضارة من أفول عام اذ نظموا اللصوصية والاتجار بالبشر وقد باؤوا بكراهية السكان الاصليين الذين يعانون من جبروتهم •

تلك اذن بضعة أحكام استقيناها من هذه الموسوعات التى تنعت بالعلمية والتى اثرت فى كثير من اجيال المدرسين والمثقفين الاوروبيين • وبما انه ينبغي ان نشرب الكاس حتى الثمالة ، لنذكر ايضا ان موسوعة «زدلر» (ج 45 — سنة 1745 فصل : تونس) قد اصدرت بخصوص المراة التونسية احكاما لا يقبلها العقل ولا يمكن حملها حتى على سبيل الفكاهة • تظهر موسوعة «زدلر» اذن مدينة تونس «كبؤرة للشهوات وتصف عادات النساء الموسرات عند استحمامهن فى البحر وكذلك الشوارع التى تعبق فيها العطور المنعشة عندما يعرض اصحاب الحوانيت منتوجاتهم فى المساء • يضاف الى ذلك اريج اكليل الجبل والاصماغ ونباتات عطرة اخرى تحرق فى كل المواقد فتطهر كالبخور ، الهواء العفن المغثى المنبعث من القنال الذى يخترق مدينة تونس» . وتمتدح موسوعة «زدلر» كثيرا خصائص «اللازيس» (Lasis) وهو منشط جنسى يثير شهوة الرجال ، وتؤكد انه «من اجل ذلك تطعمهم نساء تونس اياه فى الكثير من الاحيان» ثم تشرح مفعول هذا المنشط كما يلي : «انه طعام يعد فى تونس اسمه «لازيس» يمكن ان نسميه ايضا «لاشيش» (حشيش ؟) عن الكلمة الالمانية (Lachen) بمعنى ضحك اذ ان الذى يتناوله ياخذ فى الضحك بصورة غير عادية وينهمك فى المزاح ، ويثير ذلك فيه شهية للاكل بحيث انه ياكل اكثر مما ياكله ثلاثة اشخاص مجتمعين وفوق ذلك فان «الحشيش» يحرك الجنس لذلك تقدمه النساء للرجال» •

ولكن موسوعة «زدلر» تنبه قراءها : «المراة فى تونس مصابة الى حد كبير بالامراض التناسلية ، ويعلق الاستاذ «رينر ريمنشنيدر» على ذلك بقوله : «لا ينبغي استنقاص اهمية مفعول هذا الخبر على القارىء فى عصر لم تظهر فيه البنيسيلين بعد ، وتحتل فيه علامة الافة ومداها وسلسلة الفصول عن مختلف الامراض التناسلية واعراضها والاجراءات الوقائية ووسائل العلاج وطرقه . اكثر من 100 صفحة فى موسوعة «زدلر» (ج 46 — 1745) •

تلك أمثلة بسيطة وانها لكثيرة بلا ريب فى عديد من البلدان الاخرى وهى تشرح انماطا من السلوك لم تزل قائمة الى اليوم ، اذ يفتتن الكثير بما هو غريب عنه وبالرشاقة الفلكلورية لدى الاهالى ، كما يلحون فى ابراز طيبتهم

وتلقائيتهم وحتى كرمهم ، ثم يمرون الى الامور الجدية اذ انهم راسخــون فــى عاداتهم الفكرية وفى شعورهم المريح بتفوقهم وبصفاء الضمير ٠

استخلص شخصيا من هذا ما يلى : ان مهمتنا التربوية وان نضالنا من اجل ثقافة انسانية الاتجاه وان عملنا من اجل اقرار الصداقة والسلام بين البشر لا تبلغ الهدف ما لم نتفق جميعا فى تحليل الاحداث والاحكام المسبقة والاوليات التى تميز العلاقات الحالية بين الشرق والغرب وما لم تكن لنا العزيمة الراسخة لتغيير الوضع باجتثاث اسبابه العميقة ٠ ومن جملة الاعمال الواجب القيام بها اضع فى المقام الاول مراجعة برامج التعليم ليس فى العالم الثالث فقط بـل وبالخصوص فى الاقطار الغربية ، وخاصة برامج التاريخ الذى يتعين اعـادة كتابته وينبغى ايضا مراجعة الموسوعات وازالة ما فيها من طعوم العنصـريــة والجهل وهذا عمل عظيم يتطلب طول النفس من اجل ارساء صداقة دائمة بين البشر على قواعد قوية ٠

وهناك ايضا خطر اود شخصيا الاشارة اليه وهو يتراءى لى من خلال عدد من الفصول يكتبها مثقفون اكفاء يعترفون اليوم بضرورة فتح حوار بين الشمال والجنوب ويؤمنون فى صدق بتكامل الثقافات ولكن خضوعهم لضـرب مـن التاريخ وتكيفهم به جعلاهم يتصورون انه لا بد لهم ان ينسبوا الى كل حضارة سمة واختصاصا مميزا. وهكذا يميز « هنرى دى لا باستيد » اربع حضارات عالمية كبرى ، واشد من ذلك سوءا انه يعين لكل منها قيمة خاصة : الفكـــر لاوروبا ، والكلمة للعالم العربى ، والرمز للصين واليابان والايقاع لافريقـيـا (انظر جريدة « لوموند » 7 نوفمبر 1975 ٠ ألا ان كـل هـذا مغـاير للحقيقـة وخطيــر .

فالناس متساوون ولهم نفس القدرة على اكتساب نفس القيم وعلى الانصهار فيها ٠

ان الشعر والموسيقى والفلسفة والعلم ليست وقفا عـلى شعب دون آخـر والتاريخ هو الذى يكيف الناس ويشرح التاخر الفنى او العلمى لـدى هـذا الشعب او ذاك ٠ فالتاكيد بان الفكر من خصائص الاوروبيين وان الافـارقـة ليسوا موهوبين الا فى « التام تام » (tam tam) مجحف صادم ٠ وهذا الاوروبـى « [illegible] » الخبير فى الايقاع والعارف ... للحكاية ، قد اتى بتكذيب دامغ لهذه التاكيدات التى لا تستند الى اصل ٠

يقول «بيجار» ليس الطفل الغربي باقل استعدادا للرقص من طفل افريقي او هندي • ليس ثمة مواهب عرقية • يقال مثلا : « ان الايقاع يجري في دم الزنوج » • انها للحماقة الكبرى ، فالايقاع ثقافة تكتسب ، ولقد قمت بتجربة في هذا المجال خلال تربص مع جماعة من الهواة من بين الذكور والاناث من مختلف الحرف ولم يمارسوا الرقص بتاتا • وكان من بينهم زنجي من الكنغو ولكنه ولد في بلجيكا وتلقى تربيته كبلجيكي متوسط . ولقد ابدى هذا الزنجي خلوا من الايقاع لا يصدق . اذ كان اقل المشاركين استعدادا للرقص مما اثار استغراب الجميع : ماذا جرى ؟ هل هو مصاب بعاهة ؟ لم لا يرقص كبقية الزنوج ؟

وانها لفكرة عنصرية تلك التي تذهب الى الاعتقاد والقول بان الزنوج يمتازون بكذا والبيض بكذا ••• هذا غير صحيح • وانا مقتنع واعلم جيد العلم بان الاجناس كلها متساوية وليس هناك الا فوارق ثقافية • فالزنجي الذي يعيش في وسط زنجي يسمع فور ميلاده « التام تام » وحين يبلغ الرابعة او الخامسة من العمر يجري الايقاع في عروقه أما اذا سمع موسيقى إذاعة بلجيكا فانه يشبه عندما يكون في الخامسة اى طفل بلجيكي . وبنفس الطريقة اذا تربى طفل ابيض في اطار ايقاعي فان الايقاع يصبح جزءا من كيانه » .

ان الاستعمار والعنصرية والامبريالية الايديولوجية ، بالخصوص ، ليست غريبة عن استلاب الشعوب التي تنعت بالمتخلفة وعن تجمد مثقفيها . لكن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ وهم الذين يحررون في اخر الامر انفسهم ويحررون طاقات الخلق والابداع فيهم •

تلك هي جملة من الخواطر اوحى الى بها موضوع هذا الملتقى .

وآمل ان اكون قد اسهمت في شق الطريق نحو تعاون سليم بين بلدينا ونحو فتح حوار حقيقي بين الشرق والغرب يقع تصوره في اطار مصيرية التاريخ ، بعيدا عن كل الاعراض او الاعتبارات المصلحية العاجلة ، اذ ينبغي ان تكون لنا رؤية مستقبلية وفكرة واضحة عن العلاقات التي ينبغي ان تسير العالم وان لا نتردد في التشهير بكل الخلافات المبنية على سوء التفاهم وبذور الحقد والبغضاء •

ان رائدنا في كل ما نقوم به من عمل يجب ان يقوم على الحفاظ على كرامة كل منا والحرص على تساوينا في الاسهام بقسط متعادل في تراث الانسانية المشترك •

محمد مزالي

في خدمة اللغة العربية أدبا وفكرا

لاحظنا طيلة الخمس والعشرين سنة من حياة مجلة الفكر دراسات ومقالات عديدة تتعلق باللغة العربية والادب والفكر العربيين فعمدنا الى اختيار أهم العلامات في هذا الموضوع وهي المتعلقة بالنهضة باللغة العربية وتجديدها مثل الخوض في مسالة الفصحى والعامية (الطاهر الخميري) ونظرية التطعيم الايقاعي المرتكزة على تطعيم الفصحى بايقاعات اللهجة العامية لا الالفاظ (البشير بن سلامة) .

وفي ميدان الادب والفكر اقتصرنا على اهم النظريات كالاعتماد على الادب الشعبي (الطاهر قيقه) وتشجيع أدب الشباب (محمد مزالي) وأوردنا نصا عن الادب مأساة (محمود المسعدي) والادب ملحمة (محمد مزالي) والادب الطلائعي (جماعة من الطلبة) والادب التجريبي (عز الدين المدني) .

وأوردنا كذلك لائحة كان ملتقى الادب التونسي اصدرها ، وقد بحث فيها الوسائل الكفيلة بتدعيم الادب التونسي وختما هذا الجزء من المجلة بنص يتعلق بالطباعة العربية وضرورة شكل كل النصوص المطبوعة لاشاعة اللغة العربية (البشير بن سلامة) .

والملاحظ أننا اقتصرنا في هذا الباب على هذه الدراسات والمقالات رغم وجود العدد الكثير ممن كتبوا في هذا الفن مثل وحيد الغضراوي ، علي دب ، محمد الهادي الطرابلسي ، احمد الطويلي ، المنجي الكعبي ، البشير المجدوب ، جعفر ماجد ، الحبيب المغ ، محمد مزالي ، محمد مصمولي ، التهامي نقره ، الهادي حمودة الغزي ، علي الشنوفي ، أحمد القديدي ، محمد فنطر ، حسن الصادق الاسود ، محمد الصالح الجابري ، محمد فاضل الجمالي ، المنجي الشملي ، عبد السلام المسدي ، المرحوم محمد الهادي العامري ، مصطفى الفارسي ، عبد العزيز الهاني ، أحمد عبد السلام ، المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ، محمد الحبيب بلخوجه ، الحبيب الجنحاني ، الشاذلي بويحيى ، الطاهر اللبيب ، محمد رشاد الحمزاوي ، محمد الطالبي ، أحمد خالد ، وغيرهم كثير ...

في التقريب بين لغة الحديث ولغة الكتابة

بقلم: د. الطاهر الخميري

هي «لغة الحديث ولغة الكتابة» (*) لا «العامية والفصحى» لان التعبير الثاني فيه حكم وتقويم يعقدان ابسيط ويفتحان الباب للجدال . وقد لخص المسالة احمد امين كما ياتي :

« ولعل من اهم المشاكل التي تواجه العالم العربى الان استخدامه لغتين : عامية وفصيحة ، والفرق بينهما كبير يستعمل احداهما فى البيت وفى الشارع وفى المجالس ويستعمل الاخرى فى الكتابة والقراءة ، ولم تنجع اية محاولة فى التقريب بينهما ، وهذا اضعف من اللغة الفصحى لانها لم تكتسب الحيوية التى تاتى من طريق الاستعمال اليومى ، واضعف اللغة العلمية لانها لم تستفد مما ينتجه الادباء والشعراء . ولا تزال المشكلة عويصة تتطلب الحل من المصلحين » (I) .

موضوع هذا البحث هو بيان بعض الاسباب التى تؤخر التقريب بين لغة الحديث ولغة الكتابة فى البلاد المتكلمة بالعربية .

I) فى سنه I95I نشر الشاعر اللبنانى ميشال طراد مجموعة قصائد بلغة الحديث اللبنانية ، وكتب المقدمة لتلك المجموعة الاديب اللبنانى سعيد عقل كتبها كذلك بلغة الحديث اللبنانية . واليك نماذج من تلك المقدمة :

« كان كل شىء بالطبيعا عميوعد بنجمى جد يدى .. الصخر ما عاد يقبل يطيلع بس سبيل .. كانت بلشت تنسهر وتوجع ، تحكى للحلوى . توشوشا..

(*) الفكر س 3 ع 7 ص 24 و 25 السنة I958

(I) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لاحمد أمين ص 346 القاهرة I949 .

التصوير كان من خمسين سنى بلش لعبتو . داوود القوم مش شى عادى . والفلسفى ما كان بقا الا تطل . ومتل اليوم نحنا بلهفى وعينين مجروحا ناظرين تبليشة العلم .. قصائد ميشال طراد مش تانيى بها الشعر . نفلكشتها بصبيبعك فيك تقرا قصة الجمال بالشرق .. اللى ما عصرتو الخصا عصر الى ما عقصتوا ها الحيى الدهما المشرقطا اللزيزى بيكون متل كانو ما اجاع الوجود » .

قرات هذه المقدمة مرتين واعترف بانى لم افهم منها الا البعض من الجمل المتفرقة . واعترف مارون عبود ، وهو اديب لبنانى ، بانه قرا تلك المقدمة اربع مرات قبل ان «يحكمها» (2) هذه حجة قوية على ان لغة الحديث لا يمكن ان تحل محل لغة الكتابة ، وان التقريب بين اللغتين هو الحل الطبيعى .

2) اثبت الاستاذ عبد الله كنون (3) ان لغة الحديث في المغرب الاقصى تحتوى على عدد كبير من الكلمات التى تستعمل فى الحديث ولا تستعمل فى الكتابة وهى مع ذلك «فصيحة» ومثل ذلك يمكن ان يقال بالنسبة الى بقية اللهجات العربية . فاجتناب الكتاب لاستعمال هذه « العامية الفصيحة » من الاسباب التى تؤخر التقريب بين لغة الحديث ولغة الكتابة .

3) فى القرآن سبع لغات متفرقة هى الحبشية والنبطية والسريانة والفارسية والطحاوية والرومية والعربية .. فان قيل : كيف يجوز ان يكون فى القرآن غير لغة العرب ؟ وقد قال الله تعالى «قرآنا عربيا » وقال « بلسان عربى مبين » قلنا : ان الكلمة وان كان اصلها من لغة اخرى ، فانها اذا عرفت فى العربية ، واستعمالها اهلها ، فقد صارت عربية كسائر ما تتخاطب به عليه العرب من كلامها ، لذلك جاز ان يخاطب الله بها العرب . (4) »

هذا موقف بعض القدماء من العرب والدخيل وهو موقف عملى صريح. اما نحن فاننا نتسامح كل التسامح فى استعمال الكلمات الاجنبية فى الحديث ، ونتشدد

---

(1) «جلنار» لميشال طراد . بيروت 1951
(2) «على الطاهر» لمارون عبود ص 52 — بيروت 1957
(3) «العاشيب» لعبد الله كنون ص 119 — 135 — المطبعة المهدية — تطوان
(4) مقدمتان فى علوم القرآن : لابن عطية ص 214 ص — القاهرة 1954

كل التشدد في استعمالها في الكتابة فنباعد بذلك بين اللغتين . نقول راديو وتلفون ودكتلو ، ونكتب مذياع وهاتف وراقنة .

4) عرف شكيب ارسلان الشعر فقال « الشعر قول ثقيل وعبء عقلي باهظ لا يستقل به سوى الحناذيذ القرح والمغاوير السبق ، ولا يجيد الا الناخعـون الكمل اولو القوة الباهرة والمنة الوثيقة » واعجب مصطفى لطفي المنفلوطي بهذا التعريف فادخله في « مختاراته » واقبل قراء العربية على تلك المختارات فبلغت الطبعة الرابعة الحناذيذ ؟ القرح ؟ الناخعون ؟

يظهر ان الكتاب والقراء يشتركون في هذا الميل الى غير المالوف من الالفاظ والتباهي بمعرفة الغريب منها ، والا كيف يعلل انتشار مختارات المنفلوطـي هذا الانتشار وبلوغه الطبعة الرابعة وهو ليس من الكتب المدرسية ؟

لا اعرف شيئا يؤخر التقريب بين لغة الحديث ولغة الكتابة مثل هذا الميل الى غير المالوف والتباهي بمعرفة الغريب والنادر .

الطاهر الحميري

فظاهرة تنكر البعض لاصالتنا (*) واحتقاره لمقومات لغتنا وحضارتنا الذاتية ما هي الا نتيجة لجهل هؤلاء بأنفسهم حتى أنك ترى البعض حيـن يحـدثك أو يحاضرك لا يحس بأن لحديثه أو محاضرته قيمة ما لم يقحم في كلامه لفظة أو مثلا أجنبياً حتى ولو كانت تلك اللفظة أو ذلك المثل له ما يؤديه في لغته وقـد لا يكون هذا الاحساس من طرف المتحدث أو المحاضر الا لانه يعلم أن مستمعيه أنفسهم تنقص في نظرهم قيمة ما يقدمه لهم اذا لم يكن مدعما ـ حسب رأيه ـ بتلك الاقحامات .

والادهى من ذلك ان تكون بعض الافكار او الاقوال التي يستدل بها محدثك وقد نسبها لاحد الاجانب بينما هي لاحد أعلامنا العرب كابن خلدون مثلا .

وانه لفظيع ان ننسب ما هو لنا لغيرنا لاننا نجهل أنه لانفسنا ، ومـن هنا كانت الشعوب المتخلفة شعوبا تجهل نفسها ، ويعمـل الآخـرون على أن تظل هكذا تجهل نفسهـا ومقدوراتها ومقوماتها بشتى طرق الطمس ، والتحقير ، والتشكيك ، والتحريف ، ليظلوا هم سادة الميدان بضع سنيـن .. ويـوم أن نؤمن بأننا من سينهي السنين البضع ، يكون النصر لنا فننهيها .

(*) « الفكر » س 23 ع 2 ص 215 سنة 1978

نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى

بقلم : البشير بن سلامه

لم يزل علماء اللغة العربية ينكبون على قضايا الفصحى* بحثا وتنقيبا ودراسة وتنظيرا وتطبيقا ٠ وان المؤلفات المتداولة بين الناس في هذا الباب والمعروفة لدى اهل الاختصاص تعد بالمئات والمئات ، لان الاهتمام باللغة هو في الواقع اهتمام بحياة الانسان وما من أمة أهملت لغتها ولم تنمها الا وعرضت نفسها للذوبان في غيرها ، وسارت حثيثة الى الانتحار .

لهذا فان كل الامم الحية اهتمت وتهتم بطرق تنمية لغتها حتى تبقى دائما مستجيبة لمتطلبات الحياة فلا تتأخر عن ركب الامم الاخرى ولا تبقى مستهلكة ، بل خلاقة علما بأنه لا يمكن الخلق مهما كان علما او تقنية او أدبا الا في اللغة الام : هي سنة من سنن الكون لا « حيلة » في تبديلها ولا مناص من الخضوع اليها ٠

وان اهل العربية تسابقوا منذ القديم في بحث طرق نمو اللغة ودراستها وما زالوا الى الان ومعهم المستشرقون يستقصون اسرار العربية ويضبطون القوانين التي سمحت وتسمح بتنميتها وجعلها تواكب اللغات الحية الاخرى . واهتموا خاصة بالالفاظ وظواهر تغيرها وقالوا بالقياس والاشتقاق والقلب والابدال والنحت والارتجال والاقتراض وتوسعوا في هذه الظواهر بصورة مدهشة ، ولكنهم لم يولوا نفس العناية بالجملة وخاصة بنواميس تغيرها لا من حيث التراكيب بل من حيث موسيقاها ونبراتها وايقاعاتها وبكلمة اوضح بهذا الذي يجعل الجملة متعانقة مع الحياة الحية ، معبرة عن حركية الواقع وتموجاته منطلقة الى القفز في مجاهل المستقبل لا تشدها روابط الماضي ، الا بالقدر الذي يحفظها من السقوط ويقيها من الجمود .

نعم اهتم الباحثون والدارسون بموسيقى الشعر واوزانه ولكنهم لم يفيضوا في سر حيويته وحركيته وهو الايقاع اللهم الا في هذه السنوات الاخيرة ولست

بحاجة الى اعادة ما كتبته منذ سنة 1969 فى هذا الباب ودونته فى كتاب بعنوان (اللغة العربية ومشاكل الكتابة) (1) خاصة اننى انوى فى هذا البحث التقدم اشواطا فى بعض الاراء التى صدعت بها فى هذا الكتاب وهى ما زالت تحتاج الى المواصلة فى مجال التجربة والتجريب . وان الذى يثلج الصدر هو ان عدة دراسات اتجهت الاتجاه الصحيح فى دراسة الايقاع وخرجت عن المسارب التى تردى فيها كثير من العلماء احقابا واحقابا ولم يتمكنوا من الخروج منهاالىمسارب اخرى تؤدى الى الغاية المنشودة فى العثور عن حقيقة اسرار حيوية العربية الفصحى ، ويكفينى راحة للضمير ان كنت الدافع الى بعض هذه الدراسات سواء اشار اصحابها الى ذلك ام لم يشيروا .

واذا كان اهل العربية لم ينتبهوا كثيرا الى ضرورة اعداد قاموس ايتيمولوجى يضبط قصة الالفاظ العربية وتطور معانيها حسب الفترات والاعلام فانه من باب اولى واحرى الا يتفطنوا الى دراسة تطور الايقاعات فى الجملة العربية على حسب العصور والاعلام وان هم اهتموا من حين لاخر بصورة من الايقاعات فى الشعر عن طريق البحور والاوزان والحال ان اهم ما يظهر من تغير للايقاع فى الجملة العربية هو فى النثر قبل كل شيء • وهو ظاهر بارز عند عباقرة العربية يحس به كل قارىء مطلع ويعزوه النحاة الى تطور فى التركيب او من باب اقتراض الاساليب من اللغات الاجنبية من دون ان يغوصوا الى الاعمق من هذا .

واذا هم علموا واكدوا ان بالاسلوب تتغاير الكتابات ولاحظوا ان الجملة العربية تطورت ونمت بعوامل عديدة اجتماعية ونفسانية وغيرها فانهم لم يخرجوا بهذا المفهوم — اى الاسلوب — من الغموض الذى يكتنفه ، وراحوا يخلطون بين المبتدع والمقلد بينما بينت سابقا ان هناك الاسلوب من جهة واللغة التجاوز (2) من جهة اخرى وان الذين طوروا الجملة العربية النثرية على حسب مفهوم اللغة التجاوز قلة قليلة من امثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدى وابو الفرج الاصبهانى وابن خلدون وطه حسين ومحمود المسعدى بقطع النظر عن الجملة الشعرية واقطابها .

ولئن وجهت الاسلوبية الحديثة البحث والدراسة وجهة جديدة بالاعتماد على الالسنية فانها لم تفد الدراسات اللغوية العربية اذ هى ما زالت فى

---

(1) اللغة العربية ومشاكل الكتابة ، الدار التونسية للنشر 1971 .
(2) نفس المرجع . الفصل الرابع من الباب الثالث ص . 186 — 190 .

خطواتها الاولى لم تهضم مفاهيمها بعد ، او هى لم تبلغ دعوتها بعض لغويينا الاكارم · ولهذا فان الوجهة الصحيحة للبحث لا تتجه هذا الاتجاه بل هى فى ظنى من الواجب ان تسلك المسلك الذى به تصل الى ضبط الوحدة الايقاعية فى الجملة العربية سواء الشعرية منها او النثرية .

وقد نبهت بالنسبة للشعر الى ان التفعيلة لا يمكن ان تكون وحدة ايقاعية بل هى وحدة عروضية او دائرية تقريبية (I) وعرضت حينذاك اقتراحا من حسن الحظ ان تجاوزته دراسات هاملة صدرت فى ذلك وركزت البحث نحو هـذا الاتجاه وافادت كثيرا ، ومن واجبى ان أنبه اليها لانها ستفيدنا فى فهم النظرية التى سأعرضها بعد حين ·

اريد ان أذكر قبل ذلك بكتاب الدكتور محمد طارق الكاتب ، ولو انه لم يبحث عن الوحدة الايقاعية لا لشىء الا لانه خرج عن الطرق القديمة اذ أقر طـريـقـة

التسلسل	الصفـة	المصطلح العروضى	المصطلح بالارقام الثنائية	المصطلح بالارقام العشرية
I	حرف متحرك واحد	لا يوجد	o	o
2	حرف ساكن واحد	لا يوجد	I	I
3	حرف متحرك ثم حرف ساكن	سبب خفيف	Io	2
4	حرفان متحركـان ثـم حـرف ساكن	وتد مجموع	Ioo	4
5	ثلاثة احرف متحركة ثم حرف ساكن	فاصلة صغرى	Iooo	8
6	اربعة احرف متحركة ثم حرف ساكن	فاصلة كبرى	Io·ooo	I6

(I) انظر كتاب اللغة العربية ومشاكل الكتابة تاليف البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر I97I ، الفصل الثالث من الباب الثانى ص· ص· II9 · I28 ·

اخرى فى ضبط موازين الشعر العربى باستعمال الارقام الثنائية (1) وترجم المصطلحات العرضية المعروفة ثم التفاعيل بالارقام الثنائية وضبطها فى مثل الجدول الموجود بصفحة 46 .

ولعل هذه الدراسة الهامة ونتائجها صالحة لتستعمل عن طريق الدماغ الالكترونى لغاية الظفر بالوحدة الايقاعية فى الشعر العربى .

وان ما كتبه الدكتور كمال ابوديب كبديل جذرى لعروض الخليل فى كتابه فى البنية الايقاعية للشعر العربى (2) لجدير بالعناية اذ انه يصل الى ان الايقاع العربى لا يخرج عن وحدتين ايقاعيتين (فا) و (علن) ثم هو يجد بعد ذلك ثالثة (علتن) ٠ ولعله على صواب لان ذلك يوافق ما عرفته السليقة العربية منذ القديم اذ جاء (3) « فى التوشيح الوافى والترشيح الشافى فى شرح التأليف الكافى فى علمى العروض والقوافى لابن حجر العسقلانى ــ بعد اسقاط السند ــ عن الحسين بن يزيد انه قال سالت الخليل عن علم العروض فقلت هل عرفت له اصلا ؟ قال نعم ، مررت بالمدينة حاجا فبينما انا فى مسالكها اذ نظرت لشيخ على باب دار وهو يعلم غلاما وهو يقول له :

نعم لا نعم لا لا نعم لــلا = نعم لا نعم لا لا نعم لــلا

فدنوت منه وسلمت عليه ، وقلت له ايها الشيخ ما الذى تقوله لهذا الصبى ؟ فقال هذا علم يتوارثه هؤلاء عن سلفهم وهو عندهم يسمى التنعيم قلت لم سموه بذلك ؟ قال لقولهم نعم نعم ، قال الخليل فقضيت الحج ثم رجعت فاحكمته ، وفى بغية المستفيد من العروض الجديد للاستاذ على ابو الخشب ما نصه : فيما يروى عن الخليل نفسه انه كان بالصحراء فرأى رجلا قد اجلس ابنه بين يديه واخذ يردد على سمعه « نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا » مرتين فساله عن هذا فقال انه التنغيم بالغين المعجمة ــ نعلمه لصبياننا . وقد تكون

---

(1) الدكتور محمد طارق الكاتب ، موازين الشعر العربى باستعمال الارقام الثنائية البصرة 1971 ٠

(2) الدكتور كمال ابو ديب ، فى البنية الايقاعية الشعر العربى (نحو بديل جذرى لعروض الخليل ومقدمة فى علم الايقاع المقارن ، دار العلم للملايين بيروت 1974 ٠

(3) العروض تهذيبه واعادة تدوينه صنعه الشيخ جلال الحنفى ، الجمهورية العراقية وزارة الاوقاف مطبعة العانى بغداد 1978 ٠

لهذا النص قيمة تاريخية مقبولة ولكن مما يجب ان يعلم ان الرواية لا تشير الى ان ذلك كان معروفا لدى الشعراء فى الجاهلية او كان ذلك من بعض أدبهم ، وما نسب الى أمرىء القيس من مثل قوله =

ألا لا ألا الا = ألا لا ألا الى

فعولن مفاعيلن = فعولن مفاعلن

لا يمكن ان يكون الا شيئا وضع لوزن الشعر بعد عصر الجاهلية ، فالحق بأبيات امرىء القيس او ادعى له ، او انه مما صنعه المؤدبون فى العصر الاموى لتحفيظ الشعر وضبط الفاظه ونصوصه وأوزانه » (1) .

ولو ان الخليل ابن احمد اتجه الى البحث عن الوحدة الايقاعية فى لا ونعم ولم يخرج لنا بالتفعيلة وفضله على كل انه لم يخرج بالصمت عن لا ونعم مثل حبيبة بشار (2) لكان تطور الشعر العربى تطورا آخر (ربما) .

يصل كمال ابو ديب اذن الى هذه النتيجة وهى انه فى « مقدورنا ان نصف الايقاع الشعرى بطريقة تستقى من النظرة النووية فى العلوم وانما بشكل مبسط اذا أخذنا النواة (علن) على انها نقطة التمركز الايقاعية والعنصر الايجابى الدائم ووضعنا النواة (فا) فى سياقها او النواة (علتن) استطعنا ان نرسم نماذج من الشكل التالى =

(علن) ———— فا

(علن) ———— فا فا

(علن) ———— فا فا فا

فـــا ———— (علن) فا

فا فا ———— (علن) فا

« ويمكننا بهذه الطريقة تقديم وصف نووى لكل التشكلات المعروفة فى الشعر العربى التناظرى وللتشكلات التى نماها الشعر العربى المعاصر لكن الواضح ، طبعا ، ان حركة الايقاع وعلاقات النوى فيه ، حركية افقية تفرضها

(1) المرجع السابق ص 24 و 25

(2) اشارة الى البيت = واذا قلت لها جودى لنا = خرجت بالصمت عن لاونعم

طبيعة اللغة ذاتها بكونها تتابعات صوتية ، بتمثيل كهذا يمتنع تحجر المركبات في وحدات منعزلة كبيرة ويتلافى الخطر الاعظم الذى احاط بنظام الخليل وحوله الى قوالب جامدة لم تعد تعكس حركة الحيوية والقرار فى الكلمة العربية النابضة بالحياة الباحثة ابدا عن قرار . » (1)

وليست غاية هذه الدراسة هى تلخيص نظرية الدكتور ابو ديب لان النتائج التى وصل أليها تحتاج الى نقاش طويل خاصة وان عمله جاد وعلمى لكن الذى يهمنى هو انه توصل الى ايجاد وحدة ايقاعية يمكن تطبيقها على الشعر العربى العمودى والحر وحتى الخارج عن هذين الصنفين اذ هو اثبت ان شعر ادونيس يخضع لهذه الوحدة الايقاعية وانه شعر وليس بنثر ٠ هذا موضوع آخر يطول شرحه فى هذه العجالة وسيجد ان شاء الله مكانه فى الكتاب الذى يحمل نفس عنوان البحث ٠

كما ان احمد الطاهر فى كتابه الشعر الملحون الجزائرى ايقاعه وبحوره واشكاله (2) توصل فيما يخص الشعر الملحون الجزائرى الى الظفر بمقطع سماه **المبالغ فى الطول** وقال : « اذا كان الايقاع هو عودة انطباعات سمعية متماثلة على فترات من الوقت متشابهة فانه يمكن القول ان الايقاع فى الملحون يعتمد تعادل عدد المقاطع فى كل مصراع من نفس الجنس وعودة نفس عدد المقاطع المبالغة فى الطول فى مواضع متماثلة المصارع ، وبصورة اخرى فانه يكون للبيتين نفس الايقاع اذا استوفيا الشروط التالية :

- أ ــ نفس عدد المقاطع فى كل مصراع من نفس الجنس
- ب نفس عدد المبالغة فى الطول فى المصارع
- ج ــ نفس الرتبة بالنسبة لكل مقطع مبالغ فى الطول فى المصارع

واذا اختل شرط من هذه الشروط فان البيتين ليس لهما ايقاع واحد » (3).

---

(1) كمال ابو ديب ، فى البنية الايقاعية للشعر العربى ، ص 98 ٠

(2) Ahmed Tahar La poésie populaire algérienne (Malhun) S.N.E.D. Alger 1975.

(3) نفس المرجع ص 91 .

وهكذا فان احمد الطاهر لم ياخذ بعين الاعتبار النظام الكمى الخليلى ولا النظام النبرى وكانه ارتضى النظام المقطعى الذى سار عليه الشعر الفرنسى ولم يعطنا فى الواقع قياسا مضبوطا للمقاطع بينما انواع المقاطع كثيرة .

ونأتى الى عمل آخر اعتبره مهما جدا ويحتاج الى تقييم جاد وهو ما قام بـه صديقنا الاستاذ محمد العياشى . وانى لا اريد ان انقد كتابه (1) نظرية ايقاع الشعر العربى لا لشىء الا لانى لم استوف النظر فيه بصورة كاملة وانما الذى يخرج به قارىء الكتاب قراءة سريعة غير متأنية هو انه كتاب فيه تجديد فـى النظرة ووضوح واكتمال فى مسألة الايقاع اكثر من غيره من الدراسات واعتقد انه سيساهم مساهمة كبيرة فى تغيير نظرة المهتمين بالشعر العربى خاصة انه استعان بالموسيقى وترقيمها وهو امر ليس بالصعب ادراكه وحل مشاكل عديدة لم يقدر الخليل على الاجابة عنها ، ولا بد ان ارجع اليه بصورة مستفيضة فى وقت لاحق مع تنبيه الصديق الاستاذ الى ضرورة الاشارة الى مراجعـه بكـل دقة فى طبعة ثانية .

اما ما يهمنى الان هو ان الكاتب توصل الى ايجاد عنصرين فى الايقـاع :

- عنصر مقصور خفيف ويستغرق من الوقت قدر وحدة قيمة
- عنصر ممدود ثقيل ويستغرق من الوقت قدر وحدتى قيمة .

واعطى الى كل عنصر ترقيما موسيقيا . فالعنصر الخفيف يناسب المقطع القصير (ف) والعنصر الممدود يناسب المقطع الطويل مثل (نا) او (فى) او (تل) (بتسكين اللام) ولكنه يبين فيما بعد ان هناك من العناصر ما تسمـى هـاضمة واخرى مهضومة ويعطيها ترقيما خاصا . وكانها فى الواقع ترجع الى ما يسمى بالمقاطع الطويلة المنبرة (accentué) وغير المنبرة (atone) وكنت نبهت اليهـا عندما تحدثت عن الخلايا الايقاعية فى كتابى الآنف الذكر . غير ان الاستاذ محمد العياشى اعطاها قيمة مضبوطة اذ النبرة عنده تساوى وحدة قيـمـية ونصف وحدة قيمية ، بحيث ان =

المقطع القصير = 1

والمقطع الطويل = 2

---

(1) محمد العياشى ، نظرية ايقاع الشعر العربى ، المطبعة العصرية ، تونس ، سنة 1976 .

• والمقطع الطويل المنبر = 2،5
والمقطع القصير غير المنبر = 0،5

وعلى كل فانني ذكرت هذا لانني ساستعمل ما وصل اليه محمد العياشي من الاستنتاجات التي هي اضبط مما وصل اليه الخليل ويمكن تطبيقها حتى على النثر وذلك في انتظار ايجاد مقاييس مضبوطة عن طريق الالة وخاصة مسجل الذبذبة بأشعة مهبطية (oscillographe cathodique) المنسق مع ضابط الصوت (sonométre)

اخلص الان الى النظرية التي اريد عرضها والتي سميتها التطعيم الايقاعي فاقول ، ان كل عبقري اضفى على الجملة العربية نمطا جديدا غير به ايقاع صياغته ونظامها فانه قدر في الحقيقة على اقحام ايقاعات لهجته العامية المحلية في الفصحى وتطعيم صوغه بهذه الايقاعات من كلامه ، ومعنى هذا انني ادعي ان امثال ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني والتوحيدي وابن خلدون وابو نواس وابا العتاهية والشابي ومحمود المسعدي وغيرهم قد طعموا شعرهم او نثرهم بايقاعات لهجاتهم المحلية بدون ان يشعروا بذلك لقدرة حباهم الله بها لان اللغة العربية الفصحى باعجازها وطاقتها الكبرى قادرة على الديمومة والاحتفاظ بعبقريتها الكامنة في نحوها مع الارتباط بواقع اهلها المتحول المتحرك الذي تعتبر اللهجة المحلية جزءا منه يحمل خلاصة الحياة المعاشة ويترجم عنها احق ترجمة ولكن تبقى الفصحى دائما هي القادرة على السمو بذلك الواقع وتلك الحياة وهذا سر من اسرار بقائها •

واني اريد ان انبه مرة اخرى انني لا ادعو الى العامية ولا الى الاستعاضة عن الفصحى بلهجة من اللهجات واقول هذا رفعا لكل التباس وردا على من يتربصون باعمالنا سواء في تونس او خارجها ولا يناقشوننا في صلب نظرياتنا وانما يلبسوننا جبة خيانة الامة العربية او يرموننا بالاقليمية وهي « موضة » متداولة ويا للاسف في العالم العربي اليوم لما تردى فيه معظم الفكر العربي الطافي على السطح من دركات وما اصاب الامة العربية من ضعف في مستوى الاخلاق الا من رحم ربنا . ذلك ان العلم لا يستنكف من دراسة اي موضوع مهما كان حراما او سفسافا للوصول الى الحقيقة . ولو علم القوم لادركوا أن هذه النظرية تسد في الواقع الباب على كل من يدعو الى العامية لانها تثبت ان الفصحى قادرة على امتصاص حيوية اللهجات للسمو بها .

ومعنى هذا انني ادعو الى دراسة اللهجة المحلية للكاتب العبقري او الشاعر المبدع من حيث ايقاعاتها ونظامها ثم ابحث في ادبه عن هذه الايقاعات • وقد

قمت لا محالة بشيء شبيه بهذا عندما كتبت عن ابن المقفع (1) وابن رشيق (2) وطه حسين (3) ولكنني لم اعط امثلة مستفيضة مضبوطة لانني حينذاك لم اظفر بعد بالنظام الايقاعي المقارن ·

وساحاول في هذ العرض ان اطبق هذه النظرية على طه حسين والشابي ومحمود المسعدي مع العلم ان هذا النوع من العمل يحتاج الى امثلة كثيرة جدا ولا يمكن ان تكون الا ضمن كتاب ·

يقول طه حسن = « ولك ان تنظر في اى لون من الوان العلم والادب والفن التي تدرس في مصر والتي ينتج فيها العلماء والادباء والفنانون المصريون فسترى انها مطبوعة بالطابع المصرى القوى القومى الذى لم يستطع الزمان ان يمحوه او يعفى اثاره سترى فيها هذا الذوق المصرى الذى هو ليس ابتساما خالصا ولا عبوسا خالصا ولكنه شيء بين ذلك فيه كثير من الابتهاج وفيه قليل من الابتئاس · وسترى فيه هذه النفس المصرية التى تجمع بين الجدية والقدم والتى تثب الى امام وكأنها تستأنى وقد تقف من حيث تستأنى وقد تقف من حين لاخر لتنظر الى وراء سترى فيها الاعتدال المصرى الذى يشتق من اعتدال الجو المصرى والذى يأبى على الحياة المصرية ان تسرف في التجديد » .

واذا ترجمنا هذا على حسب الايقاعات كما حددها نظام محمد العياشي وجدنا ان هناك كمية من المقاطع كبيرة (تثب الى الامام) فكمية اخرى اقل منها (تستأنى) فكمية اضعف (تقف) ثم تسترسل الجملة من جديد على نفس النمط ·

لناخذ فقرة من كتاب على وبنوه لطه حسين يقول = وقد كان يرى انه احق الناس / بالخلافة منذ وفاة النبى / ولكنه / صبر / حين صرفت عنه / الى الخلفاء الذين سبقوه / فلما جاءته الخلافة / لم تجئه صفوا / ولا عفوا / · »

(1) تطور الجملة العربية عند المولدين ، مجلة الفكر السنة 17 العدد 1 اكتوبر 1971 ص · ص · 33 الى 37 ·

(2) ابن رشيق الاديب الافريقى ، مجلة الفكر ، السنة 20 العدد 8 ، ماى 1975 ص · ص · 4 الى 14 ·

(3) طه حسين بين الكلام واللغة مجلة الفكر السنة 20 العدد 7 أفريل 1975 ص · ص · 4 الى 16 وهى دراسة قدمت في الذكرى الاولى لوفاة الدكتور طه حسين التى انتظمت بالقاهرة من 26 الى 28 نوفمبر 1975 ·

انظر الى صواب هذا التقطيع عندما وافق نوعا من القوافى المتمثلة فى كثرة الهاءات والمختومة بواوين ولو عددنا الكميات الايقاعية لوجدنا على التوالى : 13 ـ 8 ـ 18 ـ 7 ـ 4 ـ 11 ـ 18 ـ 17 ـ 11 ـ 7 ـ وهى فى تغايرها مع موسيقاها تترجم حقيقة عما وصفه طه حسين خلافا لما درج عليه الكتاب العرب القدامى من توازى الكميات الايقاعية مع الملاحظة انه يجدر بنا هنا دراسة العامية المصرية وضبط خصائصها الايقاعية ولكننى ارجىء هذا الى وقت آخر لمزيد الاستقصاء .

رلناخذ الان امثلة تونسية ونقتصر على الشابى ومحمود المسعدى • يقول محمد العياشى « العامية التونسية فقدت المقطع المقصور تماما واصبحت تقوم على المقاطع الممدودة لا غير وابتداؤوا بالساكن والفصحى لا تقبل ذلك مطلقا لانهم لا يبتدؤون بساكن ولا يقفون على متحرك فيقول عروس بتسكين العين ويقولون كريم بتسكين الكاف ووالوا بين الساكنين فيقولون باش مات بتسكين الشين والتاء والفصحى ترفض وتخضع الى المبدأ الذى يقول = اذا التقى ساكنان يحذف ما سبق وكان كل ذلك نتيجة لتصرفهم فى اللغة وتحللهم من مبدا الاعراب والدليل ان حركة الايقاع تخضع فى تركيبها الى مبادىء اللغة ومقتضياتها هو استحالة استعمال ايقاعات الشعر الفصيح فى الشعر الملحون مع اللهجة العامية التونسية وذلك لان المقطع المقصور فى هذه اللغة مفقود تماما • فاضطر الشعر الى استنباط ايقاعات اخرى تتلاءم مع لغتهم » •

ومعنى هذا ان هناك خليتين ايقاعيتين هما (فما) و (فال) بتسكين اللام وليس من الصعب التكهن بطبيعة الحركة فى جملة تكون مبدؤها بساكن وعلى مقاييس فى مثل هذه الحدة • وليس من الغريب ان نجد الشابى يكثر من استعمال الخبب (فى اصطلاح العياشى) الذى اهمله الخليل ولم ينتبه اليه نظرا الى ان العرب تستعمله كثيرا وان الحركة الايقاعية المستعملة لا تتناسب كثيرا مع الايقاعات من نوع (فا) و (فال) وليس غريبا ايضا ان يكون الحصرى الافريقى هو الذى وفق فى وزن الخبب (فى اصلاح العياشى) وابدع فى قصيده المعروف (يا ليل الصب) اما الشابى فقد استعمل الخبب فى قصيدته:

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرا كنور الضحى فى سماه ؟

انظر تتابع الساكنين فى آخر البيت الى جانب استعمال الخبب • اما اذا كتبناه على حسب ما رآه محمد العياشى وسماه الروى المقلوب الساكن مع الختم العارى فيصير البيت =

اس خلقت طليقا كطيف النسيـــــم وحرا كنور الضحى فى سما

ه تغـرد كالطيرايـن اندفعـ   ت وتشدو بما شاء وحـى الالا

وقد يمكن ان يكون دليلا آخر على نوع من الابتداء بالساكن الذى لا تعرفه الفصحى زد على ذلك فان قافية الهاء الساكنة موجودة فى عدة قصائد (ما يقرب من ست عشرة قصيدة) · اما القصائد التى تنتهى بساكنين فهى عديدة ايضا (اكثر من ربع ديوانه) ·

اما بالنسبة لمحمود المسعدى فتامل الحركة الايقاعية فى كلام هواتف السد وفى اسم (صاهباء) ومقياسها (فا فا فال) دائما فى الممدود لا المقصور حتى ان ميمونة عندما قالت :

ما صاهبى يا غيلان

اجابها الهاتف ـ

لا تحرفى قومى الاسم · هو بالمد لا بالقصر ·

وغيلان الذى على وزن (فافال) وميمونة وزنها (فا فا فا) وهلهبا · هل هذا كله من محض الصدفة ؟ كلها ايقاعات تلقاها الكاتب من البيئة التى يعيش فيها والشواهد كثيرة سواء فى السد و حدث ابو هريرة قال ·

هذه لمحات اولى عن نظرية التطعيم الايقاعى فى الفصحـى وهـى افتـراض بطبيعة الحال يحتاج الى أدلة أوفى مما ذكرت ولكننى اعتقد ان الماضى فى هذا الاتجاه يفتح لنا ابوابا من البحث ويكشف عن اسرار ما زالت اللغـة العربيـة تخبئها عنا ·

واكثر من هذا فانه يفضى الى نتائج جد خطيرة لها ارتباط بمسلمات ما زال يتعلق بها كثيرون ويكبلون من جرائها لغتهم وتطور حياتهم ايضا .

البشير بن سلامة

رسالة إلى أديب شاب

بقلم: محمد مزالي

إني أحسن بك ظنا وأتوسم فيك خيرا وارجو لك مستقبلا أدبيا زاهرا (*) وان كنت أشفق عليك من الغرور والادعاء فاني أعوذ بذكائك وعزمك من الكبر والخيلاء.

ومع أني اعلم ان نفسك هي اخص النفوس بك وانك ادرى بها من سواك، واعرف انك بطبعك عن النصيحة راغب، اذ أنت الى استقلال الذات تائق وبالتجربة الوجودية الفردية متمسك، فاني أذكرك ببعض الحقائق المستقاة من التجارب والمستقراة من تاريخ الفكر البشرى عسى أن تتأمل منها وتعتبر بها في هذه الفترة التي تتوق فيها الى الراحة بعد مشقة الدرس وعناء الطلب.

أعلم ــ علمك الله الحكمة وبصرك بنفسك وقواك على أخذ زمام امرك ــ انك مهما اوتيت من العلم ورزقت من الفطنة فانك لا تزال في اول الطريق، فاياك ان تترك للتمذهب الاعمى اليك سبيلا وللانحياز الآلي عليك سلطانا، واجتنب تغييب القضايا او اختزالها، والهروب منها الى التجريدات والتهويمات والاستعاضة عن الواقع الحي المتطور بالشعارات، بل تيقظ الى ما حولك ومحص الصحيح من الزائف، وعبد طريقك الى الثقافة الحق والحرية الحق والكرامة الحق بالجهد الدائب والطلب الدائم، والشوق الى الافضل والتوق الى الاعلى، اذ انسانية الانسان لا تعرف حدا بل هي تجاوز للذات متواصل وكسب متميز وتجديد وخلق، في عالم سيطرت فيه الوسائل السمعية البصرية أيما سيطرة، وعمدت أنظمة كثيرة الى تكييف الجماهير وتسخيرها رغم آدعائها التقدمية والديمقراطية والاشتراكية ... وضيقت الآلة والدعاية

(*) الفكر س 18 ع 10 ص 1 سنة 1973

وانماط السكن وضروب التعفن من حرية تصرف الافراد فاذا أكثرهم يساقون سوقا الى متعة وهم وسعادة سراب .

فليس التمرد السفيه ولا السباب المجانى ولا امضاء العرائض ولا القول بالمانوية المذهبية والدعوة الى حرب الطبقات او جدلية تنازع الاجيال ولا العنف او الرفض الكلى ـ وحدها ـ بحلول حتمية ناجعة أو ضمانات فعالة لحماية الذات الانسانية والذود عن الحرية او اقرار العدل والسلم واحلال المحبة محل الشحناء والبغضاء .

ان الثورة الثقافية ـ فى مستوى الفرد ثم على صعيد المجتمع ـ هى الطريق المستقيمة ولكنها تقتضى الايمان بالانسان بوصفه غاية الغايات ، وبأنه يخلق نفسه خلقا ويتجاوز ذاته ويصنع التاريخ ، ولا يصنعه التاريخ ، فلتعرف نفسك ـ كما قال سقراط ـ ولتتحرر من الافكار القبلية والنظريات البراقة ولا تكن كلبى النزعة ، تصيح وتهتف وتتحمس سجينا للمجردات والقبليات تبيعـا للفآت والتكتلات ، وذاتك فارغة وقلبك جاف وعقلك مقيد ، وفكرك مكبل !

هى الطريق الصعبة أدعوك الى اختيارها وأطلب اليك جهدا وبذلا وطموحا للسير فيها . وهى التجارب الصادقة المتواصلة أحضك على الاقبال عليها من دون أن تخشى ما قد تتعرض اليه بسببها من المآخذ والمآتى ، فبذلك تتحرر من منزلتك المادية وتعيش حقا ، ولا يصح فيك ما قاله الفيلسوف اللاتينى سيناك (Sénèque) فى شخص بلغ أرذل العمر : « تقول انه عاش ثمانين سنة ؟ لا ! بل ان العمر امتد به ثمانين سنة ! » Il a vécu 80 ans ? Non ! il a duré 80 ans ? (فى رسالة الى لوسليوس Lucilius).

واعلم انى لا اعيب عليك طموحك بل انى اقدر فيك الهمة العالية والحرص على بلوغ أعلى المراتب الادبيـة . الا انه من واجبى ان اذكرك بأن قيمة الاديب والفنان ليست بالضرورة فى الرفض والتمرد والتنكر والهجوم .

ولا شك ان اغلب الكتاب والفنانين عاشوا فى حالة تأزم ضمـن مجتمعهم وعصرهم ، وتمـردوا على القيم الموروثـة وضاقوا ذرعـا بالعادات والقوانين وتحدوا الأوامر والنواهى الاخلاقية والجمالية والسياسية ، ونالهم ـ فى حالات عدة ـ الضيم وباؤوا باللعنة أو لاذوا بالعزلة .

ولكنهم فرضوا انفسهم وكانوا عظماء بحق ـ لا بمجرد الرفض والتحدى والصياح والضجيج والفوضى الفكرية ... ـ بل لانهم أبدعوا وتخلصوا من قيود مكانهم وزمانهم ، أى أنهم تحرروا من جاذبية مركباتهم وحسدهم وغرورهم وعجبهم وتجاوزوا « تاريخيتهم » وحلقوا فى ذرى الفن اذ انتجوا انتاجا أجزل مادة من غيرهم وأينع ثمرا وأوسع اشراقا ونفذوا الى الجوهر وأصابوا الواقع فى الصميم فأثروا فيه وغيروه وطبعوه بطابعهم .

ويشترك فى هذه المنزلة من رجال الفكر والفن من تمرد وكفر وسخر ورفض ومن آمن وتعايش ونافح وتضامن ، لا فضل لواحد على الآخر الا بما ابدع وخلد .

عندما نتأمل اليوم هندسة الاهرام الفرعونية ونعبر عن اعجابنا بها لا نفكر فى اتهام المهندسين والنحاتين ، المعروفين منهم والمغمورين ، بتخليد آلهتهم وعظمائهم ، ولا نغمطهم حقهم فى التنويه والتمجيد أو ننكر عليهم حظهم من العبقرية بدعوى انهم تعاملوا مع الحكم القائم فى مصر القديمة او خضعوا الى قيم عصرهم الدينية ؛ وكذلك الامر بالنسبة لمن صمم الاكروبول بأثينا ولمن شيد المساجد والمآذن والكنائس ورسم بديع الصور وروائع الفسيفساء ...

وسواء زاغ أرسطوفان عن اتجاه الحكم القائم فى أثينا القديمة وتمرد الصعاليك على قومهم وكشفوا عن سيآت قبائلهم او انصرف سوفوكل واشيل الى التغنى بمآثر مدينتهما فيما الفاه من المسرحيات ، والتزم شعراء الجاهلية وصدر الاسلام الدفاع عن ذويهم والمنافحة من أجل عشيرتهم ونصرة عقيدتهم ، فان الذى يهمنا منهم جميعا ، من حيث انهم أدباء مبدعون ، هو ادبهم وروائع شعرهم وخالد مسرحهم .

وبينما لا يزال النقاش متواصلا فى بعض الاوساط لمعرفة مقاصد شكسبير . هل قصد التشهير بأخلاق عصره وادانة الحكم المطلق عندما أمعن فى وصف الخبائث والجرائم التى حفل بها تاريخ انقلترا على تعالق عهوده ، أم هل انه تفنن فى تشخيص عاهات هذا التاريخ للتنويه بعهد الملكة اليزابيت السعيد ؟ فان مؤلف « هملت » و « مكبث » و « الملك لير » لا يزال فى قمة المجد المسرحى يمتع النفوس ويحرك الخيال ويلهم الاجيال .

وشبيه به موليار الذى اضحك الملك لويس الرابع عشر وأغضب نفرا من المحظوظين ، وشهر بعيوب بعض رجالات عصره . ولكنه دخل فى التاريخ من

بابه الكبير لانه سبر اغوار النفس البشرية وأسبغ على وصفه وحوازه من جلال الفن وشفافة المعنى ولطافة المبنى ما جعل الناس فى كافة انحاء العالم يكلفون به ويتسابقون الى مشاهدة رواياته منذ ثلاثة قرون .

فلتقبل على البحث والمطالعة ولتتمعن فى الرأى قبل الاخذ به أو رفضه ولتتدبر الخبر قبل تصديقه ولا تكونن لشىء أشد ضنا منك بحرية الرأى ولا أشد تعلقا منك بملكة التمييز .

ومهما تثقفت وجربت وعاشرت الناس ، ووعيت أخبار من قبلك فأضفت ـ حسب قول الشاعر القديم ـ أعمارا الى عمرك ، ومهما بلغ يقينك بالمذهب الذى اليه تدعو وبه تبشر اياك والتعصب والانسياق مع الهوى ، الذى هو بلية البلايا ، يحجب عنك الواقع الحى ويجعلك عاجزا عن التفتح الى الجديد والتطور مع الحياة ، بل يفقدك أدب النفس من حيث أنك تسعى الى أدب القلم

وانى اقدر طموحك وارادتك السبق والتفوق ، بل التمس لك عذرا اذا اردت ان تملا عصرك وتشغل الناس ـ مثل المتنبى ـ الا ان ايسر الطرق وأقصرها لبلوغ ما تحلم به وترنو اليه ليس فى تحطيم من سبقك او الازورار عمن عاصرك ولا من باب اولى واحرى فى الهجوم على من اخذ بيدك وارشدك فى خطواتك الاولى ، ولا تغتم مما سبق ان صدر عن أولياء نعمتك من تعطف عليك واحسان اليك ولا تؤاخذهم اذا كانوا بك أرأف من سواهم واليك أنظر ولك أحب وأوفى .

واعلم ان اقوم المسالك واضمنها ان تبنى مجدك بنفسك دون تطاول على الغير او ضياع فى متاهات الجدل العقيم ، وأن تتمسك بالجوهر وتترفع عن الاعراض والاغراض وتتوخى الصدق والاصالة وتعيش حقا وتعانى مغامرتك الوجودية ، فتستولى على الامد ويكون الدهر عمرك .

ذلك قصاراك فخرا وحسبى جزاء .

محمد مزالى

الأدب الشعبي ودوره في تجديد القرائح

بقلم : الطاهر قيقة

إنّ(*) ما تمتاز به اعمالنا في هذه الفترة التى يتحكم فيها شعبنا في مصيره هو انها تعبير عن نزعة عارمة تدفعنا الى تجديد متواصل بجميع أوضاعنا نواجهها في حماس دون ان يصدنا عن ذلك أيّ مركب، من المركّبات .

وإن مصدر ذلك – على ما أعتقد – ميل المغاربة بصورة عامّة والتونسيين بصورة أخصّ منذ قديم العصور الى تسليط الرأى النافذ الممحص الناقد دون هوادة ولا وهن على طرق التفكير ومظاهر السلوك واساليب الاعمال والى نفور جبلي من الطرق المعبدة والى تفتح وتطلع الى كل ما يجدّ داخل المجتمع وخارجه من احداث حضرية تجبر على تعديل الاتجاه .

وتكاد تكون النزعة الى التجديد في يومنا ايضا اهمّ ميزة يمتاز بها الشعب التونسي . نجدّد في حماس وثبات ونظام بنياتنا الاقتصادية واوضاعنا الاجتماعية واختياراتنا الثقافية .

ولكن بدل ان تكون النزعة الى التجديد ظاهرة فردية تتبلور عند بعضهم حتى تصبغ شخصيتهم بطابع فذّ وتبقى عند بعضهم ميلا مجرّدا عن السلوك والاعمال اصبحت في هذه الفترة التى نعيشها محرّكا لمجتمع بأسره . فنزعة التجديد هذه شاملة تدفع الى العمل الرتيب المنظم

لقد علّمنا حزبنا الذى نشأنا فيه وعلّمنا زعيمنا الذى استوحى من القيم الثابتة لشعبنا ومن عبقريته الفريدة فلسفة حياتية وطريقة سلوك أن اساس حركة التجديد عقل متطلع سابر حرّ لا تعرقله القيود مهما

نص محاضرة القيت بمحضر السيد رئيس الجمهورية يوم 29 جويلية 1968 بمناسبة انعقاد ملتقى هواة الادب بالمنستير .

(*) الفكر س 14 ع 3 ص 8 سنة 1968

كان نوعها وحساسية مرهفة تحس بتطوّر الاوضاع الحيّة بمفعول مرّ الزّمان وسير الحضارة .

ان نزعتنا الى التجديد المتواصل عمليّة حرّة طليقة تجعلنا ، على غرار رئيسنا ، نقيّم دوما ما نقوم به من اعمال فننقده ونصلحه . فنسبق بذلك أحيانا حركات الرفض واعادة النظر في الامور التى تهزّ المجتمعات الانسانية في عصرنا هذا من أثر التقدم السريع للعلم والتكنولوجيا وما يجرّه هذا التقدم حتما من تأثير على الاوضاع الاجتماعية والثقافية

هل تتسم الحركة الادبية الحالية بطابع التجديد ؟ أظن أن بوادر الابتكار والتجديد بدأت تلوح خاصّة فيما ينتجه الشبان ولكن يبدو لي في نفس الوقت ان الادب التونسي المعاصر لم يتخلص في كثير من انتاجه من آفة التقليد ، تقليد التعابير والقوالب القديمة او تقليد طرق التعبير الاجنبية عربية كانت او اروبية . كأن جلنا يخشى الابتعاد عن الطرق المعبدة وعما تعوّدنا تذوّقه او وقع استيراده من الخارج فراجت سوقه في البلاد وخارجها .

نحنّ الى بروز ادباء غزاة يستكشفون طرقا جديدة في التعبير الادبي هي وليدة مغامرة فردية او محنة شخصية لان التجديد الحقيقيّ لا يتمثل في محاكاة الادباء المعاصرين الافذاذ ولوكانوا ادباء طليعة .

ولا يمكن أن تندلع محنة شخصية خلاّقة الا اذا أعاد الكاتب اكتشاف أصالة قومية بنفض الغبار الذى تكدّس عليها وازالة الملابسات التى غشيتها من اثر تقلبات الظروف التاريخية والحضرية . وبقدر استرجاع الاصالة يكون التفتح للقيم الانسانية التى تجد صداها في نفس كلّ انسان مهما كانت مشاربه وتهب الاثر الفني مستواه العالمي الرّفيع .

وقد يكون الاطلاع على الشعر الشعبيّ المطبوع وتذوّقه عاملا من العوامل التى تصقل قرائح الكتاب المعاصرين وتجعلهم في آن واحد مطلعين على أصدق مظاهر حساسية شعبنا ونازعين الى خدمة قيم انسانية ثابتة أشاد بها الشعر الشعبي ، لان كل تعبير فني صادق يرتقى الى مستوى الفن الانساني العام .

ولكن عملية الغوص والاستكشاف هذه لا تنجرّ عنها فوائد الا اذا كان الاديب حسّاسا ذا ذوق وتمييز يجعلانه يـختار ويصطفى فينتقي الدرّة النفيسة ويرمى بالبزر والصدف .

لنذكر أن الموسيقى الكلاسيكية الالمانية انبنت على اصطفاء بعض الالحان الشعبية لتطعيمها وترقيتها وان الادب الشعبى الاسبانى او الامريكي قد كان قوام أديبين اصيلين هما لوركا الاسبانى وستاينبك الامريكي .

ويمكن أن يلعب الشعر الشعبي التونسي بالنسبة الى بعض كتاب مبتكرين نفس الدور الذي لعبه الشعر الشعبي الاسباني بالنسبة الى لوركا مثلا .

الأدب التجريبي : أسسه وغاياته

بقلم : عز الدين المدني

اذا ما انطلقنا من هذه الفكرة ، وقلنا : ان العمل الادبى والفنى احراج يومى لا بالنسبة للقارىء أو للمستمع أو للمتفرج فحسب ، بـل بالنسبة للكاتب أو الفنان أيضا ، فاننا سنواجه حتما مسائل فكرية ستغير جذريا ما الفناه ومما لا يزال يؤمن به البعض منا من المفاهيم الادبية والفنية التى سبقت عصرنا ، هذه المفاهيم التى تقول بالخصوص بأن الادب والفن لونان من الامتاع واللذة ، بما فى هاتين الكلمتين من ابتذال ، وعفوية ، وسذاجة ...

والاحراج الادبى والفنى ذو معان شتى وأبعاد غزيرة ... فهو على صعيد الخلق ، والخلق بالخصوص ، الانطلاق من المعلوم الى رحاب المجهول ، والانصراف الكلى عن المعروف بعد اكتسابه ، والخروج تماما عن المألوف ، والتمرد على المبتذل ، وكسر المحنط ، والدخول بكل جسارة فى مجازفة أدبية ، ومغامرة فنية ،وباختصار فى مسير وجودى حساس عميق لا يعرف للاطمئنان بابا ، ولا يعترف للسكينة بمنفذ ، ولا يسقط فى التبعية ، ولا يتقيد بالاستسلام .

ولعل مرد ذلك ان الخلق هو فى أساسه وفى بعده وفى نسغه انفجار ذاتى تلقائى مجانى محض لا علة له و لاسبب ، والتساؤل دافعه اللاواعى ، والحيرة أمام الواقع ، والحياة محركه اللاشعورى ، والدهشة أمام الناس ، والاحداث والموت دعامته الدائخة فى الاعماق .

نعم ، لعل مرد ذلك ان حرية الخلق فى الفكر والادب والفن ، ولو أنها حرية تسبكها ظروف اجتماعية واقتصادية ، وتزعزعها خطوب سياسية ، وتحبكها ملابسات ثقافية وفكرية مختلفة ، وتنسجها وربما تنجبها عوامل تاريخية وعصرية معينة ، فعلى كل فهى حرية ضارية ، اذ هى بفضل التجاوز الجدلى تتخطى صعاب الواقع ومتناقضاته لتغزو المجهول ، وهى حرية عدوانية ، اذ هى تروض الانسان بعنف الخطاب ، وبالبحث المتواصل عن الوعى ، وبتجديد نظرته

(*) الفكر س 15 ع 1 ص 57 سنة 1968

دوما الى الكون ، الى المجتمع ، والى ديكور الاشياء فى هذه الدنيا ، وهى حرية تكاد تكون فوضوية ، اذ هى فى نهاية مراميها تأبى التمذهب ، وترفض التحجر ، وتتحدى الحاضر ، وتنبىء عن المستقبل ، وترتاح للآفاق المفتوحة ٠٠٠

والاحراج من الحرج ٠ والحرج الذى أعنيه فى هذا الشأن ليس ذلك الاساس الطارىء ، وانما هو الشعور الوجودى الحاد بالغربة وبالغرابة ، كما هو ليس بالقلق والاضطراب ، ولا هو بالحيرة المثبطة للعزائم والتلف ، وانما هو عبارة عن ذلك الاحتكاك الدامى المستمر بين النظرية والعمل ، عن ذلك الصراع المتواصل بين الانسان وواقعه ، عن تلك الحرب الدائرة بين الفرد وخباياه المظلمة ٠ فلا العنصر الاول منتصر فى هذا النزاع ، ولا العنصر الثانى منهزم فيه ، بل هما بين بين ٠٠٠ وقد يظلان فى معظم الاوقات متكافئين بل غريبين بعضهما عن بعض غربة مغلقة تامة ٠ فمن ذلك ينجم الشعور بالحرج وبالاحراج ٠

وهذا الحرج الذى يلخص فى مكامنه تلك القيم القارة لعمل الخلق فى مجالات الفكر والادب والفن هو الذى دفعنا الى عرض هذه النظريات الجمالية ، وهو بالتالى احراج للكاتب او للفنان لانه يعلم ان هذه النظريات لا تقوم لها قائمة الا اذا انطلقت من الواقع الحى اليومى فتعتمده ، وتقفز من الدنيا فترتكز عليها ، وتثب من الحياة المتحركة دوما ، المتقدمة دوما ، المتطورة دوما ، وهو بالتالى احراج للقارىء او للمستمع او للمتفرج ، لان الكاتب او الفنان يضع جمهوره وجها لوجه مع الواقع بدون سابق اعلام ، فيحمله معه فى مغامرة خيالية بل فنية وفكرية ربما تعين الجمهور على يومه وتساعده على غده ٠

أهمية النظريات

لقد صار من الضرورى القيام بتأملات فى مجالات النظريات الادبية والفنية وتوسيع نطاقها وتعميق اهدافها حتى تبتعد الابتعاد الكلى عن الادب الساذج والفن العفوى ٠

لقد ضجرنا بطول الزمن من اولئك الذين يلوثون الاوراق بدون جهد ، وبدون نظر ، وبدون اعادة نظر ، وهم يتخبطون فى لوثات هستيرية ينعتها الذوق العام بالاعمال الادبية والفنية العبقرية ٠

كما مللنا من جهالة اولئك الذين لا يواكبون عصرهم فيكتبون أشياء ناشزة تاريخيا يمكن تاريخها بالقرون الماضية ٠

كما يئسنا من اولئك الذين يعمهون في مجالات الفكر فلا يميزون بين الاراء والافكار ، ولا يفرقون بين ذلك التيار الفلسفي وهذا الاتجاه الفني ، ويخلطون بين مفاهيم السياسة والادب ، وبين معاني الفن والدين ، وبين ابعاد الاقتصاد والتفكير العام ، ولو ان الكل مرتبط أوثق الارتباط !٠٠

واني ادعو بهذه المناسبة الى ان يتأمل الكتاب والفنانون فيما ينتجون ، وان يبسطوا نظرياتهم فيما يروجون ، لان عدم التفكير في مـاهية الادب والفـن وقبول ما قيل في هذا الشأن سواء في الماضي أو من خارج الحدود يعني ذوبان شخصية الاديب والفنان ، ويعني كذلك ان الكاتب أو الفنان لا يستحق أن تطلق عليه كلمة « **منتج** » ، اذ هو دائما في حالة استهلاك ! ويعني كذلك اخيرا ان هذا « الانتاج » هو من الادب أو الفن في درجة التبعية والسفالة والتتلمذ والضحالة ٠

* * *

الطـريـق الثـالثـة

لذلك ، وجب علينا ان نتـأمل جديـا في الادب والفـن في تـونس بعـد الاستقلال ، وان نغير الاتجاه جذريا ، بعد ان كان منحرفا عن المقاصد السليمة والدروب القويمة ٠

وهذا الانحراف يتمثل في خطين متوازيين :

الاول : الخط الخاضع للادب والفن الموروثين من الماضي ، ويليه خط متفرع عنه ما زال خاضعا للتيارات العربية المشرقية ٠

الثاني : الخط المستسلم لادب وفن الغرب اليوم وفرنسا بالخصوص ٠

اما الخط الثالث وهو خط الادب التجريبي فيعتمد في نظرياته العامة على جهده واجتهاده ، وعلى ما ينقذه من متاحف الماضي ، وما يقتبسه من نبراس الغرب اليوم من علوم انسانية وفلسفة وآداب وفنون وذلك تماشيا مـع مقتضيـات المعاصرة لا مع متطلبات الماضي ٠

والادب التجريبي يرادف في هذا المضمار العام التفتح واليناعة والخصوبة ٠ لكن لا تتحقق هذه الكلمات الثلاث ولا تتجسم الا اذا كان الادب عمـلا يوميـا متواصلا ٠ ذلك ان الكم يؤثر جذريا في الكيف ويتفاعل معه ولحينه ٠

وما الادب التجريبي الا مرحلة مؤقتة وانتقالية ستفضى الى الادب الكامل بعد اجتيازها ٠

ولئن كان الادب التجريبي يتضمن بذور الاعتراض والاحتجاج على انحطاط الماضي وعلى ما جره من الافكار المسوسة ، والمحاسبة والمراقبة الصارمة للنماذج الثقافية والفكرية العامة الواردة علينا من الغرب عامة وفرنسا خاصة ، فانه أدب البناء والتشييد لانه يرتكز على أسس ثابتة : **(لا متعصبة وطنيا ولا متحجرة مذهبيا)** .

* * *

الأســـس

1) توسيع ميدان النظريات الجمالية في الادب والفن ، وتطويره مع تعميق النظر في الانواع الادبية والفنية المختلفة من شعر وقصة ورواية ومسرحية ونقد وسينما وموسيقى ومسرح .. الخ ...

أ) تطوير مفهوم الكتابة الادبية والفنية بعد الاستفادة من انواع الكتابات القديمة واذا امكن من انواع الكتابات الاجنبية .

ب) النظر في الفنيات وانماؤها من ذلك الحوار والسرد والاوزان والشكل .

ج) النظر في العربية في مجال التعبير الادبي وتطويرها وتعصيرها بادخال اللغة اليومية وبمراجعة الصيغ الصرفية والنحوية وتنميتها والغاء ما يعطل العربية في مواكبتها لهذا العصر .

2) اكتساب نظرة نقدية صحيحة (ولو نسبيا) للتراث والانتاج الادبي ، وذلك يهدف الى :

أ) انقاذ ما هو ما زال صالحا من التراث واستعماله بطرق مرنة مع مراعاة عصرنا .

ب) تغذية تفكيرنا بما يمكن ان يكون صالحا لنا من الانتاج الاجنبي بكل حذر .

3) مزج الادب بالفن بعد الاستفادة من فنيات مختلف الفنون وادماج العلوم الانسانية وربما بعض العلوم الصحيحة في صلب الادب بكل ما في ذلك من نظريات وتطبيقات .

4) التسلح بالوعي التاريخي الذي يشمل مفاهيم المعاصرة والتقدم والاختيارات المصيرية الكبرى وربط عرى الزمان والحرية .

5) التشبع بالروح العلمية وخصوصا في مجال النقد ٠

6) العمل على ربط الاتصال الوثيق مع الشعب وبالخصوص مع المستويات الكادحة ٠ تلك هي أسس الادب التجريبي في رأيي ٠

واني أؤكد بهذه المناسبة ان هذه الاسس ليست متحجرة وهي ليست كذلك برنامج عمل أو مواد طبخ لكل من يروم الكتابة والتحبير ٠ ذلك ان الخيال والموهبة والطلب والتحمل والمسؤولية تقوم بادوار فعالة في الادب التجريبي ٠

* * *

الغـــايـــات

ان الغاية الاولى والاخيرة التي يهدف اليها الادب التجريبي هو التطبيق ٠ واعني بالتطبيق عملية الكتابة التي يقوم بها الكاتب عند استقامة النظريات عنده وفي اثناء اقتناص اللحظة الموحية لديه بعد ان دعم نظرياته بافتراضات٠٠

من ذلك انه يفترض مشكلا معينا في الادب أو في الفن أو في المجتمع أو في أي مجال من مجالات الحياة والمعرفة،فيدرس هذا المشكل دراسة معمقة الى اقصى حد من الدراسة والاستقصاء وبكامل التجرد ، كالعامل في عمله التطبيقي أي بدون اعتبار للمقدسات والمحظورات الاخلاقية والاجتماعية والسياسية ٠ فيعالجه بأدوات أدبية أو فنية مختلفة ، ويصطفي الاسلوب الملائم لذلك ، ويعرضه اخيرا بطريقة سؤال يطرح على القارىء ٠ ويمكن للكاتب بعد نشر عمله ان يستخلص النتائج بقطع النظر عن النجاح والاخفاق كما يمكن له ان يعيد الكرة ويطرح المشكل من زوايا اخرى ٠

ومن الغايات ايضا اعتمادا على عملية النشر القيام بتطوير النظريات الجمالية وبمحو ما فسد منها ، وبالاحتفاظ بما هو ما زال يصلح منها ، وبما يمكن له ان يكون خميرة لعمل تجريبي قادم سواء بالنسبة لصاحب التجريب أو لغيره من الكتاب إذ الادب ملك مشاع بين كافة المنتجين ٠

ومن الغايات ثالثا تطوير العربية تطويرا جذريا حاسما ، وتعصير الادب حتى يكون ناطقا باسم العصر والتقدم ، وربط الحوار مع الجمهور وتشريكه ـ ان امكن ـ في العمل الادبي ٠

ومن الغايات رابعا تظافر الجهود بين كافة المنتجين وتناصر الكفاءات الادبية والفنية من مختلف الاتجاهات المذهبية والعقائدية ، حتى تشعر هذه الكفاءات

وتلك الجهود بانها قوة فكرية تستطيع ان تعتمد على نفسها وأن تعول على تفكيرها وأن تستند الى تاريخها والى مستقبلها وهذا من شأنه ان يرفع كابوس القيادات الفكرية الاجنبية المهيمنة على جل الادب التونسي الحديث وان يشق طريقه بين الآداب العالمية الاخرى حتى يفوز في نهاية الامر – مهما طالت المدة – بالادب الكامل .

(*) الفكر س 15 ع 3 ص 24 سنة 1969

ربع قرن من صمود « الفكر »

تحت هذا العنوان نشرت مجلة : العلم والتعليم في عددها 46 من السنة 6 ما يلي :

في العاشر من أكتوبر 1980 تحتفل مجلة الفكر التي أسسها الاستاذ محمد مزالي ، بمرور خمس وعشرين سنة على تاسيسها .. عرفت خلالها الصعاب ، وتخطت فيها العراقيل .. فكانت مدرسة حرة ، بالمعنى الصحيح للحرية.. تعطي دروس التربية .. وتقدم تجارب الفكر ، وترسم اتجاه الحركة والالتزام .. اذ سلكت طريق الاتزان في الممارسة ، وتحركت حسب مبدأ التوازن في التفكير.. دون انحراف الى تطرف اليمين أو اليسار ... أصالة في غير تحجر ، وتفتح من دون تفسخ وانبتات ... وطنية في غير تقوقع وانزواء ، وقومية ترفض التبعية والاحتواء .. يتناغم في جميعها الفكر مع الواقع ، ويتجاوب فيها العقل مع التجربة ... فتحت قلبها للتافه والقدير .. وللاصيل والهجين .. حسب مبدأ البقاء للاصلح والانتشار للاصوب ... فكانت بوتقة لتفاعل مختلف الاتجاهات الفكرية والثقافية ، دون أن تخشى من حرارة التفاعل ، أو من ضغط الانفجار... لقد نادت بالتونسة من منظور وطني ، ودعت للتعريب من منظور قومي .. اذ لا قومية صادقة عندها بدون وطنية مخلصة ...

وجاء احتفالها بربع قرن من مسيرتها النضالية في مناخ وطني تغمره راحة النفس والضمير ، واطمئنان القلب والفؤاد .. لعزيمة التقييم والتقويم .. وارادة التغيير والتطوير والتثوير ...

فتحية لمن يطلق الشعار ويمارسه ، ولمن ينادي بالقيم ويطبقها .. ويعمل لتحقيق وحدة الفعل لا وحدة الانفعال ...

مناخ وطني متاثر برصاص القلم الذي يصنع التاريخ ، ومبتهج بسياسة مؤسس الفكر الذي يتحرك على مسار هذا التاريخ ... مناخ لم يعد فيه مجال للتفرج والقعود .. أو للتردد والجمود .. أو للانانية والجحود ...

ا . ش

كلمة للتاريخ

بقلم: ثمانية طلبة من كلية الآداب

« وأحق الناس اضطلاعا بالنقد أهل الذوق الخالص من الاهواء ، وأهل المعرفة بفلسفة النقد ، لأن نقد الناس بلاء عظيم » ٠
المنجي الشملي (الفكر – جانفي 1967)

1 – تكسرت طواحين الريح وسكتت محركات البخار كما غرقت سفن الصحراء وفلت رماح الغزاة والفاتحين ··· صدىء التاج واهترأ النطع ومات السياف ··· مات من أعدموا ڤاليلاي وكفروا الحداد ٠ مر على الاسلام أربعة عشر قرنا فهيهات أن يزعزعه طارىء أو يخلخله عارض ··· حكم بالنفى على النقد الارتجالى الفضفاض وعلى لغته العقربية الجائرة ، وعلى طرق الوعظ والارشاد ، وعلى الحشو ، دخل ذلك الادب المنبرى المقعد (بتشديد العين وفتحها) متاحف التاريخ ، وهجر الناس الزوايا المظلمة وخرجوا بكلماتهم الى الشوارع ، الى الهواء تتنفس ملء رئاتها ، تطرق كل اذن وتلج كل دار ···

رفع الحجاب عن المرأة ويرفع اليوم عن الادب مع هذا الجيل المستقبلى الجديد بعد أن تفجرت المعارف وتطورت البحوث وأقبل الناس على الحوار الواضح المجدى ··· إنه عصر الجمل المقيدة والكلمات المسؤولة والايجاز القاهر ، عصر الانسان الذى يخطىء ويصيب ، يخيب وينجح ، يكذب ويصدق ، يمشى مع الناس فى الشوارع والاسواق ، يتشهى الجمال ، يكسل أو ينشط ككل واحد منهم يحمل فى نفسه متناقضات الوجود ··· عصر الانسان المثقف المتفتح يحاول ان يفهم ، أن يعى ، عصر العلوم الانسانية المتحاضنة يفيد منها النقد الادبى ايما إفادة ، عصر الآداب فى التقائها الثرى مع الفنون والعلوم والاكتشافات ٠ فاذا ما بحثت فى القصة الطليعية الحديثة وجدتها لم تعد تخضع « لقواعد العقل والمنطق ، بل أصبحت صورة للحياة المتفككة المتفتتة وخرجت فى شكل وعاء يضم كل المتناقضات التى تجعل الحياة كومة من الاخلاط العجيبة ، وكان الانسان ينظر الى الحياة لأول مرة ، وكأنها لغز ··· » (« لن القصة القصيرة » للدكتور رشاد رشدى) ووجدتها تتفاعل مع الفنون الجميلة فتأخذ عن الرسم ، وتأخذ عن الموسيقى ، والسينما وغيرها ٠

واذا نظرت فى الشعر القيادى الجديد ألفيته أيضا صورة أخرى ، وكلمة

(*) الفكر س 14 ع 5 ص 75 سنة 1969

أخرى وإيقاعا آخر ٠٠٠ وكل شيء من حولنا ـ في دنيا الفكر ـ يتطور ويتقدم بصفة عجيبة ٠

2 ـ إن للقارىء البسيط أن ينزعج ويثور مثلا على عز الدين المدني في قصته « الانسان الصفر » (الفكر ـ عدد ديسمبر 1968) التي تندرج تحت ما يسمى حديثا بالادب التجريبي ٠ ولكن موقفك منها أنت كناقد أدبي ـ يا أخي ـ في هذه اللحظة الحضارية بالذات لا يمكن أن يقوم على ظاهر ما ورد فيها من لغة عربية « مكسرة » وقرآن عربي « محرف » ٠ بل إنك إزاء تجربة فنية لك أن تتفه صاحبها وتسخفه وتكفره وتسرقه ، حتى تفرغ كل مخزونك اللغوي المخجل ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟٠٠٠ هل أفدت النقد في شيء ؟ هل تقدمت بالقضية ملمترا واحدا ؟ لك أن تقول ما تشاء ولكن عليك قبله أن تكون صاحب ثقافة مزدوجة عميقة ، وفكر متفتح رحب ، ونفس متحضرة تأبى كلمة السوء ، حتى يمكنك أن تفهم دلالة التجربة ومحورها ، وتبحث عن روافدها ـ لعلك تجد ما يبرر اتهامك لصاحبها ـ ثم تحللها وتنقدها كأثر أدبي بحت ـ كان عليك أن تحكم داخل النص لا خارجه وأن تحاول فهمه قبل مصادمته ، أن تكفره إن شئت دينيا،وأن تعود فتخضع لبوس الادب والفن وتقبل عليه كما كنت تقبل على سائر النصوص ، يحدوك صادق العزم على استجلائه واستشراف أبعاده ٠ وإن في حضارتنا وتاريخنا ما يحتاج الى إعادة النظر ، فلا بأس أن يراجع المفكر الكفء في هذا العصر وفي كل عصر جهاز لغته ودينه ، وشؤون تاريخه ومصيره ٠ هذا ما نعتقده ونؤمن به :

الطاهر الهمامي
إبراهيم بن مراد
محمد الحبيب الزناد
المنصف الوهايبي
محمد باردي
ابن الوادي (حسين الواد)
محمد السويسي
نور الدين بلقاسم

طلبة بكلية الآداب
تونس في جانفي 1969

حول مفهوم "الأدب مأساة أو لا يكون"

بقلم : محمود المسعدي

سيداتي ، سادتي ، (*)

بكامل التأثر اتناول الكلمة بين أيديكم الكريمة . فانه حقا لداع من دواعي الشرف والغبطة والاعتزاز ولكنه في نفس الوقت رهيب بل جد رهيب ، هذا الموقف الذي أقفه في هذا الحفل المشهود وأمام هذا الملأ العظيم من رجالات السلطان والفكر والادب والعلم . وكيف لا يكون موقفي رهيبا امام ما غمرتموني به جميعا من كريم الاحتفاء ـ حضورا ومدحا واطراء ـ حين أشعر بان لساني ـ ولو استعان بكل وسائل البلاغة والبيان ـ عاجز عن ايفاء فضلكم حق قدره من الشكر والامتنان كما سبق له ان عجز امام فخامة الرئيس المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة عن ايفائه حقه من الثناء والحمد على ما أولاني من شرف أسنى . على ان فيما قد يبدو لكم من تأثري العميق لخير دليل على ما يملأ النفس من مشاعر العرفان بالجميل نحوكم وعواطف الخجل والتواضع أمامكم . التواضع بل محاسبة النفس حتى لا يورثها المدح غرورا ولا التكريم زهوا .

على أنه ليس من باب التواضع ولا محاسبة النفس شكلا بل من الحقيقة المركزة في قرارة الضمير اني لم أشعر قط أمس ولا أشعر اليوم ان لي فضلا خاصا استحق من اجله فائق التكريم وسني الجزاء . وانما هو أني حرصت طول حياتي وفي كل مآتي وتصرفاتي على تمحيص الواجب الذي يجب علي ان أقيم عليه نشاطاتي ومساعي وأعمالي ، وان أضفي به الكرامة والاصالة على حياتي . وكما قلت في كلمة الشكر التي ألقيتها على مسامع المجاهد الاكبر يوم شرفني بتوسيمي ومجازاتي فهل هناك شيء هو اروح على الانسان او

(*) هذا نص الكلمة التي ألقاها الاستاذ محمود المسعدي في الحفل الذي أقيم له بمناسبة احرازه على الجائزة التقديرية للرئيس بورقيبة ردا على كلمة وزير الاعلام والشؤون الثقافية وذلك يوم 19 سبتمبر 1980 وقد أحببنا ايراد هذه الكلمة في هذا العدد لما تتضمنه من توضيح لمفهوم الادب عند أديبنا الكبير .

ادعى لشرف النفس وطمأنينة الضمير من القيام بالواجب . اعنى الواجب الخالص الجوهر الذى لا يؤمر به الانسان ولا يملى عليه من الخارج بل الذى يستنبطه صاحبه من صميم أعماقه ويفرزه من حى احشائه ويصوغ منه معدن حياته .

وعلى هذا الوجه وفى هذا المعنى - كما تفضلتم بالتذكير به فى كلمتكم اللطيفة حضرة الاخ الكريم - كان اسهامى المتواضع فى الحقل الوطنى اولا كمناضل دستورى ومسؤول نقابى وفى الحقل التربوى ثانيا كاستاذ حرص على تعليم الشباب الشعور بكرامته وبشرف اصله واصالة ثقافته وعزة وطنه وانسانية حضارته حتى يعيش حرا معتزا بذاتيته ثم فى الحقل الثقافى والادبى ثالثا بما كتبت من مقالات وما جاهدت من جهاد فى الدفاع عن الذاتية الثقافية القومية وما ألفت من كتب حماتها خير ما محصته وآمنت به من مؤصلات الكيان ومركزات روح البطولة ومعنى المسؤولية فى صلب مغامرة الوجود .

تلك هى الصيغ التى صغت على قدها حياتى الادبية والفكرية والسياسية والاجتماعية دون ان أفرق لحظة واحدة بين الادب والفكر والخيال والعمل لانها جميعا عندى ظواهر مؤتلفة متلازمة من المسؤولية الوجودية .

واذ قد خص الاديب فى شخصى المتواضع بعناية خاصة وحفاوة ممتازة فلتسمحوا لى - ايها السادة الفضلاء - بان اعرج بكم الى حد ما على بعض التساؤلات حول الادب والاديب ووظيفة هذا ومفهوم ذاك ، وهو الموضوع الواسع الارجاء الذى تعلمون جميعا انى حمت حوله وقلبت فيه التفكير على وجوهه منذ العهد الذى كتبت فيه سنة 1945 فى مجلة « المباحث » : « الادب مأساة أو لا يكون ، مأساة الانسان يتردد بين الالوهية والحيوانية ، وتزف به فى اودية الوجود عواصف الم العجز والشعور بالعجز : امام الفضاء امام الموت امام الحياة امام الغيب . أمام الالهة . امام نفسه ... » - من ذلك العهد الى السنوات الاخيرة وما حررت فيها من مقالات ومحاضرات عالجت بها مفهوم الادب ومضمونه ورسالة الاديب ومسؤوليته محاولا فى كل ذلك التوسع والتعمق فى التحليل والتدقيق .

ومما استسمحكم فى التذكير به فى هذا الصدد انى فى مؤتمر ادباء العرب بليبيا سنة 1977 كنت قلت فيما قلت ان الاديب ينبغى له أن يكون المرآة الصادقة لجماع قصة الانسان وخلاصة مغامرته وتجربته للكيان وزبدة ما

يستنبطه من أعمق اعماقه من أجوبة عن حيرته وتساؤلاته ، اى ان يكون رسالة الانسان الى الانسان .

بل قل جازما ان الادب سبيل الانسان الى انسانيته وان وظيفته الاساسية تمحيص المنزلة البشرية وتوضيح رسالة الانسان فى الكون وتحليل معنى الحياة وما ينبغي ان تنصف به لتكون جديرة بان يحياها الانسان ويضطلع بها عن وعى واعتزاز .

وعلى هذا الوجه يصح ان ينعت الادب ـ كما كتبت فى مقال نشر بجريدة الصباح سنة 1951 ـ بانه بلوى ذاتية لا يعرفها حق المعرفة الا الذين عرضوا انفسهم لكل بلية باطنة وكل معضلة دخيلة ودوت التجربة فى افئدتهم بجميع اصداء الكون والكينونة والصيرورة والفساد فهم ينشئون الكيان والانسان انشاء . وجماع ذلك ان الانسان ـ دون سائر المخلوقات ـ كائن مسؤول لان الله قد وهبه امكانيات معينة هو حر فى تحقيقها او عدم تحقيقها فهو على كل حال خالق لمصيره بيده خلقا حرا نابعا من قرارة الذات الحية وارادتها . وتلك خاصية الذاتية الانسانية ، التى أشرت اليها بقولى فى مقدمة «حدث ابو هريرة قال » « وان كل كيان لجهد وكسب منحوت » .

لكن هناك أمر أريد ان أتساءل فيه بين أيديكم ـ ولا أنسى انى كتبت من اقدم القدم : كان السؤال لزوم ما لا يلزم فى كيان الانسان وقلت فى تقديم كتابى الاخير « تاصيلا لكيان » انه مجموعة كتابات توالت وتباعدت فى الزمن العديد وتقاطعت متصلة فى امتداد سؤال واحد لا يزال ينشد جوابه : من أنا ؟ وممن أنا ؟ وأين السبيل منى الى او منى اليك ؟ فمنى الى الكون او الى ما وراء الباب الذى وراءه العدم » . أريد ان أتساءل بين ايديكم : اذا كان مما قد يسلم به ان الآداب فى جوهرها من نفحات الانسانية فى معناها الاعمق والاشمل والاقدم فهلا يكون من الزهو او من الخطاء ان يدعى الادب انه معدن انسانية الانسان او الآداب انها تستحق ما نعتها به بعض فحول الحضارة من الامم حين سمتها « بالانسانيات » Les Humanités ؟ اليست الحقيقة أن أقصى ما يمكن ان يطمع فيه الادب هو ان يصلح لتدريب الانسان الناشىء على ان يكون ولاعطائه على ألسنة عباقرة الشعراء والكتاب والمفكرين الناشىء صيغا ومثلا ونماذج قد يقتدى بها او يهتدى بهديها فى مسيرته نحو تحقيق انسانيته واضطلاعه بمغامرته الوجودية ونحت كيانه الانسانى . ثم اليس الواقع الذى لا ينكر من ناحية أخرى ان مثل التدريب ومثل هذه الفائدة

التى يفيدها الادب فى تكوين الانسان يحد من مفعولهما وصلاح أثرهما أمران .

اولهما ان منطلق مأساة الانسان البطولية انه محكوم عليه حتما ان يبتدىء حياته من صفر وان ينطلق من الفطرة الساذجة خالى الوفاض من كل زاد موروث ليبنى كيانه جهدا بالتدرب والسعى الدائب حتى يكتسب ويستبطن أقصى ما يمكنه مما كسبته الانسانية عصرا بعد عصر وحضارة بعد حضارة من مكاسب الثقافة رفتوحات العقل والشعور وطاقات العمل والخلق . وليس للانسان من سبيل لتحقيق منزلته الوجودية غير هذه الافرازات التى يفرزها من نفسه فى خلجاتها المأسوية .

اما الامر الثانى الذى ينبغى ان يتجنبه الادب فهو ان يزاغ بطاقته التكوينية نحو وظيفة تعليمية فيخرجه ذلك عن طبعه الانشائى الخلاق الى دور التلقين والارشاد ويجعل منه على هذا الوجه اداة ابطال او تعطيل للذات او عائقا عن اصالة الكيان ويميل به الى شبه تكييف للذات بحسب نموذج او نمط من الكيان مقلدا او ممسوخ بينما الادب الحق ينبغى له أن يكون خادم الحرية والبطولة فى آفاق المغامرة الوجودية وداعيا لاستنباط الذات البشرية كجوهر فرد فى كنف المسؤولية الحرة الخلاقة .

وان أخشى ما أخشاه على ادبى خاصة وكل ادب اصيل بصفة عامة ان يناله من سوء الفهم مثل هذا الصرف له عن ماهيته الانشائية الى الوظيفة التعليمية والفائدة التلقينية .

تلك هى ـ ايها السادة والسيدات ـ زوايا الرؤية العامة التى حاولت ان اضطلع على ضوئها بمسؤوليتى الوجودية الشاملة جامعا فيها بين الادب والثقافة والسياسة والحياة قولا وفعلا بصلة جذرية جدلية احمد الله تعالى على أن وقاها من آفة التنافر والنشاز راجيا ان لا يطلب طالب من ادبى تعليما ولا تلقينا وان لا يجد باحث فيه غير الدعوة الى خلق كيانه بيده فى حرية ومسؤولية متمنيا فى الاخر ان لا يكون لدى غيرى الا صورة من وسائل التوليد للانسان وقصة صادقة لما تدربت به شخصيا على ان أكون .

واسمحوا لى فى الختام ان اجدد التعبير عن شكرى الجزيل لكم وثنائى الفائق عليكم لما حفيتمونى به من فضل التكريم والاحتفاء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأدب ملحمة

بقلم : محمد مزالي

ليس القول بأن الأدب مأساة (*) ، نابعا فحسب من نظرة تشاؤمية الى الكون ، وسوء ظن بامكانيات الانسان فى الخلق والتأثير على الواقع ، بل انه ، فى آخر الأمر ، نفى لحرية البشر ، واقرار لتفاهتهم ، وبالتابع اعتماد على روح الاتكال والاستسلام أو ترنم بنغمة التشاكي والتباكي والتوسل .

واذا اقتضى الأدب مناخا من الحرية ، بدونه لا يكون أدب ولا أدباء ! ـ وجب ألا يفهم بذلك حرية التفكير والتعبير فقط ، بل ، وقبل كل شيء ، الحرية أزاء الأشياء وهى التى لا يمكن السيطرة عليها فالتأثير فيها الا بعد معرفة نواميسها وكشف أسرارها ، وكذلك الحرية ازاء النفس بالخصوص ، النفس وما فطرت عليه ـ أو ألهمت اياه ـ من فجور وتقوى وضعف وقوة أو شر وخير .

والحرية ، كالذكاء والثقافة والفضيلة والعظمة ...، ليست هبة ولا فطرة ولا حظا ، انها كسب متزايد ، وغزو متواصل ، وكفاح لا يني ؛ الأديب الحق يطلب ـ أول ما يطلب ـ الحرية ويتفانى فى ممارستها ، ويجاهد للابقاء عليها والزيادة فى حظه منها .

ان الأديب يجاهد أهواءه ويروض نفسه ليكون حرا ازاء نفسه ، والأديب يغالب المادة ويواجه العبث ، ليكون خليفة الله فى الأرض ، ويريد كي يستجيب له القدر ! والأديب يتحدى الموت بروائع فنه وطرائف ابتكاراته فيزول الجانب الفاني منه أما فنه وآراؤه ورسالته فهى نور يضيء دائما رغم السحب والعواصف ، وهى حية لا تموت .

الادب فن ، والفن لا يفرض فرضا ولكنه لا يكتسب أيضا . انه كريح الصبا يهب هبوبا فيتهيأ لاستنشاقه كل ذى نفس كبيرة وحساسية مرهفة .

(*) الفكر س 14 ع 10 ص 1 سنة 1969

الادب يعمل عمله ويؤثر فى حياة الانسان ويساهم فى تبديل نفسيته وتطوير قيمه العليا وتغيير نظرته للوجود .

الأدب لا يتوسل للتمتع بالحرية لأنه فى جوهره حرية واختيار .

الادب يعزز سلطان الحرية فى كل نفس تتذوقه وتتفتح لروعته ، انه تلقيح يقى من تبعات العجز والنقائص والخوف والجبروت بكل ألوانه ، وهو تجاوز للفناء .

الأدب ملحمة لأن وظيفته الفعل ، ولأنه تعبير صادق ورائع عن كفاح الانسان من أجل السيطرة على نفسه والرفع من منزلته ، وصراعه الدائم فى سبيل حياة أفضل .

فليذكر أدباؤنا الشبان كل ذلك وليكونوا من ذوى البأس والقوة واعين لمسؤليتهم معتمدين على أنفسهم متمسكين بحريتهم ، انهم سيكونون ما يريدون أن يكونوا .

محمد مزالي

- الفن داء يتداوى منه به (*) .
- **دعنى أتشرب الموسيقى غيثا يتخلل مسام الكيان كله !**
- الموسيقى كالحب ، كالايمان بين أنت فى ذروة يقينه وفيض خصبه وتألق نوره اذا أنت تنحط فجأة حيرة وانكارا .
- كل ساعة تمضى من العمر ، كل لحظة غنيمة حاصلة تنتزع من القدر انتزاعا .
- بك مثل الزكام ومهما تفعل فلن تذوق شذى الطبيعة !
- ما رأيت رفيقين أجفى أحدهما للآخر كنفس وصاحبها .
- رب حال من الجدب المزمن ليست أهون عند الاديب من الخصاء .
- فلان لا يسيغ النكتة ولا يذوق الدعابة . انه مشبع بذاته حتى التخمة .

البشير المجدوب

(*) الفكر س 15 ع 3 ص 43 سنة 1969 .

توصيات في خدمة الأدب التونسي

ان المشاركين فى ملتقى الادب التونسى (*) : منزلته ودوره فى التعليم والثقافة الذى نظمه ـ بنزل افريقيا يوم الجمعة 12 نوفمبر 1976 ـ اتحاد الكتاب التونسيين ، وضم الى جانب أعضائه جمعا من المسؤولين عن حظوظ التربية والثقافة ، ادارة وتدريسا ، بعد استماعهم الى كلمة الافتتاح التى القاها السيد محمد مزالى رئيس الاتحاد ووزير التربية القومية وبعد عرض الوثيقة التى قدمها عن الاتحاد السيد البشير بن سلامة وبعد مناقشتها من قبل الحاضرين :

اولا : لاحظوا :

1) ان نصيب الأدب التونسي قديما وحديثا ما يزال رغم تزايد العناية به دون المكانة المرجوة له فى برامج التعليم والانشطة الثقافية المختلفة بحيث لا يؤدى دوره الوظيفى الطبيعى باعتباره من مقومات الشخصية التونسية .

2) ان الاديب التونسى لا يحتل المنزلة اللائقة التى تنبغى له فى مجتمع متطلع الى تدعيم الذات والتأصل فى بيئته العربية الاسلامية .

3) ان عدم تجسيم الاختيار اللغوى وبلورة الاتجاه الثقافى القومى فى مجال الادارة والتعليم والحياة اليومية عرقل الادب التونسى عن الانتشار والادباء التونسيين عن القيام بدورهم الطبيعى .

(*) الفكر س 22 عدد 9 ص 118 و 119 سنة 1977

4) ان وسـائل النشر والتوزيـع المتوفرة حاليا لا تتناسـب مع الانتـاج الفكرى والادبى الغزير ولا ترضى الرغبة فى ابراز هذا الانتاج فى الداخـل والخارج رغم المجهودات المبذولة .

ثانيا : يوصـــون :

1) باحصاء الاثار الادبية التونسية المنشورة وطبع الدراسات والابحـاث والاطروحات المتعلقة بها بعد ترجمتها الى العربية عند الحاجة والعمل علـى نشر المخطوط من الانتاج الأدبى التونسى القديم والحديث .

2) بضبط سياسة واضحـة مـدروسة من شأنها ان تجعل للأدب التونسى ورجاله منزلـة مرموقة فى المجتمع ودورا وظيفيـا بهما يساهم فـى النهضـة الشاملة التى يخوضها الشعب التونسى فـى جميع المجالات السياسية منهـا والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

3) بمراجعة برامج التعليم ومتمماتها فى مختلف مراحل الدراسة باعتماد الادب التونسى بصورة تضمن تأصيل التلميذ والطالب فى بيئته ضمن اطارها الحضارى التونسى العربى الاسلامى مع ما يستوجب ذلك من رسكلة للاطـار التعليمـى .

4) بالمزيد من عقد الندوات وتنظيم الملتقيات الثقافية للتعريف بالادبـاء التونسيين وانتاجهم .

5) بالمزيد من الحصص الاذاعيـة والتلفزيـة المهتمـة بالأدب التونسـى خلقا وعرضا ودراسة ونقدا فى مختلف الميادين والفنون .

انه لا غرابة أن تتصدى ... المجتمعات « المستقرة » لتجابه الادب الحق (*) بالكبت حينا وبالتشويه والتنديد حينا آخر ، ولتكبـل الشباب الحى حتى لا يشق طريقا آخر تتطور به القيم وتنحو نحوا ديناميكيا لا يستقر به قرار من ألف القرار .

البشير بن سلامه

(*) الفكر س 18 ع 2 ص 1 سنة 1972

الجديد في الطباعة العربية

بقلم : البشير بن سلامة

لقد مرت ست سنوات على اهتمامي بموضوع الشكل وتقديم مقترح تقني لحل هذا المشكل (1) كما عرضت تفاصيل القضية في كتاب « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » (2) سنة 1971 وأعود اليوم الى هذا الموضوع لخطورته وللجديد الذي تبين لي في هذه الاشهر القليلة فاحببت أن أطلع القراء عليه وأشيعه بين الناس قصد الفائدة والافادة .

كنت أثرت سنة 1968 مسألة شكل الحروف وضرورتها وبينت التأثير السيء التي تسلطه الكتابة المنقوصة على الطفل التونسي والقراء وعلى الانتاج المطبوع بصفة عامة وكنت حرصت على اجراء تجارب في المخابر اللسانية لمعرفة الفرق بين تأثير الكتابة المشكولة وغير المشكولة نظرا الى تقدم العلم في هذا الباب . ولكن للأسف فقد مرت ست سنوات ولم أعرف أحدا في المغرب أو المشرق قام بهذه التجارب ، على الاقل حسب علمي . ويا حبذا لو يشير علي بعض من يطلع على هذه السطور بعمل من هذا القبيل نشر في كتاب أو مجلة أو نشرية ما . وعلى كل فاني ألوم نفسي قبل كل شيء على مثل هذا التقصير وإن لم أكن من الاختصاصيين في الموضوع .

وفي اعتقادي أن أهم ما كنت بينته في ذلك الوقت هو أن هناك صلة بين الكتابة المنقوصة أي الخالية من الشكل وبين ـ لا فقط المجهود الذي تقوم

---

(1) البشير بن سلامة ، في سبيل تيسير الطباعة العربية ، مجلة «الفكر» ، العدد 6 ، مارس 1968 ، ص·ص· 516 ، 524 ، تفاوت بين اكتمال اللغة وبدائية الكتابة ، مجلة « الفكر » ، العدد 10 ، جويلية 1968 ، ص·ص· 916 ، 930 .

(2) البشير بن سلامة ، اللغة العربية ومشاكل الكتابة ، الدار التونسية للنشر ، 1971 خاصة الفصلين الثالث والرابع .

به عين القارىء ـ بل نوع التفكير الذى تفرزه القراءة المنجرة عن الكتابة المنقوصة •

وقلت فى نفسى آنذاك ، لعله من باب إضاعة الوقت أن أصرف جهودى فى التدليل على أمر اتفق فيه شرقا وغربا جميع الناس المحتكين باللغة العربية وهو أهمية وضع الحركات فى « المطبوع » من الكلام • ولكن أهل العربية ، حتى الذين يؤمنون بالعامية منها ، عودونا ، فى مواطن عديدة من القضايا المصيرية ، بسلبياتهم ومتناقضاتهم ، أن يؤمنوا بأصغريهما **القلب واللسان** وينصرفوا عن الايمان بأكبريهما ألا وهو **الدماغ واليدان** • ولو تحمس للموضوع بعض المستشرقين لكانت لنا اليوم خطوط بيانية وإحصائيات تبين علميا فوائد الكتابة المشكولة ولكنهم اهتموا خاصة بتعداد نقائص الكتابة العربية وصعوبتها وضرورة تحويرها ومن هذا الباب دخل حلبة السباق مآت من المخترعين للحروف العربية الجديدة لتلافى صعوبة الطباعة بالحروف القديمة ومنهم الصادق ومنهم صاحب النية المبيتة •

على كل ، دخلت هذا الباب أنا أيضا ، وكنت من بين المائة الخامسة او السادسة من المخترعين وركزت مقترحى على ضرورة الشكل المطرد من دون استثناء وعلى وجوب شكل الجرائد والمجلات وكل مطبوع مهما كان • وعرضت اقتراحات ترمى الى ادخال تحوير على آلة السبك **بالمعدن السخن** وهى آنذاك أسرع آلة تطبع بها الجرائد العربية وهى اللينوتيب • واعتمدت فى هذا التحوير ألا أغير من صورة الكتابة العربية وأن أبقى على جمالها وإن كانت تبدو الحروف فى هذا المقترح ، وهى منفصلة ، مبتورة •

كل هذا لم يجد إلا الصدى القليل لأن الشعوب العربية شغلت كلها بقضاياها المصيرية الاخرى وخاصة قضيتها الاولى : القضية الفلسطينية ، إذ كل شعب عربى سواء فى المغرب أو المشرق أوجدت له الأقدار ـ لئلا أسرد قائمة النعوت الاخرى من امبريالية واستعمار جديد وانتهازية وغير ذلك ـ وفى الواقع أوجد لنفسه عن وعى أو غير وعى شغلا فى كيانه يصرفه عن قضاياه الحضارية ويجعله غير متحكم فى مصيره ، هشا ، عرضة لقبول ما يملى عليه من اطراف أخرى فى صورة التعاون والتبادل الثقافى وما لف لفه ، وفى شكل شعارات تلاك وتبدو فى أغلب الاحيان تقدمية

ولكن الغاية منها لا تعدو أن تكون إلا طمسا لنور الخلق ، وإحباطا لحرية الفكر ، وعرقلة للازدهار الحضارى الحقيقى •

لكن دعنا من كل هذا ولنبين الجديد فى هذا الميدان سواء فيما يخص :

- التجارب المخبرية المتعلقة بعلاقة الكتابة أو القراءة بالتفكير ·
- أو تقدم التقنيات المطبعية ·

علاقة القراءة بنوع التفكير

أردت أن أطلع القارىء على بعض التجارب التى قام بها البحاثون فيما يتعلق بالحروف اللاطينية فى انتظار القيام بتجارب مماثلة تعتمد الحروف العربية · ولقد اعتمدت فى هذا الباب عدة كتب أحوصل ما استخلصته منها من دون اللجوء الى استعمال المصطلحات العلمية الغامضة خاصة وأن الذى يهمنا هو الاستنتاجات الختامية (3) ومن دون تعداد الآلات التى استعملت فى هذا الباب ·

أول استنتاج هام هو أن هناك فرقا كبيرا بين القراءة الشفوية والقراءة المهموسة والقراءة بالعين إذ :

- فى القراءة الشفوية نحصل على 9.000 كلمة فى الساعة ·
- وفى القراءة المهموسة نحصل على 13.000 كلمة فى الساعة ·
- وفى القراءة بالعين نحصل على 20.000 إلى 60.000 كلمة فى الساعة ·

يقول القائل : وبعد هذا ما هى العلاقة بين سرعة القراءة وما نحصله من كلمات فى الساعة وبين العمليات الذهنية التى يقوم بها العقل ·

نعم لقد ثبت بالتجربة ـ وهذا لا مجال للقدح فيه ـ وحسب الاحصائيات انه توجد علاقة متبادلة بين :

- حاصل الذكاء عند القارىء	(Quotient intellectuel)
- وذاكرة القارىء الآنية	(Mémoire immédiate)
- وذاكرة القارىء القصيرة الأمد	(Mémoire à moyen terme)

(3) بعض هذه الكتب :

- Roland Barthes, Le Degré zéro de l'écriture, Paris, Gonthier, 1965
- François *Richaudleau*, La Lisibilité, Denoël, 1969
- Alberto Moravia : « Communication » in une chose est une chose : Flammarion 1969

أى بصورة أوضح فان ما تقوم بهٔ العين من عمليات بصرية عندما نحرك آلة القراءة فى الدماغ عندنا لا تتعلق بالهيكل النظرى البحت بـل هى من طبيعة ذهنية لا ترتبط بعوامل قوة البصر بل بعوامل لها عـلاقة بملكاتنـا الابلاغية سواء **العصبية** منهـا أو المتصلـة **بالذاكرة** أو **الذكاء** • وهكذا فان **الفهم** والطاقة على **الحفظ** مرتبطان **بسرعة** القراءة » •

وإذا كانت العلاقة متينة بين سرعة القراءة والملكات الذهنية للقارىء فان صورة الحروف لها دخل كبير فى هذه السرعة وعلى سبيل المثال يقول أحـد الاختصاصيين : « يجب النظر فى الاسباب التى تجعل العين اذا هى ألقت ببصرها على سطر من حروف « ڤرامون » (أحد مصممى الحروف اللاطينية التبوغرافية) تتخطاه من دون عراقيل وبسرعة ، منشغلة بالنص منصرفة عن الحروف بينما بالنسبة للعين الملقيـة بنظرهـا على سطـر من حـروف « ديـدو » (مصمم آخر للحروف) تسير ببطء وتسلط نوعـا من التفقد يشدها الى الحروف عوضا عن إطلاق العنان للفكر لينشغـل بالأفكـار التى تمثلها هذه الحروف » •

هذه التجارب تبين أنه حان الوقت لنقوم بشىء مماثل فيما يخص الكتابة العربية وأن نستنتج استنتاجات من هذا القبيل إذ أن ترقية اللغة العربية لا تكون حسب اعتقادى إلا بوجوب شكل المطبوع لنضمن لا **صحة القراءة** فقط وبالتالى **الفهم** وهى صعوبة غير موجودة بالنسبـة للحـروف اللاطينية بل **يسر القراءة أى سرعتها** بمعنى قدرة أكبر على التذكر وبالتالى على **الفهم** •

وفى انتظار ذلك فان التقنية الغربية فى مجال الطباعة قد كفتنا مـؤونة البحث عن طريقة تطبيقية لو فرضنا أن التجارب دلت على ضرورة شكل كل مطبوع من الجرائد والمجلات والكتب •

الجـديـد فـى التقنيـة المطبعيـة

كانت المطابع منذ سنوات قليلة تلجأ فى الكتب المدرسية المشكولة إما إلى شكل الحروف باليد على الأفلام لتطبع على طـريقة « أوفسيت » أو إلى آلـة مونوتيب التى تستعمل ما يقـرب من 300 عـلامة من الحـروف وتتـوخى مرحلتين : الرقن بالرموز على شريط من الورق ثم مـرور هذا الشريط فى

آلة من الرصاص المذاب لتخرج الحروف من رصاص مرصوفة على شكل أسطر . وهذه الطريقة تأخذ ضعف الوقت فى السبك وتقدر بضعف التكاليف .

ولهذا السبب وقع استنباط طرق كثيرة لاختصار الحروف العربية ومنها الطريقة التى قدمتها آنفا . ولكن كل هذه الطرق تجاوزها الزمان الآن لان عصر الألكترونيك قد أبعد عنا هذه الآفة التى تمكنت منا وهى : عوضا عن ان نخضع الآلة الى مشيئتنا والى متطلبات خصائصنا الذاتية ـ وعذرنا هو أننا لسنا نحن الذين نستنبط هذه الآلة ـ نغير أخص خصائصنا لنخضعها الى الآلة الى حد التشويه والمسخ . ومن حسن حظنا أن طريقة الالكترونيك قابلة لأن تستوعب كل الحروف فى طرفة عين ناهيك أن الاختصاصيين الغربيين المستعملين للحروف اللاطينية يرون أن :

« الألفباء المثالى الصالح لأصحاب نظريات الاعلام ، والبيداغوجيين وللقراء والآلات يتضمن عددا كبيرا من العلامات : بضعة مئات بدون شك على الاقل وبضعة آلاف على سبيل التقريب » .

وأكثر من هذا فاننا نجد من هؤلاء الاختصاصيين من يقول :

« من واجبنا أن نجزم فى مجال نقد ألفبائنا (أى الألفباء اللاطينى) وصرامته أنه ليس له أية ميزة خاصة وغير قابل للتحسين . فعلى صعيد النجاعة نجد أن التكرار فى هذا الألفباء كبير جدا وعلى الصعيد الجمالى فان صورة حروفنا ليست كاملة بينما صورة الحروف العربية والصينية واليابانية أكمل » .

كل هذا لأجزم أنا أيضا أنه مضى الوقت الذى كنا نركز فيه جهودنا على تعداد نقائص الحروف العربية وكثرتها وغير ذلك من الشنشنات القديمة لا لشىء لأن عهد **السبك بالمعدن السخن** قد زال ورائحة بخار الرصاص المتصاعد من آلات اللينوتيب يجب أن ينقضى بدون رجعة . وحل محل كل هذا **السبك بالصورة** (Photo-composition) .

هذه الآلة الجديدة الباهضة الثمن حقا ـ ورغم ذلك فان بعض مطابعنا

جهزت بها ـ ستوفر أيضا شكل الحروف بسرعة مدهشة . إذ أنها عندما توضع في المسالك التجارية ستمكن مثلا من طبع جريدة العمل مشكولة في وقت أقل بكثير مما تطبع به اليوم وهي غير مشكولة معتمدة في ذلك على لوحة مفاتيح (Clavier) لا يتعدى عدد الحروف الهجائية في صورة واحدة مع زيادة حروف الضبط والشكل والأرقام والوقف وللدماغ الألكتروني وحده البحث في طرفة عين عن مكان الحرف هل هو متوسط أو نهائي أو غير ذلك .

وكل ضربات الراقن تسجل على شريط من الورق بالرموز يؤخذ ويوضع في آلة أخرى فتترجمه بالحروف على فيلم ، وفي الامكان اصلاح الفيلم على آلة أخرى بسرعة مدهشة . ثم القيام بالعملية الاخرى على طريقة أوفسيت . كل هذه العمليات بالحروف المشكولة تنجز بسرعة أكبر مما لو اعتمدنا طريقة السبك بالمعدن السخن بحروف غير مشكولة .

لهذا ما علينا الآن وقد زالت الموانع التقنية إلا أن نضبط التكاليف ونجهز مطابعنا شيئا فشيئا بهذه الآلات لنصل في يوم من الايام الى فرض الشكل في كل مطبوع وهذا ليس بعسير على كل أمة حية تنشد التقدم والازدهار لأبنائها .

الخلاصة :

ان الذي ينتظرنا الان عملان إثنان :

أولا : الشروع في التجارب لمعرفة الفرق بين العمليات الذهنية التي نقوم بها عند قراءة نص مشكول ونص غير مشكول . وهذا قصد الاقتناع اقتناعا تاما بضرورة اقحام الشكل في كل ما يطبع .

ثانيا : معرفة تكاليف هذه الآلة الجديدة لضبط مراحل التطبيق وايجاد الوسائل الكفيلة بانجاح هذا المشروع لا من حيث التجهيز الآلي فقط بل البشري أيضا من فنيين وأساتذة قادرين على شكل المخطوطات واصلاحها .

هذا ما يجب علينا القيام به بالنسبة الى لغتنا القومية وبالنسبة الى ما نريده للجماهير من ثقافة حية ميسرة والا تبقى العلوم وكل مآثر العصر سطحية في اذهان الناس . خاصة وانه تبين ان كل ما يعرض عن طريق الوسائل السمعية البصرية إنما هو سهل الاستهلاك ولكنه لا يفترض المجهود في التفكير الذي هو وحده القادر على ترقية الاذهان ودفعها الى التعمق وليس كالمقروء بالعين احفز على التدبر والتحليل وصقل آلة التفكير ولو كان على شاشة التلفزة .

نحو تطوير القصة التونسية

في الصفحات الموالية جمعنا نصوصا انشائية ونقدية تخص القصة التونسية . وكان من واجبنا ان نورد نماذج لما نشره على صفحات «الفكر» كتاب القصة في تونس وهم كثيرون منهم مثلا: مصطفى الفارسي ، محمد العروسي المطوي ، محمد رشاد الحمزاوي ، البشير بن سلامة ، محمد فرج الشاذلي ، فاطمة سليم ، ابراهيم بن مراد ، رشيد الغالي ، زهرة الجلاصي ، الطاهر قيقه ، عبد القادر بلحاج نصر ، حسن نصر ، حياة بن الشيخ ، محمود التونسي ، محمود طرشونة ، عبد الواحد ابراهم ، محسن بن ضياف ، نعيمة الصيد . ولكن المجال يضيق هنا لتحقيق هذه الرغبة فآثارنا اطلاع القارىء على بعض العناوين القصصية التي اثارت ضجة سواء في تونس او خارجها او بعض النماذج القصصية الطريفة .

فاوردنا ما أثارته رواية السد لمحمود المسعدي من تعاليق بين طه حسين والمسعدي » لمحمد فرج الشاذلي و « أصداء تونسية » لطه حسين وكذلك نشرنا المقدمة التي صدر بها محمد مزالي صاحب « الفكر » قصة افلاس للبشير خريف وتعليقا للمرحوم محمد فريد غازي حولها .

ويذكر القراء ايضا ما اثارته قصة « الانسان الصغير » لعز الدين المدني من تعاليق فاعطينا نموذجا منها مع نقد لها مكملين ذلك بمقال لعز الدين المدني حول استعمال الفضاء المسرحي في الديوان المسرحي . ونشرنا في هذا السياق لوحة قصصية للبشير بن سلامة (الفكر) .

بين طه حسين والمسعدي

بقلم : محمد فرج الشاذلي

سيدى مدير مجلة « الفكر »

لقد سبق للدكتور طه حسين أن نشر في جريدة « الجمهورية » الصادرة يوم 27 فبراير 1957 دراسة عن رواية «السد» لمحمود المسعدى حاول فيها حل غوامضها وفك أغلاقها وفهم أبعادها وتحليل المذهب الفلسفي الذى انبنت عليه ، ومناقشة كاتبها فى بعض مسالكه الفكرية والفلسفية ... ولقد كانت مجلة « الفكر » الغراء تفضلت فنقلت هذه الدراسة القيمة في عددها الثامن ـ ماى 1957 ، مشفوعة بتعليق رائع لمحمود المسعدى تعرض فيه لمفهوم الوجودية والالتزام وأماط فيه اللثام عن بطله « غيلان » الذى لم ير فى تجربته « تجربة الحياة الباطلة تؤول الى عبث مرير » ولا فى جهوده « جهود الحى لا تنطوى على حكمة ولا ترمى الى غاية » بل تسامى به ورأى أن « المأساة التى يصورهـا بحياته ونشاطه ليست مأساة « سيزيف » بل مأساة الحى تقتضيـه الحياة أن يحيا وينشط ويعمل وينشىء ويجهد فى دون فتور ولا وهن ولا تخاذل ولا يأس ولا جبن ولا احجام كأنه يعيش أبدا ، بالرغم عن أنه يحمل بين جنبيه يقين « المؤمن » بأن الحياة فانية وأنه لا بقاء الا لله ، وبأن قدرة الانسان ليست الا عجزا بالقياس الى قدرة الله »..

كذلك ألقى أضواء كاشفة على « ميمونة » هذه التى رأى أن ايمانها لا « يقل وضوحا على ايمان غيلان بأن الذات البشرية الفردية فانية

(*) الفكر س 18 ع 10 ص 4 سنة 1973

زائلة وأن قدرتها محدودة قاصرة » اذ هي « ترى ان الله اكبر واجل من ان يداني ، وان الايمان في اقتناع الحي بمنزلته وتقبلها عن رضى رضى واخلاص ... وفي « ألا يسلك الحي من الوجود ومن الكون طريق المعاندة والصراع » بل « طريق الطبع والاتفاق والمطابقة والاتحاد والوصال ورضى الكل بالكل » .

ولقد اطلع الدكتور طه حسين على تعليق الاستاذ المسعدي ، فما اقتنع ولا اطمأن ولا رضى بغير تأويله وتخريجه تأويلا وتخريجا .. فنشر في جريدة « الجمهورية » الصادرة يوم الاربعاء 29 / 5 / 1957 تحت عنوان « أصداء تونسية » تعليقا على تعليق صاحب « السد » عاد فيه الى بسط رأيه ، وتوضيح افكاره ومناقشة ما أثير من مختلف «القضايا» بما عودنا به من تعمق واتزان ..

ولقد كنت أمنى النفس بأن أرى مجلة « الفكر » تواصل نقلها لاطراف هذا « الحديث » الممتع .. ولكنها لم تفعل .. فلعله لم يصل اليها .. ولم تطلع عليه ! (*)

ومرت على ذلك سنوات فاذا الاستاذ الصديق نور الدين صمود يجمع في كتيب نشرته الدار التونسية للنشر كل ما انتهى اليه مما كتب حول « السد » .. ولكنه لم يهتد الى هذه « الحلقة المفقودة » من حوار المسعدي وطه حسين ، وكذلك لم يهتد اليها الاستاذ صالح الحاجة في تقديمه لكتاب نور الدين صمود (« الصباح » 3 ماي 1973 ص 3 » اذ هو لفت نظر الكاتب الى خلو الكتاب من « مقالة المرحوم محمد فريد غازي » المنشورة في مجلة « الشرق » ومقالة « الدكتور محمد عزيزة » المنشورة في مجلة « المسرح والسينما » (العدد الثالث - جويلية 1966) دون ان يشير الى « أصداء تونسية » للدكتور طه حسين .

ولذلك ، وحتى تعم الفائدة رأيت أن أوجه اليكم بمقال الدكتور طه حسين الذي كنت أطلعت عليه أستاذنا محمود المسعدي في الابان

والسلام

محمد فرج الشاذلي

(*) فعلا ، لم نتمكن من الاطلاع عليه ، (الفكر) .

أصداء تونسية

بقلم: د. طه حسين

منذ ثلاثة اشهر نشرت فى الجمهورية حديثا عن القصة التمثيلية الرائعة قصة « السد » التى كتبها الاديب التونسى البارع محمود المسعدى . وقلت فيما قلت عن هذه القصة النادرة : انها تصور تأثر كاتبها بالثقافة العربية الاسلامية من جهة وبالثقافة الفرنسية ومذهب الوجودية الحديثة من جهة اخرى. وقلت كذلك: ان كاتب القصة تأثر بمذهب الكاتب الفرنسى كامو وهو الذى يجعل حياة الانسان وجهاده وما يلقى من عناء وما يحتمل من مشقة وما يذلل من عقبات ويقهر من مصاعب يجعل ذلك كله بل يجعل الوجود عبثا من العبث لا يستطيع أن يكشف له حكمة تطمئن اليها أو غاية تقف عندها وانما الحياة والوجود عما أشبه شىء بأسطورة البطل اليونانى الذى صورته الاساطير وقد قضى عليه بعد موته أن يدفع أمامه صخرة ضخمة من الحضيض حتى يبلغ بها قمة جبل شاهق فاذا بلغ القمة وظن انه قد انتهى الى غايته رأى الصخرة تنحط الى مكانها فى الحضيض ورأى نفسه يدفعها أمامه ليبلغ القمة من جديد ثم يراها تنحط مرة أخرى الى مكانها فى الحضيض . وما يزال كذلك يدفع الصخرة ويرفعها الى القمة والصخرة تنحط وتحطه معها الى الحضيض آخر الابد ان كان للابد آخر .

ووصل هذا الحديث فى الجمهورية الى تونس وقرأه كاتب القصة الاديب فرضى عنه اكثر وضاق مع ذلك بما أضفت اليه من التأثر بمذهب ذلك الكاتب الفرنسى المعروف . ثم كتب مقالا ممتعا لا أقول ردا على الحديث الذى أمليته بل أقول تعليقا عليه وتوضيحا لبعض ما ظن انه خفى على من أمره وأمر قصته البارعة .

(*) الفكر س 18 ع 10 ص 6 سنة 1973

ولست فى حاجة الى أن أذكر انه تفضل مشكورا فرضى عما قدمت اليه والى قصته من ثناء كلاهما أهل له وأهل لاكثر منه ثم تفضل فأهدى الى من الشكر ما أغراه به أدبه الرفيع وطبعه السمح .

وليس المهم أن يتبادل كاتبان فنون التحية والثناء على بعد الامد المادى بين مصر وتونس وانما المهم شىء آخر هو أعظم من ذلك خطرا وأبلغ أثـرا لانـه يضيف الى الادب العربى مذهبا جديدا لم يحققه الادباء الشرقيون من قبله سواء منهم القدماء والمحدثون .

وأحب قبل أن أوضح هذا المذهب الجديد وأبين عن رأيى فيـه ان اسلـم للاستاذ المسعدى بما اراد فهو ينكر ان يكون قد تأثر بمذهب الكاتب الفرنسى فى كتابه « السد » ويقرر انه لم يقرأ كتابه عن أسطورة البطل اليونانى ذاك الا بعد أن كتب روايته ومضى عن ذلك وقت غير قصير ويضيف الى ذلك انه من الجائز أن يكون قد استقى هو والكاتب الفرنسى من ينبوع واحد وتواردت خواطرهما على آراء ان لم تكن واحدة فهى متشابهة . وعقول العظماء والافذاذ تلتقى كما يقول الفرنسيون ، فلا بأس على الاستاذ من أن يلقى « كامو » أو يلقاه كامو فى بعض الطريق . وله عندى خير ما يجب من الاعتراف له بأنه مبتكر لم يتأثر بذلك الكاتب ولا بغيره .

فكل ذلك أو بعض ذلك لن يغير من حقائق الامر شيئا . ذلك أن بطـل الاستاذ المسعدى غيلان مشبه أشد الشبه لبطل الكاتب الفرنسى كامو بطل الاسطورة اليونانية ان شاء . فذلك البطل اليونانى يبذل جهدا متصلا ضائعا لا سبيل الى ان يجد له الباحث تأويلا أو تعليلا . وبطل الاستاذ المسعـدى غيلان يبذل كذلك جهدا ضائعا وليست له حكمة وليس وراءه طائل لان صاحبه وغير صاحبه من الناس لا يظفر له بنتيجة ولا يجد له غاية ينتهى *اليها* ، هو يريد ان يروى الارض وأن يجمع الماء الذى يتدفق من ذلك الينبوع أو من تلك الينابيع فينشىء سدا لينظم استغلال هذا الماء فى رى الارض . ولكن الارض لا تريد أن ترتوى ولا ان تثمر لانها تؤثر الجدب وتستحب الظمأ على الـرى وتفضل العقم على الخصب وهى من أجل ذلك تدمر السد أو تغرى بتدميره كلما انتهى أو أشرف على أن ينتهى . فرى الارض هو بالقياس الى بطل الاستاذ المسعدى أشبه شـىء بقمة الجبل والسد الذى لا يرتفع بناؤه الا لينهار أشبـه شىء بالصخرة التى لا تبلغ القمة الا لتهوى الى الحضيض . وكل الفرق بين البطل العربى الذى ابتكره كاتبنا الاديب والبطل اليونانى الـذى ابتكـرته

الاسطورة واستعاره الكاتب الفرنسى هو ان البطل العربى حى يريد ان يوجد شيئا وان يبلغ به غاية فلا يوجد شيئا ولا ينتهى الى غاية والبطل اليونانى حى تعاقبه الالهة بهذا العناء المتصل الذى لا يغنى عنه قليلا ولا كثيرا ومن اجل هذا حرص الكاتب الفرنسى على ان يستعيره لمذهبه ليبين أن حياة الانسان عبث لا غاية لها ولا طائل منها .

والبطل العربى يكلف بالخيال وتحمله العاطفة وتحمل معه الخيال وتذهب بهما جميعا الى غير مذهب فهو اذن صائرالى العدم هو وخياله وسده ولا تبقى الا زوجته البائسة المذعنة والارض وجدبها الذى تحبه وتهواه .

وأنا بعد ذلك تارك للاستاذ بطله وللكاتب الفرنسى اسطورته اليونانية ومنتقل الى المذهب الجديد الذى أشرت اليه آنفا والذى لم يحققه أدباء العرب القدماء والمحدثون . ذلك ان الوجودية قد اسلمت على يد الاستـاذ المسعـدى كما تنصرت فى فرنسا على يد الكاتب الفرنسى المعروف جبريل مارسيل . وليس فى ذلك شىء من الغرابة فالفلسفة كلها قد كانت وثنية حين ابتكرها اليانانيون وسقراط وتلاميذه خاصة ثم تنصرت حين انتصرت المسيحية على وثنية العالم القديم أو العالم اليونانى الرومانى خاصة . وأسلمت بعد ذلـك حين أتم الله نوره وانتشر الاسلام فى الشرق والغرب .

ولا غرابة اذن فى ان تكون الوجودية ملحدة أولا ثم تتنصر ثم تسلم آخـر الامر . والاسلام آخر الديانات السماوية ونبيه صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين . والله وحده قادر على أن يهدى من يشاء ويضل من يشاء . وقد قال لنبيه انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء . وقد هدى اللـه الوجودية الى الاسلام فى هذه الايام على يد الاستاذ الاديب .

وان كنت اجادله فى بعض هذا المذهب فالاستاذ يريد ان يجعل بطله مسلما مؤمنا بالله واثقا بأن قوته مشتقة من قوة الله وان ذاته كما يقول ليست الا قبسا من الذات المطلقة التى هى ذات الله عز وجل . فهو اذا عمل وحرص على ان يوجد شيئا وعلى أن يكون مبتكرا خالقا ــ وان كنت اكره ان يضاف الخلق الى غير لله وحده ــ انما يسمو الى حيث ينبغى له ان يسمو بحكم ما ركب فى طبعه من هذا النور الالهى المطلق ولكن النور الالهى المطلق لم يطلب قط الى الانسان أن يكون معاندا الى اقصى غايات العناد مكابرا الى ابعد ما يمكن ان تبلغ المكابرة وانما يطلب اليه ان يكون عاقلا رشيدا يدبر امره فى أناة وحذر

وحكمة واحتياط لما يمكن ان يلقى من الخطوب لا يغامر ولا يقامر ولا يلقى بيده الى التهلكة ولا يرسل نفسه فى أثر الخيال على سجيتها وينتظر حتى تحمله العاصفة وتحمل معه خياله وتذهب بهما فى غير مذهب ويترك وراءه من كلف القيام عليه مثل هذه الزوج البائسة المطمئنة التى تحب العمل ولكنها تكره العناد .

واذا لم يكن بد من ان أفسر هذه الوجودية المسلمة فى مذهب الاستاذ المسعدى فانى افسرها له ولا بأس عليه من هذا التفسير فهو نفسه قد أنبأنا فى مقاله الممتع بان الشاعر الفرنسى بول فاليرى قد سمع قصيدة من قصائده تفسر فى السوربون فتحدث بعد ذلك بأن أستاذ السوربون قد أنباه بأشياء كانت فى قصيدته ولم يكن هو يعرف أن قد اشتملت قصيدته عليها . فليكن الاستاذ المسعدى بمنزلة ذلك الشاعر العظيم ولاكن أنا بمنزلة الاستاذ المتواضع لذى يدل الشعراء والادباء على ما وضعوا فى كلامهم عن غير ارادة له ولا علم به . أما تفسيرى لقصة الاستاذ المسعدى فيسير جدا وهو انه كتب قصته أيام الاستعمار الفرنسى الذى كان جاثما على تونس وعلى قلوب التونسيين وعقولهم يأخذ على وطنهم طرق العمل والانتاج كما يأخذ على وطنهم طرق النشاط والاسهام فى ترقية الحضارة كما تفعل الاوطان الحرة المستقلة . كتب قصته وهو يائس أو كاليائس يريد ان يشعر بوجوده وبانه شخص عاقل قوى يجب ان يؤثر فى الحياة كما يتأثر بها وان يخرج من هذا الاذعان الذى كان مفروضا عليه وأن يجاهد فى سبيل ذلك ما استطاع الى الجهاد سبيلا . يجاهد ويجاهد دون ان يحفل بما يصيبه من العناء والشقاء وما يعترضه من المصاعب والعقاب ... ويجاهد غير حافل بما يفرض عليه من الاخفاق فى أثر الاخفاق يقاوم اليأس مهما يعظم ومهما تكثر دواعيه ويرفض الاذعان مهما تكن فيه من راحة وخفض ونعيم ويأبى الاستسلام مهما تغريه بـه المغريات ولا عليه ان تحمله العاصفة هو وخياله لتذهب بهما فىغير مذهب فكل ما يمكن أن يتعرض له من الاذى والالم والموت احب اليه وأهون عليه من الاذعان ولو أوتى فيه ملء الارض ذهبا .

كتب قصته فى ذلك الطور من حياته وحياة نظرائه من مواطنيه وحياة وطنه كله . فكانت قصته مرآة للبطولة التونسية فى مقاومة الاستعمار الفرنسى وفى انتزاع الحياة الكريمة الحرة لنفسه ولوطنه ولمواطنيه جميعـا . واراد اللـه أن تكتب القصة قبل ان تنجلى غمرة الاستعمار عن الوطن التونسى حتى اذا انجلت رجع اليها الكاتب فلم ينكرها ولم تنكره لانها صورت طورا من اطوار

حياته ولونا من الوان جهاده وصورت ما كان يشيع فى تلك الحياة من ذلك الحزن القاتم الذى يوشك أن يبلغ اليأس ولكنه لا يبلغه لان العزم والامل كانا أقوى منه قوة وأشد منه بأسا .

هذا هو التفسير لقصة كاتبنا الاديب قد لا يجده هو فيما بينه وبين نفسه . وهو من اجل ذلك يتكلف تأويل قصته ليلائم بينها وبين الحياة التونسية الجديدة . وأحب أن يتأكد الكاتب انى لم أنخدع عن تأويله هذا المتكلف وأنا اتحداه وأطلب اليه أن يسعدنا بانشاء قصة تمثيلية جديدة يصور فيها الامل والعمل وازعم له ان هذه القصة الجديدة سيشرق فيها نور من الثقة التى لا تعرف اليأس ولا تشفق من الاخفاق وان بطله فى هذه القصة سيكون امضى عزما واصدق ثقة بنفسه وسيبلغ غاية ان لم ترضه فهى خير من الذهاب مع العاصفة فى غير مذهب . ذلك لانه سيكتب قصته هذه وقد تغيرت حياته وحياة الوطن التونسى من حوله فأصبح كلاهما مالكا لامره لا يفرض عليه اذعان ولا استسلام ولا يدعوه احد كما كانت ميمونة تدعو غيلان الى الاذعان والاستسلام .

وبعد هذا كله فمقال الاستاذ ممتع وان لم يقنعني بتأويله لقصته وامتاعه يأتى من أنه حمل الوجودية على ان تسلم طوعا أو كرها وأتاح للذين يحبون ان يكونوا وجوديين ان يلائموا بين وجوديتهم وبين حقائق الدين فى غير مشقة ولا عناء .

والاستاذ من غير شك يعلم ان وجودية الكاتب الفرنسى جان بول سارتر ملحدة عن الدين خارجة على الاله وهو قد قرأ من غير شك مسرحية الذباب لهذا الكاتب . ورأى كيف يخرج أورست على كبير الالهة ويأبى ان يستجيب له ويعلن اليه فى شىء يشبه القحة ان ليس لكبير الالهة عليه سلطان فحسبه انه خلق الانسان وليس له بالانسان شأن بعد ذلك .

هذا الالحاد الصارخ وهذا العصيان الواضح من الانسان لكبير الآلهة يصور وجودية جان بول سارتر ووجودية الفيلسوف الالمانى هيدجر وهى وجودية قوامها ايمان الانسان بنفسه الى أبعد حدود الايمان بحيث يجعل الانسان نفسه مقياسا للخير والشر ويحمل الانسان وحده تبعة أعماله ولا يسأل عنها الا امام نفسه قبل ان يسأل عنها امام الجماعة وقوانينها .

فليس غريبا ان تجمح الوجودية بالانسان وتمضى به الى ابعد مما يـريد اصحابها .

فاما الوجودية التى تنصرت فى فرنسا على يد جبريل مارسييل او اسلمتفى تونس على يد الاستاذ المسعدى فهى تجعل لثقة الانسان بنفسه حدودا اهمها وأقواها وأضخمها هذا الحد الدينى الذى يعصم الانسان من الغرور ومن الجموح

ويلقى فى قلبه انه مسؤول أمام قوة اشد منه بأسا وأعظم منه ومن الجماعة وقوانينها سلطانا وهى قوة الله الذى يراقب الضمير ويعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور .

ولست ادرى أتنجح هذه الوجودية المسلمة ام يقضى عليها بالاخفاق . الذى اعلمه هو ان الوجودية المسيحية لم تكن تتجاوز صاحبها جبريل مارسيل الا قليلا وانى لاخشى ان تقف الوجودية المسلمة عند الاستاذ المسعدى ولا تتجاوزه الى غيره حتى بين الشباب التونسيين . ذلك لانها بعد تنصرها وبعد اسلامها قد أصبحت مذهبا فلسفيا لا أكثر ولا أقل .

والمذاهب الفلسفية كثيرة يجادل فيها الذين يعلمون والذين لا يعلمون دون ان تأخذها كثرة الناس مأخذ الجد .

وكم كنت أريد ان اخاصم الاستاذ المسعدى شيئا حول وجودية القدمـاء الذين ذكرهم فى مقاله الممتع ولكن لهذه الخصومة حديثا غير هذا الحديث الذى اسرف فى الطول فلنرجئه اذن الى وقت قريب وهذه الخصومة بالطبع لن تكون الا خصومة بين صديقين أليفين بعقليهما وقلبيهما وان نـزحت بكليهمـا عن صاحبه الدار وبعد بكليهما المزار .

وللصديق الكريم تحيتى خالصة وشكرى صادقا والحاحى فى ان يقبل ما وجهت اليه من التحدى ويكتب لنا قصة جديدة عن الامل والعمل لنرى اينـا المخطىء وأينا المصيب .

الدكتور : ط . ح .

« الجمهورية »
1957 – 5 – 29

مقدمة لقصة: "إفلاس أو حبك درباني" للبشير خريف

بقلم: محمد مزالي

نبدأ في هذا العدد نشر قصة طويلة لاول مرة منذ بروز هذه المجلة بعنوان «افلاس أو حبك درباني»، وهي قصة مستوحاة مما كان يوجد في المجتمع التونسي منذ ثلاثين سنة : لا شك أنها تثير مشاكل وتعالج عقدا في أدبنا التونسي وتخطط نفسيات عارية من الزخرف والتكلف . الا انها لا تروم التقويم من حيث هي ، ولا تسعى الى التنويه بحميد الاخلاق او تالد المجد . هي ثورة على التحفظ والتزمت والمألوف ... فيها انتهاج سبل جديدة وجرأة وحياة نأمل ان تمهد لادب تونسي صميم . ونحن في أسرة «الفكر»، رأينا أن نعرضها بما لها وما عليها - تباعا - من دون أن نجهل ما قد يثيره أسلوبها من نقد وما قد يبعثه حوارها العامي من قلق وضيق وما قد تبقيه واقعيتها العارية من أثر سيء في بعض النفوس - ولكننا سعينا الى خدمة الادب ، والادب من الحياة النابضة او لا يكون .

على أنا أبعد الناس عن ادعاء الحقيقة او احتكارها فقد يجد بعض القراء في هذه القصة ما يستهجن وقد يناقشنا بعض الادباء مفهوم القصة ورسالتها وأسلوبها - لذا نرحب بكل ما سيوجهه هؤلاء واولئك الى الفكر من الملاحظات والانتقادات حول هذه القصة بعد

قراءة جميع حلقاتها . ونعتقد أن تبادل الرأي حول «افلاس» وحول «القصة التونسية» عامة عمل مفيد ، بل حيوي بالنسبة للادب التونسي الذي تهمنا خدمته قبل كل شيء .

(*) الفكر س 4 ع 3 ص 26 سنة 1958

من قصة : " إفلاس أو حبك درباني "

بقلم : البشير خريف

ان القصة روح قبل أن تكون مظهرا ، وفكرة قبل ان تكون حادثة وان روح القصة الحى وفكرتها الصميمة يجب ان تكون قبسا من الانسانية التى اليها مرد الفن الرفيع .

محمود تيمور

— 1 —

الشيخ اسماعيل الصدراتي والممثلة فوزية نعيم والممثل سليم البرجي عائدين من التمرين فى « كروصة » بين القصبة وباب منارة . وكانت اجراس الخيل ووقع حوافرها تملأ سكون ليلة من ليالى شتاء 1925 . واذا بالشيخ يصيح ، مشيرا الى احد المارة

— هذاكه موش الباجى ؟ شد يا كرارصى . يلعن السخط واللّه يعطينى لحية هارون الرشيد والا انا واياه للبرمناص .

اوقف الكرارصي ونزل الشيخ .

— امشيو توه نخلط على ساقى . قالت فوزيه :

— يا ولدى اخطاك . ها الشوهه باش تعملها .

نزل الشيخ وتابعت الكروصة سيرها

خيم الصمت وثقل الجو ، واخيرا قال سليم :

— ما اصعبو الشيخ !

— آش ريت ؟

— عاد حتى معاك انت ؟ يحبك ياسر .

— كل واحد يقاسى اللى كتب له لم يجد ما كان يتوقع . بل آنس اطراحا فيه تكلف ، فتجاسر قائلا :

— برشه ناس يحسدوا الشيخ ويتساءلوا كيفاش منجمتو مع اخلاقو المزمرة .

(*) الفكر س 4 ع 3 ص 27 سنة 1958

ـ ما يخفاكش المرأة ليها راجل في هالدنيا . وانا وبنتي وامي اشكون باش يقوم بينا ؟ .

ـ والشيخ عندو باش يقوم بيكم ؟ .

ـ انت ماهو احسن من بلاش وبره؟شعر سليم بانه سيد الموقف، واخطر ما قد يقع لـه صفعة من يدها الليـنـة . لا ضير ، هما علـى انفراد ، وليس من يذيع الخبر . دخلت الكروصة في ظلمة بين باب الجديد وباب الجزيـرة فاقترب منها وتحسس هل من نفور وضمهـا وقبلها وانتظـر ...

ـ هكه سليم ! استنى . رد بالك من الحمير يمشيش يبلحطلـك وجهك ..

واخرجت منديلهـا وبللت طرفـه بريقهـا واخذت تمسح له ولما خرجت الكروصة الى ضوء باب الجزيرة تركت له المنديل وهمست .

ـ تحت شفتك ما زال شويه .

عندها وصلـوا امـام نهـج سيـدى البيـدى فنـزلت ، خفيفـة كالروحانية ، واختفت في ظلام زنقتها .

صاح سليم بالكرارصي :

ـ كمل لباب بحر من فضلك .

ـ ايص ! قدم ! ...

وطربق الكرارصي سوطه في الهواء وانطلقت الكروصة بجلاجلهـا تختـرق الانهج نحو باب البحر ثم البيقـة ثم باب سويقـه وسليم مستلقى ينعم ...

اهل المقاهي فـي العابهم وضوضـائهم والباعة « بنصباتهـم » والدكاكين انقلبت اندية بعد انقضاء النهـار في بيع وشراء هـو ذا صاحب الدكان في جماعة من اخوانه يسمـرون بالتاى والاحاديـث الحلوة . وتلك الدكاكين الخابىء ضوؤها أو المرصع ظلامها باقبـاس « السواقر » ان بها انسا وحركة وحديثا ذا شجون .

الكروصة تهرول وسليم ينعم : « ايها العباد ، اسمعوا وعوا ، انا سليم ابن حميدة البرجي ، انى سعيد ! » .

وتذكر صيحة لامرتين وسط بحيرته : « توقف ايها الزمن » .

حول " إفلاس " أو في مشاكل القصّة

بقلم : د. محمد فريد غازي

تخوفت ، وأنا اقرا مسودة ملاحظاتي هذه ، ان يرى في القارىء مدعيا عموميا ، يرافع ضد « افلاس » ويطلب الحكم عليها . فلا بد ان يعلم انني لم اكن انوى بالمرة ان اكتب عن « افلاس » ، (كما انني لم اكتب للناس ملاحظاتي عن « السد ») لانى احب دائما ان يكون بيني وبين النتاج الادبي مدى زماني ، يخول فكرى حرية ازاء الحادث الادبي ، تجعله ان حكم يحكم بلا شطط ، بل في تعقل وفي نوع من الاحتشام الفكري ومن التعقل والذوق السليم الذى ينشده ديكارت .

ولكن البشير خريف ، لم يشا هذا ، بل ارسل الى ، ايام عطله عيد الفصح رسالة رافقها بقصاصتين من جريدتي الصباح (1) والعمل (2) تناولتا ناحية اللغة في افلاس . واضاف خريف قائلا : « وقد اثار نشرها اى افلاس في مجلتنا « الفكر » ما اثار ، من ذلك انها لم تتخذ هدفا لها تقويم الاخلاق ، ولا الاشادة بالمجد التالد . وانها تناولت نواحي نفسانية لا ينبغي تشريحها وانها استعملت فيها اللغة الدارجة التي لا يفهمها من لم يكن تونسيا .

واضاف اخيرا ، في لهجة حيية تصل الى القلب « وتفضلوا سيدي فانبئوني بما ترون » .

في رأيي ان مشكلة اللغة مشكلة « فارغة » يحاول من ورائها مهاجمو (افلاس) النيل من القصة نفسها وهو امر مؤسف ارجو ان لا ينخدع القراء

(*) الفكر س 4 ع 8 ص 49 سنة 1959

1) حمادى الذوادى ، حول موضوع بين الفصحى والدارجة

2) البشير الزريبى ، بين الفصحى والدارجة 14/1/1959 انظر كذلك حمادى ناجي : خطر العامية على الادب الفكر عدد مارس 1959

له . لان البشير خريف ، وجه قبل كل شيء ، قصته الى القارىء التونسي ، ولم يوجهها الى قارىء عراقي او مراكشي ، لبناني او يماني . وهذا التوجيه يعود الى اختيار الكاتب والقصاص نفسه . فهو حر ان يتوجه الى جمهور محدود او بالعكس الى جمهور واسع الاطراف ، وهو حر ان يجعل قصته « محلية » او بالعكس « لا محلية » « لا اقليمية » ولا بد ان يشرح لنا البشير خريف هذا الاختيار واسبابه .

ومما يؤيد اعتقادي ان مشكلة اللغة فارغة ، خالية من الاهمية ، ان حواراتها يسهل سبكها في قالب فصيح ، متى شاء خريف ذلك . ولناخذ مثلا او مثلين هذه الفقرة التي اوردها خريف هكذا (ص 579) :

ــ « تتفكرش وقت اللي اجادت في موقف كرمن في عوض اشواق وصفتو عليها ، واقترح عم صدوقة تعطينا بوسة ، وقت اللي وصلك الطريق عملت روحك تفركس على نسخة رواية في الخزانة » ــ يمكن صوغها في قالب فصيح بسهولة ، اذا جعلنا مكان الكلمات المشارة اليها ، كلمات فصيحة . او هذه : ــ « عرف كيفاش يملكها ، كراكجي قديم (ص 580) يمكن صوغها هكذا : « عرف كيف يملكها ، انه شاطر قديم » .

وفي رايي ان « افلاس » في سبكها العامي هذا ، تمكن اللغوي من استقراء بعض القواعد . وفي انتظار الدراسة التي اعدها الآن مع صديقي دافيد كوهين، العالم اللغوي التونسي ، عن اللغة والنحو والصرف في قصة افلاس ــ يمكن ان اشير الى بعض المشاكل اللغوية . فهناك عدد لا بأس به من « المستعارات » مثل « كروصة » و « كرارصي » و « برمناص » (ص 227) و « الترنفاي » (ص 230) و « الكارطة » (ص 238) و « الروصيني » و «الفازلين » و « الماكياج » و « بونياتو » (ص 349) و « قفطان » (ص 350) و « للاقابو » و « الكوليس » و «الاكسيسوار » (ص 351) و « التران » و « الفاليجات » و « الانقار » (ص 353) و « طقطوقة » (ص 360) و « البازقة » (ص 365) و « كراكجي » (ص 580) و « الافاريات » ص 581 و « البرمقلي » (ص 582) و « الفزيتة » (ص 582) و « المريول » (835) « والفليجة » (ص 578) و « القريف » (ص 578) و « التلغراف » (ص 588) . وهنالك ايضا عبارات تونسية محض (*)

(*) اعددنا قاموسا خاصا « بالالفاظ العامية في اللهجة التونسية » انظر : (المستعارات في اللهجات العربية بتونس) بالفرنسية : م . ف . غازي

كـ « مليـــح » (ص 585) ، او « ـ فـاش قـام وخيتـى هـــا السفـر ؟ » (ص 587) ...

وهذه المادة اللغوية « العامية » يستطيع خريف ، لو شاء ، ان يعوضهــا بمادة فصيحة ، ويستطيع ان يخرج قصته من جديد ، بعنوان « افلاس » فقط يخرجها باسلوب سهل التناول ، خـال من الغريب والشقشقـة اللفظيـة ، ومحلى بحوارات فصيحة ، سهلة العبارة .

وما دامت مشكلة اللغة ، ثانوية ، فما هى المشكلة او المشاكل الاساسية فى « افلاس » ؟ .

افلاس ، و « الفن القصصى » .

فى رأيى ـ وانا اقرا « افلاس » للمرة الثالثة ـ ان خريف لم يراعِ كثيـرا الاعتبـارات الفنيـة التـى يخضع لقوانينهـا القصاصون . فى تسلسلهـا ، واطارها وربط « العقدة » ، و « الحل » والمشاهد الطبيعية والنفسية .
الاطار ، فى « افلاس » غير موجود . فان كان القارىء ، من السطور الاولـى ، يعلم اننا فى شتاء 1925 ، فهـو لا يجد اى علامة على ان حوادث القصـة تدور سنة 1925 .

ان الاطار التاريخي لا وجود له بالمرة . والبيئة التاريخية معدومة تمامـا . ولعلنا لو تصفحنا اخبار سنة 1925 لوجدنا متسعا ، كان على خريف اغتنامه . واسوق بعض حوادث هاتـه السنـة الهامة بالنسبة لتاريخ الحركة القوميـة التونسيـة ، فانها شاهدت لاول مرة تكتل الاحزاب القوميـة (الحزب الحر الدستورى ، الحزب الشيوعـى ، الهيئة الاشتراكيـة ، الحزب الاصلاحـى وحركة النقافات) فى جبهة متحدة . ولعل اهم ميزة لهذه السنـة هو نشـوء نقابات تونسية تزعمهـا محمد على ، بل يمكننـا ان نضيف الى هذا عرض المشكلـة التونسيـة على البرلمان الفرنسـى من طـرف نائب قنتسطينـى وارسال « لجنة » الى تونس من طرف الحكومة الفرنسية . وكذلك احتجاجات صارمة على خروج الطائفة الاسرائيلية من انظار العدالة التونسية ، وظهور جمعيـة « المتجنسين » ولم نسمع ولو صوتـا خافتـا للمظاهرات الشعبيـة المتحمسة ببنزرت وسوق الاربعـاء وسوق الخميس وصفاقس وقابس ولم نسمع ولو من بعيد باضراب 8 جوان 1925 .

وكيف لسليم البرجى الا يتحمس للدستور ، ولم يثر على ايقاف الصحافة القومية : « افريقية » وطرد توفيق المدنى من تونس ، ومنع « الصواب » و « النهضة » و « الزهرة » من دخول الجزائر والمغرب . وما دام بطلنا يشكو الفراغ الكبير ، صائفة 1925 ، فلماذا لم يشغل باله بحرب الريف ، وببطولة عبد الكريم قائد ثورتها .

هذه الحوادث التى ملأت تونس ـ بل العالم العربى كله ـ وشغلت بال الناس ، صغارا وكبارا ، رجالا ونساء . انها لم تشغل بال سليم البرجى « الزيتونى » ولا بال اسماعيل الصدراتى « الممثل » .

وهذا ما يجعل القصة بدون اطار ، وبدون زمن محدد ، حتى ان حوادثها يمكن ان تجرى سنة 1920 و 1930 وعندى ان خريف لم يجمع كما يلزم مواد قصته .

وما هو موضوع « افلاس » يا ترى ؟ وما هى « العقدة » ؟ وكيف « الخاتمة » ؟ ثم كيف استرسال القصة ، وما هى نفسية الاشخاص ؟ ... (*)

(*) ويستطرد المرحوم محمد فريد غازى فى الاجابة عن هذه الاسئلة فى صفحات طويلة يمكن لمن يريد مزيد اطلاع ان يرجع الى العدد من الفكر المشار اليه فى أول هذا البحث

من قصّة «الانسان الصّفر» حزب الفجر...

بقلم : عز الدين المدني

هذا تعبير رجل يبحث عن نفسه من خلال عالم اللغة والاشياء (*) وهو يختلف باختلاف ساعات النهار والليل . وفيه من الغموض ما فى أنفسنا ، ومن البيان ما فى ألسنتنا . وقصته دورة كونية تنطلق من الفجر لتتلاشى فى الغسق . وأقسامها سبعة مواقيت متواترة . يستفيق الرجل وهو بين الحلم واليقظة ويعى نفسه فى «**حزب الفجر**» وستتلوه أحزاب «**الصبح** و **الظهر** **العصر** و **المغرب** و **العشاء** و **الشفع** و **الوتر**» .

أَنَا العَارِي تَرَكْتُ دِيوَانِي فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تَسَرْبَلْتُ بِالبَيَاضِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ أَنْتَ الغُمُوضُ فَأَيْنَ البَيَانُ هُوْ+يَ العُجْمَةُ فَأَيْنَ الإِيضَاحُ هُوْ+يَ الإِرْهَابُ فَأَيْنَ النِّظَامُ نَحْنُ الإِنْسَانُ فَأَيْنَ الرَّبَّ أَنَا الانَا فَأَيْنَ النَّحْنُ أَنْتَ الحُرِّيَّةُ بلا جَنَاح هُو العقلِ بِلاَ فَلاحٍ نَحْنُ اللُّغَةُ بلا صَلاح هُمُ التَخَلُّف بِلا صبَاحٍ هُم الحَاضِرُ بَلا حَيْرَةٍ أنَا الكَلِمَةُ المَحْظُورَةُ أَنْتَ الثَّورة المَكْبُوتة هو الانْطِلاقَةُ المُحَرَّمَةُ نَحْنُ المسِيرَةُ المَفْلُوجَةُ أَنْتَ الضَّوْضَاء الصَّامِتَةُ هُو الضَّجِيجُ السَّاكِنُ لكن أنـا الامـلُ وأَنْتَ وهُوْي ونحن أنا المَاء وأَنْتَ الطينُ لكِنْ أينَ البِناء سأبْنيكَ يَاوَطَنـي سَأبْنيكَ بالْحُرُوفِ البَيِّنَات بالكَلِمَات النيرَات بالعبَارَاتِ المشرِقات بالمَعَانِي البلِيغَاتِ سَأبْنيكَ يَا وَطَنِي بالقَلَمِ الثَّورِي بالنثر الكِفاحي بالشعرِ النضَالي بالاسْلُوبِ المُتَمَرِّدِ التَقَدّمي بالتَّعْبيرِ الشَّعْبي

(*) الفكر س 14 ع 3 ص 55 سنة 1968

الحيَ النيّ سأبنيكَ يا وطني بالفكرُ الفاعِلُ دوْماً بالفعلُ المتأملُ
دوْماً بالجهدُ المُتواصِلُ دوْماً حتى يفنى الجهدُ دوْماً سأبنيك
يا وطني بنحوي وبصرفي بالرّفع والعلاءُ والسُّموّ بالجبْرُ ولا بالكسر
بنشاطُ ولا بالنّصبِ بالحركة **الحر** ولا بالسُّكُونِ بأحرُفُ
الدوّاء والشفاءُ ولا بأحرُفِ العلّة والمرَض بالفعل
الكامِلُ ولا بالفعلِ النّاقِص بالممنوعُ والحر الحر الحر
الحرّ الحر الحر ولا بالممنوعِ من الصرفِ سأبنيك يا وطني سأبنيك
بالخيالِ الخلاق بالحسّ الدفاقِ بالعمَل الصدُوقِ المِصداقِ ولابوحي
الرّسُلِ والانبياء ولا بسحرِ كلامِ الدجّالينَ البُلهاء ولابسفسطاء
الحُكماء الادعياء ولا بالشعارات السرّاب للزعماء الهجَناء
ولا بكلِشيات الصّحافيينَ الأغبياء ولا بتأنّقِ الادباء السّخفاءُ
ولا بالعرُوضِ المُتزمّت للشعراء فجرّ الكلماتِ فجرْها مِنْ
قوتِكَ مِنْ نفسِكَ اخرجها من لا نورَ في عقله لا يهتدي
لاتمشِ في ظلّ غيرِكَ فتفقدَ ظلّكَ وضلالكَ من لاحُبّ
في فؤادِهِ كيفَ يعرفُ الحبّ لا تتكلّمْ بلسانِ غيرِكَ
فتلوكَ دماً عكراً العينُ **الصمت** لها ألفُ معنى لكنْ
عينُ الشمس تجهرُ الوصايا العشرُ أعمدةُ الحكمة
السبعةُ أنشودةُ الاناشيد الاعاجيبُ السّبْعُ
المُعلّقاتُ العشْرُ أو السّبْعُ أو الخمْس أو لا شيء الا
الكلامُ المنسُوجُ المُعلّقُ على الاستارِ قيلَ للوَرْنسْ
العرَبْ لِمَ تُحبّ الصّحراء قالَ أحبّها لنظافتها
ونقاوتها لا تنسَ أيضاً يا هذا سؤالَ الملكيْنِ قُلْ لهُما:
إني المُتنازِعُ معَ الدنيا المُتخاصِمُ معَ الآخرةِ إني الثائرُ على
الحياةِ المُتمرّدُ على الموْتِ ...

حول قصة « الانسان الصفر »
هل من جديد في التجديد ؟

بقلم : جمعة شيخه

اذا اردنا ان نحلل كلمة « التجديد » بصفة عامة وجدنا انها تقوم على معنيين أساسيين : 1) الغرابة ، 2) الاتقان . ولاستساغة الجديد لا بد ان يتوفر عادة فيه هذان المعنيان فيثير دهشتنا لما اتى به من شيء غير مألوف من ناحية ولما فيه من دقة واتقان من ناحية اخرى .

والتجديد في الادب خاصة يكون في شيئين 1) الاسلوب ، 2) المحتوى . ويكون الاديب مجددا بارعا اذا عرف كيف يوفق بين هذه المفاهيم الاربعة فيكون « اتقانه » لتجديده متناسبا مع غرابة هذا التجديد . ويكون التجديد في الشكل متناسبا – بقدر الاستطاعة – مع التجديد في المضمون: فلا يطغى احد هذه المفاهيم على البقية لان الاديب كالصانع او قل كالخالق لا بد – ليكون الشيء الذي صنعه او خلقه كامل الصنعة او الخلقة – من تناسب في اعضائه وتناسق في تركيبه .

فاذا اردنا ان نسلط هذا المقياس على قصة « الانسان صفر » لوجدنا انها أقرب الى التنافر منها الى التناسق ، فعنصر الغرابة قد طغى على العناصر الاخرى كالسندباد بجزيرة الاقزام ووصلت الغرابة الى حد الغموض : وكان الغموض متنوعا ومتمثلا في مظاهر مختلفة برز بصفة خاصة في هذه اللغة التي استعملها الكاتب فهي لغة وان بدت عربية في بعض الجمل فهي تبعد عن العربية في كثير من الاحيان فتصبح كلمات تشبه كلام المشعوذين والسحرة . وقد ظننت في الاول انني لا افهم العربية فرجعت الى معاجم اللغة ومناجدها افتش عن بعض الكلمات ولكنني لم اجدها . فعلمت ان هذه اللغة المستعملة هي لغة « صفرية » لا لغة عربية . ولا يمكن للعاقل ان يجدد بلغة لا يعرفها الناس وان اراد ان يفعل فليتفق معنا في لغته الجديدة او على الاقل ليعلمنا بها حتى وان لم نتفق معه عليها .

(*) الفكر س 14 ع 5 ص 77 سنة

وتتمثل هذه الغرابة كذلك فى هذا الاسلوب وهذه التراكيب العربية تارة و « الصفرية » تارة اخرى ، وفى هذه الجمل المرتبطة بصورة غريبة الى حد الازعاج . والكاتب وان اراد بهذا الترابط تجديدا فى اساليب اللغة فقد انحرف عن المقصد فللتجديد فى اساليب اللغة مع صعوبته قواعد وان كان اراد بذلك الاشارة الى معان توحى بها هذه الاساليب فقد حقق بذلك العكس فغمضت المعانى التى يمكن ان يكون الكاتب قد اراد الاشارة اليها . وما الذى دفع كاتبنا المجدد الى كل هذا الغموض ليعبر عن افكار سنرى فيما بعد انها بسيطة وساذجة ؟ الا يعلم اننا فى عصر لا يسمح الوقت فيه ان تقرأ قصته عشر مرات او اكثر – كما فعلت – ويخرج القارىء بعد ذلك بيد فارغة والاخرى فيها « صفر » فبالله عليك أيها الزميل المجدد ما الذى تريد ان يفهم القارىء من قولك « اقرأ بامس كرب اذ لى رتق قرق ..... ذألى شهق زقق نهق نقق من قفق الاشرى من كرق الابقى من يليق الانقى من فلق الاتقى من علق » فوالله لقد ظننت ان هناك دجاجة فى احلك الظروف « ظروف الدجاج » وهى على وشك ان تضع بيضتها ولكنها لم تجد المكان المناسب لوضعها ، وان هناك حمارا كان ينظر اليها بعين ملؤها الالم والحسرة ولكن ذلك لم يمنعه من ان يطلق قهقهة عالية من « قهقهات الاحمرة » .

ولم استغرب – كما فعل بعض الزملاء – من الخط بعد ان رأيت الكلمات والاسلوب فلكل كلمات جديدة واسلوب جديد من خط جديد وقد جدد المدنى كذلك فى الخط . ولله در من جدد وكان تجديده كليا . ولا يشبه هذا التجديد فى غموضه واحاطته الا ما نسمعه فى بعض الاديان عن المسخ فيقلب الانسان قردا او خنزيرا ويكون هذا القلب قلبا كليا . ولننظر الى امثلة من هذا التجديد فى الخط يقول المدنى « والناس يرتل + يحمدل + يحوق،ل + يبسمل + يصلعم + ـون » اى الـ (ون) ، كما يقول اهل الرياضيات – عامل مشترك مضروب فى كل الكلمات السابقة مثلما نقول س (3 ص 2 + 5 أ 2) .

وهكذا نرى ان عنصر الغرابة اخفى تماما عنصر الاتقان . ولم يكتف المدنى بذلك بل جعل الشكل المتمثل فى هذه اللغة الجديدة بكلماته واساليبها وبهذا القلب لبعض الكلمات مثل (الذى = اذلى . ربك = برك . الانسان = الاسنان ... الخ) – يسيطر هو الآخر على المحتوى فتضيع المعانى فى خضم هذه القوالب « الصفرية » التى كانت اكثرها لا يمت الى قواعد اللغة واساليبها بصلة .

ولولا ذلك التعليق الذى نجده فى الصفحة الاولى من قصة المدنى وهو قوله : « هذا تعبير رجل يبحث عن نفسه من خلال عالم اللغة والاشياء وهو يختلف باختلاف ساعات النهار والليل وفيه من الغموض ما فى انفسنا ومن البيان ما فى السننتنا » لما امكن لى ان افهم شيئا من هذه القصة فقد اتخذت هذا التعليق نبراسا اهتدى به فى شعاب قصة المدنى ونستطيع ان نلخص المعانى التى فهمتها والتى جاءت فيها ونقسمها الى قسمين :

القسم الاول : هو قسم حاول فيه المؤلف ان ينظر الى العلاقة بين الله والانسان ويبدو ان المؤلف ان لم يكن ناكرا لما تقصه الكتب السماوية حول هذا الموضوع فهو متذبذب مضطرب ناقم على هذه القوة التى ارادت ان تجعل الانسان مكيفا حسب اهوائها وحسب مشيئتها ولعل تصرف المدنى باللغة فى هذه القصة يشبه تصرف هذه القوة الالهية بالانسان .

القسم الثانى : اما الجزء الثانى فهو المتعلق بالانسان فى حد ذاته وقد اراد الكاتب ان يبين لنا المتناقضات التى يمثلها الانسان فهو القوى الضعيف الخائف الجرىء تتجاذبه مجموعة من النزوات والغرائز فلا يستقر قراره ، حياته مضطربة ونفسيته معقدة ومع ذلك فهو يعتقد انه الاول والاخير ينظر الى نهايته المحتومة فلا يرضخ ولا يستسلم بل يقاوم ويصارع وهو مع علمه ان صراعه لا فائدة ترجى من ورائه وانه صراع فاشل الا ان نفسه الابية تحرم عليه الخضوع لان هناك مقومات ومعطيات اساسية يجب ان يعيش من اجلها ويقاوم لاعلائها فهناك الوطن وهناك تعلق الانسان بالوطن .

وقد حاول الكاتب ان يثير من حين الى آخر عدة مشاكل : سياسية ودينية واجتماعية وادبية فاشار « الى الزعماء الهجناء بالشعارات السراب » واشار « الى الادباء السخفاء بالعروض المتزمت » وبقواعد اللغة المتحجرة واساليبها الجامدة . واشار الى الانسان الرب « فاين الرب انا » واشار الى « التعبير الشعبى الحى » و « الاسلوب المتمرد » ... الخ .

وانتهى المدنى فى نهاية نظريته الفلسفية الى جملة معقولة ومفهومة وهى : الانسان « عجينة الارض بل هو نسغها بل هو حياتها بل هو مكيفها بل هو صانعها بل هو ربها » .

والناظر الى هذه المعانى لا يجد من فضل للمدنى الا انه جمعها فى هذا الاسلوب المزعج المتمرد فقد طرقت هذه المواضيع وتنوقش فيها المرار العديدة وما زال البعض منها على بساط البحث الى يومنا هذا . فمن لم يسمع

بهذه الذبذبة وهذا الاضطراب والشك فى الدين ؟ ومن لـم يسمـع بهـذه الدعـوة للمقاومـة وعـدم الاستسـلام ؟ انها امـور اصبـح البعـض منهـا مبتذلا لكثرة تداولها واصبح البعض الآخـر يمثل مرحلـة من مراحل تفكيـر الانسان وهى مرحلـة « المراهقة الفكريـة » . ولعل المدنـى ما زال يتخبط فيهـــا .

ولم اجازف بالقـول عندمـا اتهمت الكاتب بهذه المراهقة الفكرية فالادلـة عليها بارزة فى هذه القصة فهو يحاول ان يظهر للقارىء براعته فى مجموعـة من العلوم فيستعمل تعابير نحويـة اخنى عليها الدهر « اكلونـى البراغيث » ويستعمل لغة الفلسفة « المقولات العقلية العشر » ولغة الهندسة والرياضيات فى الخط كمـا رأينا فى قولـه : « ربع الدائرة وكور التربيع » ولا يرى مانعا من استعمال لغة الكتاتيب (بالصاد كالصفرة بالحاء كالحمرة بالباء كالبياض) التى تشبه قولنا فى الكتاب ونحن صغار « أليف لا شى عليه والباء وحـدة مسفل والتاء اثنين ملفوق » ويستعمل لغة المشعوذين المفهومة وغير المفهومة فهذا مسيلمة الكذاب لعنه الله يمد كاتبنا بقرآنه « الفيل وما ادراك ما الفيـل له خرطوم طويل ... » ونسـى المدنى قـول مسيلمـة « والطاحنات طحنـا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما » وهو القول الذى كان من الاولى ان يستعين به الكاتب لانه يوافق كلامه ويشبهه الى حـد بعيـــد .

ولا ادرى لماذا اتخذ الكاتب اسلوب القرآن فصنع به ما صنع وقال ما قال ؟ لعله اتخذ ذلك حسب قاعدة « خالف تعرف » ولكنى اقول لكاتبنا المفضل انه اخطأ وانه اراد ان يجدد فاغمض فاسلوبه مع ما فيه من مس لنفسية المؤمـن الصادق الايمـان لم يحقق الغـرض الذى يرجـوه . وحتى اذا اردنا ان نكون مؤمنين بايمان المدنى فان هذا الادب لا يشبه الا ادب الجمود الذى اتفق عليه كل من نطق بالضاد انه افسد اللغة وعطل سيرها .

فهل نرجع الى ما اتفقنا واتفق كل الناس انه جمود ليقال عنا اننا مجددون ؟

جمعه شيخـه

(أستاذ)

بيان حول استعمال الفضاء المسرحي في هذا الديوان

بقلم : عز الدين المدني

يقترح المؤلف ان يقع استعمال اركاح متعددة لاخراج هذا الديوان المسرحي ، وذات احجام وارتفاعات متعددة ومختلفة ، وان تكون ـ قدر الامكان مندمجة في الجمهور حتى تلائم ما جاء في هذا الديوان المسرحي من عمل درامي .

لقد سبق للمؤلف ان استعمل في اثر ادبي سابق عنوانه « الحمال والبنات » بعض الخصائص الجمالية التي وردت في الكتب الادبية العربية القديمة ، « كالاغاني » لابي الفرج الاصبهاني ، و « الحيوان » للجاحظ و « الامتاع والمؤانسة » لابي حيان التوحيدي ، و « كليلة ودمنة » لابن المقفع ، و « التوابع والزوابع » لابن شهيد الاندلسي ... وهو يعيد استعمال هذه الخصائص بأكثر دقة في هذا الديوان المسرحي .

وهذه الخصائص الجمالية التي لا ندعي ان الكتب العربية القديمة قد انفردت بها ، وانما كانت دعامة في الانشاء الادبي العربي القديم ، فضلا عن كونها رائجة في اداب الشرق المتواري في القدم . وهي تتلخص في مفهوم « الاستطراد » الذي جعل منه مؤلف هذا الديوان مبدأ جماليا اساسيا ساعده في « الحمال والبنات » وفي هذا الديوان المسرحي بالذات على اكتساب شكل مسرحي مبتكر ، ومكنه من تركيب العمل الدرامي تركيبا مرنا ، حركيا ، متفاعلا جدا ، بله جدليا ، واعانه في الانصراف او يكاد عن فنيات المسرح الغربي ـ الكلاسيكي منه والحديث الطلائعي ـ ودفعه بفضل ذلك كله الى الاقتراب اكثر فأكثر من الارضية الذهنية ، ان لم يقم عليها عمدا ،

(*) الفكر س 18 ع 3 ص 10 الى 15 سنة 1972

لا سيما فى الماضى الحضارى ، وبالتالى فى الواقع الشعبى الحالى ، ليكون فى نهاية المطاف الضمير النابض للمستقبل ، كيما ينصهر فيها جميعا ، ويتزوج منها ، وينطق باسمائها .

ويرى المؤلف ـ فى هذا السياق من المعانى ـ انه كان خليقا بالعرب المعاصرين ، لما تبنوا منه الا النوع الغربى ، واعطوه الصدارة فى آدابهم وفنونهم ، الا يتبنوا منه الا النوع فقط ، وان يتركوا جانبا الفنيات ، والاشكال ، والاتجاهات التى رافقت النوع ، والتصقت به ، وكادت تمتزج باصوله . وانه كان ضروريا بالنسبة اليهم ان ينظروا فى جوهر المسرح ، وان يمعنوا النظر فى ادواته ، وان يتأملوا فى اتجاهاته . ولئن شرع البعض منهم ـ فى السنوات الاخيرة الماضية ـ فى تغيير ملامح المسرح فى العالم العربى ، بادخال فنية « المداح والحلقة » ، او باستعمال فنية « الكراكوز » او بتحوير التركيب الدرامى شيئا ما ، على نمط المقامات مثلا ، فانهم ما زالوا لم يتعمقوا التعمق الكافى فى المجتمع العربى : كالمجتمع التونسى او المجتمع الجزائرى ، الذى هو ليس الا تضاريس لحضارة الفية لها خصائصها ، ومميزاتها ، واصباغها ، ونظرتها وباختصار علاماتها الحضارية التى لا تزال فى أشد الحاجة القصوى الى سبر مجهولها ، ومؤودها ، واقتفاء آثار ثورتها ومتابعة منعرجات صعودها وهبوطها .

وانه لا يكفى بالنسبة لرجل المسرح ـ سواء كان مؤلفا اومخرجا ـ ان يستعمل « المداح » مثلا فى عمله المسرحى حتى يكون عمله هذا عربى المشاغل والاطار ، تونسى الواقع والامال ، شعبى المشاكل والمطامح ، طلائعى النزعة والشكل والاخراج ، فلان « المداح » او « الكراكوز » او « اسماعيل باشا » ليس الا ظاهرة « فولكلورية » ذات اصباغ زاهية يرتاح اليها الصبى ، وينتعش بها الشيخ ، وتزهو فى عين الزائر ، كفولكلورية الاماكن السياحية ... لم تأخذ من العلامات الحضارية الا بعض القشور .

ونقصد بهذا كله انه يجب التعمق فى التفكير العربى ، والتشبع به ، والوقوف على خصائصه ، والرسوب فى اغواره ، وتفهم رقائق مداركه . كان يتساءل الانسان :

ـ كيف هو سلوك الانسان التونسى ؟

ـ كيف هى ردود فعله على مجتمعه ؟ .

ـ علام يتخذ هذا الموقف من الاحداث ولا يسلك ذاك الموقف المنتظر منـه ؟ .

لم يفكر بهذه الطريقة بالذات ولا يفكر بطريقة اخرى .

ـ ما هي الركائز التي تقوم عليها اعماله ؟ .

الى غير ذلك من الاسئلـة المحرجة التي لا يسويها « المـداح » ، ولا يحلهـا « الكاراكوز » ولا يغوص عليهـا « اسماعيل باشا » في اعتقادنـا ، رغم أنها محاولات تجديدية طيبة لكنها ضيقة في الآن نفســه .

ونحن حينما نعود الى التراث العربـي الاسلامي ، وخصوصا الى فنياتـه الجمالية ، لا نريد بذلك ان نستدل على صحة مفهوم « الاصالة » (1) المزعوم ، وأن نقدس هذا التراث اكثـر مما يطيق من التقديس ، وان نجعلـه بالتالـي صالحـا لكل زمان ومكان ، وانما نعتبره مجموعـة مـن القيـم ، والافكـار ، والاشكـال ما زالت في حاجة اكيدة الـى التقصي ، لا سيما وانهـا لم تحظ بالدرس في معظمهـا ، وانها قد اصيبت بـداء التأويل الزائغ ، وانهـا دفنت بنظرة الاعجاب ، والقداسة والتقليد .. كما نعد هذه المجموعة من الاشيـاء جدلية مع حاضرنا ومستقبلنا رغم ان خيط الزمان قد تقطع لاسباب يعرفهـا العام والخاص مدة قرون طويلة .

ومتى ادركنا هذا الكلام حق الادراك ، فاننـا سنمسك حتمـا عن تقليد ما نجم مكتملا في التراث ـ سواء كان عروضا شعريا او صيغا صرفية او اجهزة فلسفية او اشكالا معمارية ـ وسنعمل حتمـا على تطويرها ، وتعصيرهـا ، وتثويرها حتى نربط من جديد خيط « التاريخية » بينها وبيننا بصفة حركية متفاعلة دائما .

فعلا ، لقد كـان خليقا بالعرب المعاصرين ان لا يتبنوا من الفن المسرحـي الا النوع ، لانهم بتقليدهم الفنيات الغربيـة ، ومجاراتهم الاشكال الفرنسيـة قد جعلوا من الفن المسرحي فنا مقصورا على الحضارة الاوربية ، في حيـن

---

1) اقصد بالمعنى الفرنسي atavisme وكذلك التوفيق الخاص بين قالب التفكيـر القديم المعتمد أساسا على العنصرية وبين مقتضيـات الحيـاة العصرية ، كما اقصد ثالثة المعنى السلفي المنطوى عليه هذا المفهوم ، وهو العيش ذكريا في القرون الماضية .

أن الشرق القديم قد عرفه حق المعرفة بتقنيات ، وأشكال أخرى لا تماثل تقنيات المسرح الغربي المعاصر وأشكاله . بسبب هذه النظرة الضيقة ، لم يروا أن كل شكل فني يرمز ويرمز الى ما ورائية معينة على حد تعبير سارتر . وتبعا لهذا ، ابتعد رجال المسرح العرب شططا عن اهتمامات الشعب، وعن شواغل الانسان العربي (مثلا) ، وعن قضايا المجتمع في بلادهم لأنهم لم يقيموا اي اعتبار للتراث (2) الذي يحتفظ به الشعب في صدره ، والذي يصونه الانسان العربي في حافظته ، فصار المسرح في البلاد العربية ـ الا ما قل وندر منه ـ اما ضربا من التلهية واما عنوان المفارقة (3) على الرغم من ان هذا المسرح مكتوب بالعربية ...

ورب مسرحية تونسية عربية تتحدث عن بلادنا ، وعن شعبنا ، وعن قضايانا ، وعن مطامحنا ، لا تقاسمنا خبزنا ولا ملحنا ، ولا تزاوج انفسنا ، ولا تتسلل الى كنه سلوكنا ، ولا تستجيب لرغائبنا ، ولا ترقباتنا البادية منها والمتلبسة ـ لان المؤلف (او المخرج) لم يستطع تطويع الاداة التي بين يديه ، ولم يقدر بالتالي على ربط ذلك الخيط الخفي السري الشفاف بين تعبيره الفني والجمهور الذي يتحمل ذلك التراث في صدره ويصونه في حافظته ، ويضطلع بشواغل اليوم المرهقة ، ويحلم بالآمال العريضة ، ولم يكن في وسعه ان يلائم عمله الفني مع تلك النظرة الشاملة الى الكون التي اكتسبها الانسان العربي فيظل عمله هذا معوجا بين يديه وكأنه من انتاج مؤلف أجنبي يكتب باللغة العربية رغم أن حوارها عربي كما قلت آنفا ، وديكورها « باب سويقة » واشخاصها عرب اسماؤهم : محمد وأحمد وصالح ...

فلهذا كله ، يتجاوز الفن المسرحي في كثير من الاحيان اللغة والمضمون . « والاستطراد » في القديم قد اتبع في انواع الادب كالشعر والقصة والمقال ، وفي كتب اللغة ، والبلاغة والفقه ، والتفسير ، والتاريخ . وهو ما يعترى المحور الذي يقوم عليه التصنيف من الاحداث ، والاغراض ، والكلام ، والملح ، والهزل، والجد والامثال والعبر التي تأتي ـ جميعها ـ حسب عفو الخاطر، وسريان السليقة ، واختلاج الملكة ، بلا ربط ، ولا شمول ، ولا عمق ، بغية امتاع القارىء والسامع وافادتهما (4) .

---

2) اقصد القيم القارة كالحرية والتسامح والكراهية الفردية والتفاني في خدمة الخير .. الخ .

3) ترجمة للاصطلاح : Aliénation

4) راجع هذه المعاني في مقدمة كتاب الحيوان مثلا .

ولعله ايضـا ذاك الذى سمي « عيبا » فـي التاليف العربـي القديم وهـو التداخل فـي الاغراض ، والتراكب في الاحداث ، والقاء الكلام على عواهنـه وتكديسه على بعضه البعض .

ولعله ثانيا ايراد تحليلات متعددة ، وربمـا متناقضة ، لحدث واحـد .(6)

ولعله ثالثا ايراد تحليلات وتأويلات كثيرة تعليقا على ما غمض فـي احدى جزئيات رواية من الروايات . (7) .

و « الاستطراد » عندى هـو ذاك فى خطوطه العريضة ، وفـي مستوياتـه التى ذكرتها والتى لم اذكرها ، حيث تكون كل جزئية ترتبط بسائر الجزئيات المكونـة له ، وتتفاعل معها ، بلا اعتبـاط ، ولا عفو ، ولا خلط ، وانما عمدا وقصدا ، من اجل استحواذ على الواقع المتشعب من معظم اوجهه .

لذلك اقترحت فى بداية هذا البيان ان تكون اركاح هذا الديوان المسرحى متعددة ، ومختلفة المستويات حتى تلائم ما جاء فيه من عمل درامى .

والملاحظـة الاخيرة التـى اريد التنبيـه اليها هـى ان « الزنج » ديـوان مسرحي . واقصد بذلك ان « الزنج » ليست مسرحية فقط ، بل هى تضافر بين المسرح والموسيقـى ، وتناصر بين التمثيل والنحـت ، وتيامن بيـن المنظور ، والمسموع ، والمنطوق .

---

5) انظـر مثلا كيف سعر طه حسين فى جعـل القصيدة العربية القديمـة معقولة التبويب من ناحية الاغراض ، وذلك للدد على بعض المستشرقين الذين كانوا يعيبون على القصيدة العربية القديمة عدم معقوليتها (حديث الابعـــاد الجزءان وله) .

6) انظر الاحاديث التى يقيهـا أبو الفرج فـي خصوص الشاعر صحنـون ليلى وفى كيفية تناقضها لا من ناحية فحواها فحســب ، بل أيضا من حيـث سلاسلها الروائية .

7) هذا النوع من الاستطراد اسميه الاستخراج وهو موجود بغزارة فـي كتب الادب العربى ، فمن ذلك الروائى يقص الحادثة فى خطوطها العامة ، ثـم يعود ليتحدث عن نقطة جاءت غامضة بغية توضيحها او التعليق عليها .

لوحة

حب

بقلم : البشير بن سلامة

لَمْ تَكُنِ السَّمَكَةُ فِي انطِلاقِهَا مِنْ رُكْنٍ الى رُكْنٍ، تَحْتَ أَلْوَانٍ مِنَ الانْوَارِ البَاهِتَةِ، إلاّ طَرْفَةَ العَيْنِ فِي الظَّلامِ يَشْحَذُهَا بَرِيقٌ، وَخَفْقَةَ القَلْبِ تَهْفُو الى عَبِيرِ الحَيَاةِ، أَمَلاً وَتَوْقًا، وَلَهْوًا وَاشْتِيَاقًا.

وَلَمْ تَكُنِ الفَتَاةُ، وَنَظَرُهَا يَرْقُصُ خَفَّاقًا فَوْقَ لَمْعِ الجِسْمِ يَحْتَكُّ بِالمَاءِ، تَشْعُرُ بِنَظَرِهِ، لاَهِيًا، أَفَّاكًا، يُعَانِقُ رَقْصَةَ البَصَرِ، وَيَقْتَنِصُ لَحْنًا يَنْسَابُ كَهَبَّةِ نَسِيمٍ، وَرَجْفَةِ جَنَاحٍ شَقَّ أُفُقًا عَنِيدًا أَبِيّ*.

وَانطَلَقَا، زَمَانًا حَائِرًا يَنْطِقُ بِالزَّهْرِ وَالعَبِيرِ، وَيَضْحَكُ حَنِينًا، وَيَضْحَكُ انْعِتَاقًا. وَيَلُفُّ عَلَى قَلْبِهَا أَصَابِعَهُ النَّاعِمَةَ، وَيُنَغِّمُ دَقَّاتِهِ عَلَى دَقَّاتِ قَلْبِهِ، وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِ صَاحِبِهَا بِأُغْنِيَةٍ أَنْغَامُهَا سِحْرٌ، وَأَلْحَانُهَا دفْقُ فِرَارٍ.

وَمَشَى وَمَشَتْ، عَلَى حَصَى الشَّاطِئِ كَالجَمْرِ وَالمَاءُ ثَلْجٌ، وَدَمِيَتْ أَقْدَامُهُ وَانفَتَحَ قَلْبُهَا انْشِرَاحًا وَرِضًى، وَضَحِكَتْ لِرَجْعِ خُرَافَةٍ وَأُنْسِ أَلِيفٍ، وَاللَّيْلُ عَيْنٌ أَحْدَاقُهُ تَضِيقُ وَتَضِيقُ، وَظِلُّ الظَّلاَمِ كَتَنَفٍ عَابِرٍ تَكْشِفُهُ شَمْسُ الحَقِيقَةِ.

(**) الفكر س ع ص II و I2 سنة

(*) (كذا) .

وَافْتَرَّ صُبْحٌ عَنْ سِنِّ الجَفَاءِ وَلاَ جَفَاءْ ، فَدَمِيَتْ أَقْدَامُهُ وَالأَرْضُ صُلْبٌ أُنُوفُ ، وَانْفَصَلَ الزَّمَانُ عَاتِيًّا ظَلُومًا ، وَانْتَفَى اللَّهْوْ .

وَشَدَّهُ إِلَيْهَا خَيْطٌ ، إِبرَتُهُ تَخِزُ قَلْبَهُ ثُمَّ تُدْمِيهْ ، وَرَاحَ بِكَفَّيْهِ ، يَعْتَصِرُ أَلَمًا شَفَّافًا مِنْ وَرَائِهِ ذَوْبُ دَمْعٍ وَبَرَاعِمُ حُزْنْ ، فلم يَعْرِفْ وَجْهَهُ فِيهَا ، وَلاَاسْتَشَفَّ نَسِيجَ اللَّهْوِ مِنْ بَيْنِ خُيُوطِهَا .

ثُمَّ اشْتَدَّ الأَسْرُ ، خُيُوطًا حَرِيرًا وَلاَ كَالحَرِيرْ .

البشير بن سلامة

ان الشعر التونسي الحديث الذي ابتدأ منذ استهلال هـذا القـرن سيطر عليه مفهوم يكاد يكون واحدا هو العصرية . فعبارة الشعر العصـري بدأت مع مجلة خير الدين وبقيت تتردد تحت شعارات مختلفة الى يومنا هذا. والعصرية في الشعر او الحداثة عرفت مدلولات عديدة اغـرقت جانبـا مـن الشعر التونسي احيانا في متاهات لم يقدر على الخروج منها ، وأضاع فيهـا كنهـه ومدلولـه .

ما هو الشعر ؟ سؤال اجاب عنه منذ ان عرفت البشرية هذا الفن ، الفلاسفة والادباء وكل من اهتم بالخلق . والاجوبة متعددة لا تكاد تحصـى . والشعـر عندي هو ما اودعه الشاعر ايقاعا هو ايقاعه وجعل هذا الايقاع يتفـاعل مـع رؤيته الكونية ويتجاوب مع مظاهر الحياة حوله وقدر على ان يشعر به القارىء ويغمر وجوده به .

الفكر س 24 ع 1 ص 2 سنة 1978 من دراسة بقلم الاستاذ البشير بن سلامـة بعنوان « **الشعر التونسي الحديث** »

في سبيل إثراء الشعر التونسي

نشرت مجلة الفكر طيلة الخمس والعشرين سنة فيضا من الشعر لشعراء كثيرين منهم أحمد اللغماني ، احمد المختار الوزير ، جعفر ماجد ، رياض المرزوقي ، الصادق مازيغ ، عبد العزيز قاسم ، عبد المجيد بن جدو ، على عارف ، محسن بنحميده ، محمد الشعبوني ، محمد المرزوقي ، محمد مزهود ، الصادق شرف ، محمد مصمولى ، منور صمادح ، مصطفى الحبيب بحرى ، المرحوم مصطفى خريف ، نور الدين صمود ، الهادى نعمان ، عبد القادر بن شروده ، السويامى بوجمعه ، محى الدين خريف ، يوسف رزوقه ، محمد على الهانى ، البشير المشرقى ، عبد الحميد مواعده ، محمد الناصر الصدام ، الشاذلى عطاء الله ، حميده الصولى ، محمد احمد القابسى ، كمال قداوين ، محمد عمار شعابنية ، احمد المختار الهادى ، الحبيب الزناد ، زبيده بشير ، عبد الحميد خريف ، عامر بوترعه .

ونظرا الى ضيق المجال وتعذر نشر نماذج لكل هؤلاء الشعراء فاننا آثرنا الاقتصار على انموذج واحد لكل نوع من الشعر مع دراسة حول موجة الشعر المتجدد (نور الدين صمود) . فسيجد القارىء نصوصا شعرية لما يسمى بالعمودى (جعفر ماجد) والحر (يوسف رزوقه) وفى غير العمودى والحمر (الطاهر الهمامى) وكذلك القصيدة الدور (الصادق شرف) والقصيدة المضادة (محمد مصمولى) وقصيدة النثر (محمد احمد القابسى) وقصيدة للدكتور مصطفى عطاء الله لم يصنفها صاحبها وهى خارجة عن التفعيلة .

وقد ادرجنا ضمن هذه الصفحات نصا لفقيد الادب مصطفى خريف صديق فقيد الادب أبى القاسم الشابى يصف فيها الجو الادبى الذى كان يسود عصرهم .

الأفكار

شعر: جعفر ماجد

عجبًا لِهذا الدهرِ كيفَ يُصرّفُ ![**]
مهما عرفتم حكمهُ لم تعرفوا

تمضي بنا الأيامُ في دورانها
كالريحِ تجتاحُ الحياةَ وتعصفُ

والمرءُ في كفِّ الزمانِ كريشةٍ
يرمي بها في عالمٍ لا يُعرفُ

ما أقصرَ الأعمارَ حتى تُشترى
ويسومها بالبخسِ من لا يُنصفُ

والناسُ إن حكموا عموا ، فتراهمُ
لا يأمنونَ إذا مشوا أن يزحفوا

والناسُ إن خافوا يخافوا جاهلا
لكنّ شرّ الظالمينَ مُثقّفُ

فإذا اشتهى لا يرعوي ، وإذا اشتفى
لا يرتوي ، وإذا قسا لا يرأفُ

يحتالُ في الفعلِ الأثيمِ بعلمهِ
كالراهبِ المرتدّ حينَ يُجدّفُ

[**] هذه القصيدة ألقيت فى مهرجان الشعر الرابع عشر المنعقد بدمشق فى أواخر نوفمبر 1979 .

اقرأْ تواريخَ الشعوبِ تجدْ بها
كتُبا بأفعالِ الطغاةِ تؤلفُ

فيها منْ الفكرِ العميلِ صحائفٌ
يندى لها الحقّ الهضيمُ ويرجفُ

قدْ كانَ في ماضي الزمانِ جبابرٌ
جاروا كما شاءَ الزمانُ وأسرفوا

حقنوا العقولَ بظلمهمْ وبسمهمْ
حتى يذلَّ خصومهمْ أوْ يتلفوا

والسمّ يسقاهُ رجالٌ آمنوا
أنّ الحياةَ عقيدةٌ وتصوّفٌ

لكنّما الأفكارُ ينمو غرسها
وإذا نمتْ فزهورها لا تقطفُ

تمتدّ أيدي العابثينَ لغضّها
وتدوسها الأقدامُ حينَ تفوّفُ

حتّى إذا قالوا : ذوتْ وتفتّتتْ
وغدتْ على صفحاتِ نهرٍ تجرفُ

طارتْ وقدْ نشرَ الربيعُ أريجها
سرْبا طليقا في الفضاءِ يرفرف

يا أمّة (1) لا تنتهي أوجاعها
ودموعها منْ ألفِ عامٍ تذرفُ

قدْ كنتِ شمسا بالضياءِ سخيّة
ماذا دهاكِ فعدتِ نهْبا ينتفُ ؟

(1) المقصود بها الأمة العربية .

نَجَمَ الخِلافُ وَأَنْتِ طِفْلٌ يَافِعٌ
وَبَقَى الخِلافُ وَأَنْتِ شَيْخٌ يَهرِفُ

أَغَنِيَّةٌ ؟ لا شَكَّ مَالُكِ وَافِرٌ
لَكِنَّهُ فِي غَيْرِ سوقِكِ يُصْرَفُ !

أَكبِيرَةٌ ؟ لا شَكَّ أَرْضُكِ رَحْبَةٌ
لَكِنَّهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تُخْطَفُ !

أَكَثِيرَةٌ ؟ لا شَكَّ نَسْلُكِ عَارِمٌ
لَكِنَّهُ مِثْلَ الأَسِيرِ مُكَتَّفُ !

لَمْ يَقْلِبِ التَّارِيخُ ظَهْرَ مِجَنِّهِ
إِلاَّ وَحَظّ الفِكْرِ فِيكِ تَعَسُّفُ

كَمْ مِنْ عَظِيمٍ عَاشَ فِيكِ مُعَذَّبًا ؟
كَذَبُوا عَلَيْهِ بِالمَزَادِ وَ أَرْجَفُوا

كَمْ مِنْ كِتَابٍ لَمْ يَجِدْ قُرَّاءَهُ ؟
قَدْ زَوَّرُوا أَفْكَارَهُ أَوْ حَرَّفُوا

حَتَّى عَرَفْنَا مِحْنَةً فِي مِحْنَةٍ
حَتَّى غَدَا تَارِيخُنَا لا يُوصَفُ

وَإِذَا السِّيَاسَةُ حَرَّكَتْ أَهْوَاءَنَا
فَالحِبْرُ يُصْبِحُ تُهْمَةً وَيُجَفَّفُ

وَ طَبِيعَةُ السُّلْطَانِ تَأْبَى أَنْ تَرَى
جَيْشًا مِنَ الأَقْلامِ لا يَتَوَقَّفُ

يَمْضِي إِلى غَايَاتِهِ مُتَعَجِّلاً
وَيَظَلُّ يَمْشِي فِي الزَّمَانِ وَيَزْحَفُ

فَاسْتَأْجَرُوهَا كَيْ تُحَطِّمَ نَفْسَهَا
وَتَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَقُولُ ... وَيُخْلِفُ

وَ المَرْءُ أَقْسَى فِي عَدَاوَةِ نَفْسِهِ
مِمَّا يَكُونُ بِهِ العَدُوّ وَأَعْنَفُ

ذَاكَ انْتِحَارُ العَامِلِينَ بِفِكْرِهِمْ
إِنْ أَعْجَزَ الحُكَّامَ قَتْلٌ أَشْرَفُ

مَا دَامَ هذَا الدَّهْرُ سَيِّدَ أَمْرِهِ
فَالدَّهْرُ لاَ يُبْقِي وَلَكِنْ يُتْلِفُ

هَلَكَتْ شُعُوبٌ فِي طُفُولَةِ عِزِّهَا
لَمَّا اسْتَبَدَّ بِهَا الغَشُومُ المُجْحِفُ

الأَنْبِيَاءُ مَضَى زَمَانُ ظُهُورِهِمْ
وَأَتَى زَمَانٌ بِالرَّدَاءَةِ مُقْرِفُ

مَا رُقْعَةٌ إلاَّ عَلَيْهَا وَاحِدٌ
يَدْعُو إِلَيْهِ وَفِي يَدَيْهِ مُصْحَفُ

مَا بَالُهُمْ سَرَقُوا السَّمَاءَ فَلا تَرَى
إِلاَّ مُسَيْلَمَةَ يَصِيحُ وَ يَهْتِفُ

قَالُوا : خَلَقْنَاكُمْ ! فَقُلْنَا : مَالَكُمْ
- إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمُ - بِنَا لَمْ تَرْأَفُوا ! ؟

قَالُوا : رَزَقْنَاكُمْ ! فَقُلْنَا مَالَنَا
- إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمُ - بِكُمْ نُسْتَنْزَفُ ! ؟

فَرَصَاصُكُمْ بِصُدُورِنَا ، وَرِمَاحُكُمْ
بِظُهُورِنَا ، وَدُمُوعُنَا تَتَكَثَّفُ

لَـمْ يَعْـرِفِ التَّارِيخُ مِنْذُ قُدُومِكُمْ
حَالا كَحَالَتِنَا تَسُـوءُ وَتُؤْسِفُ

الشَّرْقُ مُشْتَعِـلٌ يَمُـجُّ دِمَـاءَهُ
وَالغَرْبُ بُرْكَانٌ أَرَاهُ سَيَقْـذِفُ

وَ الحُـكْمُ حَبٌّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلُّكٌ
وَالحبُّ صِـدْقٌ لَيْسَ فِيهِ تَزَلُّفُ

فَدَعُـوا الشُّعُـوبَ علىَ حَقِيقَةِ طَبعِها
عَفْوِيَّـةً ... تُعْطِي وَلاَ تَتَكَلَّفُ

عَهْـدُ الطَّوَائِفِ لمْ يـزَلْ مُتوَاصِلا
أفَمَا عَزَمْتُمْ بَعْـدُ أنْ تَتَآلَفُـوا ؟

فَيَعُـود لِلأُفُـقِ الكَئِيـبِ رُوَاؤُهُ
وَ نَسِيرَ فِي أَمْنٍ ... وَلاَ نَتخلَّفُ

جعفر ماجد

... فانحصر دور الشعر*اذن في تذكير الانسان بانسانيته اكثر من غيره من الفنون ولا مفر له ، ان هو رام البقاء ، من ان يدفع عن انسان هذا العصر هذا الغول المادى الذى اجتاح مشاعره وشنجها الى حد التصلب والجفاف .

وان تيه الشعر وما طرأ عليه من غموض وإسفاف وحقارة انما هو مرده هذه الغفلة عن الغول المادى او الانقياد له او الانبهار باساليبه بالتبنى والمحاكاة فدخل هذا الفن فى دوامة ليس له الا ان يفقد فيها توازنه وكنهه .

(*) الفكر س 24 ع 1 ص 4 سنة 1978 من دراسة بعنوان « **الشعر التونسي الحديث** » بقلم البشير بن سلامة .

ونحنُ نحتجّ ..!

شعر: الصادق شرف
(أبو وجدان)

الأرض في مشنقةِ الزوالْ ..
ونحـنُ في جامعة الجدالْ ..
نُصارعُ اليمينَ بالشمالْ ..
وندّعي بأننا رجالْ ..
والريحُ لا تُزعزعُ الجبالْ ..
لكنها من تحتنا ترْتجُّ ..
ونحنُ نحتجُّ .!

* * *

يا أمتي .. متى تثورُ الأمّةْ ؟ ماذا جنَينا من وراء القمّةْ ؟!
يجتمعونَ للنّضال ، ثُمّهْ . إذا تولّوْا .. تنتهي المُهمّةْ !
يا أمتي .. متى تزولُ الحُمّةْ ؟ فالوَهمُ في عقولنا يُزجُّ .
... ونحن نحتجُّ .!

* * *

وتملأُ السجونُ في الأرْدُنّْ . ويُوغلُ الشّقيقُ في التجنّي ..
وأمّ كلثوم لنا تُغنّي .. ، فنعتلي في صوتها الأغنْ ..
أريكةَ الخيالِ والتّمنّي ...
ونعشقُ التصفيقَ إذْ يعُجُّ .. ... ونحنُ نحتجُّ .!

(*) الفكر س 19 ـ ع 1 ص 55 سنة 1973

(فهل رأى الحبّ سكارى مثلنا !) كلّا ! فليس ثمّ مَن يفوقُنا .!
فالسُّكرُ باتَ يملأ الكأسَ لنــا حتّى إذا الخمرُ انتهى ، فإنّنا ..
نَشرَبُ مِن دمائِنا ودمْعِنـــا
فكيف هذا الشربُ لايُمجُّ !؟ ... ونحنُ نحتَجُّ .!

* * *

قد مجّنَا الصّغارُ والكبـــارْ .. هل نَدّعِي بأنّنـــا أحْرَارْ !؟
وبعضُنـا يُجَنْدِلُ الثّوّارْ ! يَذُودُ عنْ عَدوّنا بالنّارْ !
صديقنـا في فهمنـا يحتـــارْ ! من كثرة اعوجـاجنا يَعوَجُّ .!
... ونحنُ نحتــجُّ .!.

* * *

دَاست جِباهَنا نِعالُ الهمجِيّـهْ .. أهذه جِباهنـــا ؟ أمْ لَيس هيّهْ ؟!
لو بقيتْ لنا جباهٌ عـربيّــهْ لأعلنــتْ بأنّها منّا برِيّهْ ..
لأنكرتْ حتى وجُوهنَا الشّقِيّهْ ! لاندفعت في صمتنــا تضجُّ ..
... ونحــنُ نحتجُّ .!

* * *

أتى على سَاستنا سوسُ الخشبْ .. رؤوسُهُـــمْ ..
تَغوص في طين الشّغبْ .. شفـــاههمْ ..
تَهرّأتْ مِنَ الخُطَبْ .. شعـــوبُهُـمْ ..
ينهشهـــا وحشُ التّعبْ .. ..
والذهبُ الأسودُ خصمٌ للعرَبْ . وكلهـــم ..
في فعلِ القوْلِ لَجُّوا .. ... ونحنُ نَحْتَجُّ !!

* * *

وسوسةُ الأساسِ عاشق الكراسي يرسُو وما الذى يزحزح الرواسي ؟!
ويكثرُ الحرّاس خوفَ الافتراسِ . يحرسهم بنفسه من النُّعاسِ ،
من الذى يُنقذنـا ممّا نقاسِي ؟
والعجـز .. كلُّ العجز إذْ نحتجُّ ... فكيفَ نحتجُّ .!

ثلاثة قصائد مسروقة من مخزن الفجيعة

شعر : يوسف رزوقة

1 ـ الدخول فجأة إلى ساحة المعجزات :

وأركب رأسي الجديد وأصرخ من شدة العشق :

هذا أوان الخروج من الجنّة المشتهاة

وهذا أوان الدّخول إلى ساحة المعجزات

وينتابني الحزن ساعة أكشف عن وجهك المتعفّن ياامرأة تشتهيني لدى لحظات المخاض العسير

وأهرب قبل التّوغّل فيك إلى قلبك الوثنيّ

على كتفيّ العصافير

والملح في مقلتيّ ...

وأغمد في قبة الثلج جرحي وأنتظر الآه كيف ستخرج من مدخل الجرح؟

والثلج كيف سيضنع للمشي ساقين من جذوة النّار ؟

كان انتظاري انتحارا بطيئا وقلبك ياامرأة مسختها الحضارة كان جدارا فقرّرت نفيك في اللاّشعور

وفي الحين ، بيني وبين المراعي البعيدة جدّا ، مددتُ الجُسور

وسافرتُ بالحُبّ ، سافرتْ بالشوق ، سافرتُ ...

في غير العمودي والحر

مذكرات على السرير الأبيض

شعر : الطاهر الهمامي

1 - اختنــاق *

الليـل هنـا اغتـرابْ
أغنيـات حـزينـه
وعيون هـدّهـا انتظار فجـر خـادع كـذّابْ
اللّيـل هنـا جبـال مـن طيـن
تمتـدّ ، واسفلْت بـارد حـزيـنْ
وأشعـار تمـوتْ
لـو عـرفـتِ كيف تمـوتُ الاشعـارْ !
كيف تُنفى تضيعْ
تضيعُ في قعـر مستشفى
وتضحى أنفه من حذاء بغيٍ
وأوهى من سرب خُطوتٍ
حيـن جفّ المـاء
لـو عـرفـت كيف تمـوتْ !

2 - جــوع

فـي الجهـة الشّـرقيّـة
قطـة رمـاديّـه
رمـاديّـة كلـون أيّـامـي
داهمهـا المساء
تتمـرّغُ فِي الارضْ
تمـوءُ مُـوَاء
« أقـولُ وقـد مـاءتْ بقربْيَ قطّـة ... »
ويـنـزل اللّيـلْ
ينـزل اللّيـلْ

قصيدة مضادة :

أصوات ...

بقلم : محمد مصمولي

◆ هي المرض . (*)
أما المصاب فأنا ..
والحب هو ما بيننا ...
تصوروا يا نظارة المأساة التي كتبها (لست أدري من ؟) وكنا (أنا وهي) الجرح والخنجر معا . الجرثومة والجسم معا . النار والهشيم معا ..

« تقولون أسطورة بالية »
« تقولون مهزلة قديمة كالعالم »
« يقول البعض منكم هي هذا وذلك » ..

أما أنا فلن أدعو زفرة تنفلت من فمي ، يا نظارة !
أما أنا فعنقي هذا الذي لم ينج هو الآخر من الداء ، فهو سيظل مرتفعا ، عموديا ، حتى المنتهى !

« تقولون هذا عبث »
« تقولون هذا افتعال .. »
« يقول البعض منكم تعسف ، غطرسة .. »

أما أنا فلن أقول شيئا ، يا نظارة ، لأن الداء الذي يزحف بجسمي من الداخل ، يتسلل في دمي بصمت ، يصل الى أذني ولساني دون ضجيج هو عدو يهوى الرمز فكيف تريدون أن تكون عبارتي مثل تصريح ديبلوماسي...

الاخرى في عصر أصبحت فيه الحدود الجغرافية وهما من الاوهام وكذلك وقع فيه ما يسمى بالانفجار بين مختلف الحدود في كافة أصناف الخلق (Eclotement des genres) . بناء على كل هذه الاعتبارات التي تتحدى

(*) الفكر س 14 ع 7 ص 70 سنة 1969

الانغلاق والقالبية والثبات والخوف من الجديد والاحتراز من التطور ، كان لا بد من [قصائد مضادة] فى كل اللغات بما فى ذلك اللغة العربية التى قد ترشحها حساسية ألفاظها إلى مثل هذا الاجتهاد الفنى والبحث (Recherches) •

وفعلا ثمة من اجتهد ولم يصب وثمة العكس إلا أن [قصائد النثر] أو [القصائد المضادة] كثيرا ما كانت ضحية نمطين من الناس :

1) نمط المتطفل على الحرف بألفاظ مطفأة ، زائفة (وهو موجود فى كل مكان) •

2) نمط الناقد الكلاسيكى الذى يستحيل أمام القصيدة الجديدة الى (خليل) صغير (نسبة الى الخليل بن أحمد الفراهيدى) الكبير • وهذا راجع الى فساد القياس فى ثقافة الناقد الكلاسيكى الذى لا يتكلم الا بما حفظ وتعلم دون اجتهاد أو تفتح • والذى آمن بحكمة قديمة كانت شرا على أجدادنا وهى « ليس فى الامكان أبدع مما كان » •••

من الأخطاء الخطيرة المنجرة عن غموض التعريف أو عن ضعف ملكة التمييز اقتصر على خطأ واحد وقع فيه الكثيرون قديما وحديثا وهو الخلط بين القصيدة المضادة (Anti-poème) أو (A poème) وبين النثر الشعرى (prose poétique) كما نراه عند (Chateaubriand) أو جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة • فالفرق بين [القصيدة المضادة] وبين كافة أنواع النثر وكافة أنواع الشعر هو أن [قصيدة المضادة] كما رآها (Aloysius Bertrand) و (Baudelaire) الى (سان جون بيرس) المحرز على جائزة نوبل فى هذا النوع هو فرق كبير ! فهى خلافا للنثر والنثر الفنى ، والنثر الشعرى تمتاز بأوزان وقواف أخرى وآفاق وأوتار تنبع كل مرة من طرافة الشاعر لا من ذاكرته ومن محفوظاته ••!

هل عندنا فى العالم العربى [قصائد مضادة] ؟

الاجابة نعم بعد كثير من الاحتراز ولكن العدد قليل جدا ويكاد ينحصر فى مجلة (شعر) التى اختلط فيها الحابل بالنابل ! ولعلنى أعود الى موضوع القصيدة المضادة بعد افساح المجال للنقاش النزيه مع من له قول فى القضية ولا شك أن الشاعر نور الدين صمود الذى خالفنى شفويا له رأى ينشره وكذلك الشاعر جعفر ماجد الذى خالفنى فى الرأى ذات مرة فى حصة (عرض المجلات) الاذاعية وغيرهما •

م• م•

حلم رجل ظهره الى الحائط

شعر : محمد أحمد القابسي

أبدأ بالشعر الفاجع
أعلقه انتهاكا على جيدك ،
وبالمباح الحاضر ،
والممنوع الضائع

المنساب على ابوابك ،
وبكل البسطاء الشاربين وهمى ووهمك ،
الداخلين معى غابات حزنى ،
فى اللحظة الحاكية عن انحسار شتاء العام بالأوجاع

وعن الحب المطرود من سياجك :

وأنا أحبهم ،
واقسم عشقى فى أحلامهم ،
وافتح وجهى لهم
واتركك تنتظرين خيلى
تموتين شهوة ،
تلبسينها قناعا أمام الليل القادم
لن تأتى الخيل أيتها العاتيه فلا تنتظرى .

* * *

يحلم الرجل الذى ظهره الى الحائط
بالشعراء يخلعون جلود الثعابين ،
ويمتطون صهوة العسعس

الحائط البارد

ويلقون بالبنادير فى الصناديق

وبالصناديق فى النهر

(*) الفكر س 20 ع 5 ص 69 سنة 1975

إلى كهنة الشعر...

بقلم : الحكيم مصطفى عطاالله

ثوبنا ، ثوبنا يا انتم (*) ، ضاق بنا
وضقنا به
وربيعكم خرف
وعبيقه أنتن
وزهوره أذبلت
ثم اذبلت حنطتها
وجداوله خرت
وشخرت
ثم ماتت
وغارت
وبدركم الباسم
اشل الابتسام اشداقه
وبرقع الظلام
مزقه السفور
وشمسكم تبرأت
من « الغزالة »
وفرت الى
حيث خبر بات
والنائحة الحمامة
اخرسها زكام
وارجوحة الاوزان
خدرت القوم
فتثاءبوا

ونامـوا
ونام الشاعر
في حضن شعره
بعد ان قضى الحاجة البشرية

★ ★ ★

اذ ذاك وقعت الواقعة
وتفكك الشعر
وقال : طق !
وهوى الشاعر
على ظهره
وشقت الابيات
مصراع الطاعة
وتنافرت القوافي
واقبل العجز على الطالع
وتبعثر القصيد
وزهق العروض

★ ★ ★

ووقع الربيع على زهوره
واكلها .. وبدلها باقلاء
وعلى جداوله
فشربها
بسمكها

(*) الفكر س 1 ع 8 ص 2 الى 4 سنة 1956

وذوى البدر الباسم الى زاوية
من الظلام
ليبكي ويستريح
وقالت الشمس :
انا الشمس
لا افل ولا اكثر
ومالت الورقاء الى ريشها
تاكل البراغيث
التى اكلوها

★ ★ ★

ما « فاض مرجل الغضب »
بل انفجر
بفعل ضغط البخار
لا اكرم ولا نعم
ولا طوبى ولا حبذا
ولا عيار ولا نافخ نار
وقودنا اليوم كهرباء
وناقتنا طائرة الصواريخ
النفط سقياها
عيونها من زجاج
وقلبها من حديد
ونعلها مطاط

★ ★ ★

ألا كيف يفوح الاريج
بين كتائب المروج
وسعى فيها حفاة كادحون
يشربون الارض ماء
وعرق الجباه
والشمس تشعل على سواعدهم
لالاء الجهد
وهالات الغبار

اين ، اين رقة الوجد المريض
من بهجة الامل العريض ؟

★ ★ ★

ثوبنا ، ثوبنا ، يا انتم ، ضاق بنا
وضقنا به
بلى ! بلى !
ورب الحيرة والوجد
لنجلسنكم عن المجد
كنادب الاطلال
اجلسه « النواسى »
ولنبيحن شعركم
ولنعرضن بكم
شر معرض
ولنحشرن هذركم
وازيزكم
وهباءكم
فى رحا هزلنا
واحتقارنا
الى ان تدلفوا
حفاة عراة
ذوى جنة وجاما
عروجا الى الليل
من معبر النجوم الناصعة
والى ان ينجو اللفظ من تزييفكم
ويخلق الكون جديدا بسيطا
وتصدق محنتكم فتهد هداكم
وتعطش الكاس
الى خمرتكم
ويصفو الصفاء

مصطفى عطاء الله

ملاحظات في موجة « الشعر المتجدد »

بقلم : نور الدين صمود

[أنـا مؤمـن بالتجديـد] (*)

الشعر ، منذ وجد ، في تجدد مستمر ، فاقدم شعـر كـان جديـدا في زمانـه ، وأقدم شاعر كان مجددا فـي عهده ، ولو عدنـا الى مقدمة كتـاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة لوجدنا هذا الكـاتب ، الذي عاش في القرن الثالث للهجرة ، يتحدث عن هذا الموضوع وكأن هذه المقدمـة كتبت لهـذا العصر ، فمشكلة القديم والجديد مشكلة قديمة متجددة طرحت في كل زمان ومكـان ، فكل قديم كـان جديدا في زمانـه ، ولست ضد الجديـد ولا ضـد التجديد فأنا من اشد المؤمنين بالتجديد والمتحمسين لـه ، لاعتقادي بأنه لا يجوز لنا أن نكتب شعرنا بنفس الطرق العتيقة التي كتب بها القدماء شعرهم ، ولاطلاعي على حركات التجديد ـ شكلا ومضمونا ـ التي مر بها الشعر العربي منذ أقدم عهوده الى الآن ، غير غافل عن موجـة الموشحات التي ترعرعت في الاندلس ثم وقع الاهتمام بها والتقنين لها من قبل ابن سناء الملك في مصر .

أنا مؤمن أشد الايمان بالتجديد وبتطوير الشعر لأن التجديد هو الدفقـة الدموية الحارة التي تسري في أعصاب القصيدة فتكسبها حيوية وتبعث فيها الحياة ، أما القصيدة التقليدية المقلدة تقليدا جامدا للشعر القديم فانها مولود ميت لا حياة فيـه .

(*) الفكر ـ السنة 24 عدد 1 ـ اكتوبر 1978

وليست ، بالضرورة ، كل قصيدة عمودية تقليدية ميتة كما أنه ليست ، بالضرورة كذلك ، كل قصيدة حرة أو متحررة قصيدة حية ، فالجيد من كليهما هو الشعر الحي الجدير بالحياة .

واذ قد عرف القارىء الكريم رأيي في الشعر الجديد وفي التجديد الشعري فاني أريد أن أحدثه عن شيئين اثنين يرتبطان شديد الارتباط بالشعر الجديد :

(1) [الرمزية لا متاهات الغموض]

كلنا يعرف أن من بين المذاهب الادبية يوجد « المذهب الرمزي » وهو مدرسة أدبية ازدهرت في بعض العهود خاصة ، ونبغ فيها شعراء طبقت شهرتهم الآفاق ، ودرس شعرهم في مقالات مطولة وأحيانا في كتب معروفة ، ولا يوجد انسان عاقل ، مدرك لمعنى هذه المدرسة وغرضها ، يعادي هذه الطريقة أو المذهب الادبي فالادب الرمزي جدير بوقفات ووقفات من الدارسين والنقاد لاستجلاء مكوناته العميقة . ولكن ما ننكره ، وينكره معنا القراء والمتذوقون للشعر هي هذه الموجة العارمة من الغموض ، والمتاهات الضالة المضلة من الكلام ، الذي يقدم على أساس أنه (شعر) ، في حين أن القارىء لا يظفر بطائل من ورائه ، فلا جمال في التعبير ، ولا رونق في الكلام ، ولا ايحاء ، ولا تصوير ، بل لا تحس بأن صاحب هذا « الكلام » له سيطرة على ما يقوله ، ان كان يريد ان يقول شيئا ، فأصحاب هذا الكلام يبحثون عن الغموض بحثا ، بل يتكلفونه تكلفا ، فتكثر النعوت الغريبة ، وتضعف النسب بين أجزاء القول ، وتتمزق أوصال الكلام ، وتتراخى العرى الرابطة بين الجملة والجملة ، وبين كامل « القصيدة » ... « فيظفر » القارىء بكلام مريض متهافت كالسراب الذي « يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » . ناهيك أن معظم المتهافتين على هذه الطريقة مبتدئون استعصى عليهم التعبير الصحيح ، ونفر منهم الشعر الاصيل ، وند عنهم الشعر الجدير بأن يسمى شعرا ، ذلك « الذي يهزك عند سماعه » هزا ، فتحس بعظمة قائلة ، وان كان رمزيا صعب المنال .

ولله در ابن المعتز حين قال :

ان ذا الشعر فيه ضيق نطاق ليس مثل الكلام من شاء قالا
يكتفي فيه بالخفي من الوحـ ـي ، ويحتال قائلوه احتيالا

ان الشعر ، فى جميع المذاهب والمدارس ، فن صعب المراس « ليس مثل الكلام من شاء قال » أو كتب أو نشر ، بل هو نمط من القول لا يستطيعه كل من هب ودب ، وخط وكتب ، لذلك ترى الذين لا يستطيعون الخوض فى غماره ، والسباحة فى بحاره ، يأتون بكلام خديج (*) يكتنفه الضعف والهزال من جميع جهاته ، وتراه يستر عورته بهذا الغموض المتكلف المتشبه بالرمزية ، وشتان بين الرمزية الموحية الخصبة ، وبين الغموض التافه المفتعل افتعالا .

(2) [موسيقى الشعر لا مهاوى النثرية]

الشىء الثانى الذى أريد أن أتحدث عنه ـ والمرتبط شديد الارتباط بالشعر الجديد ـ هو مدى ضرورية الوزن أو الموسيقى للشعر فقد تطورت أوزان الشعر خلال الخمسة عشر قرنا ، التى مر بها الشعر العربى ، من القصيد الموحد القافية الى الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وما اليها ... الى « الموشحات الأندلسية » باختلاف طرقها فى تجديد الاوزان ... الى « البند العراقى » الذى لم يشتهر كثيرا بين الأدباء ... الى « الشعر الحر » المعتمد على احدى التفعيلات السبع المعروفة ، الى الشعر الحر الذى يعتمد على البحور المنوعة التفعيلات ، وقبل « الشعر الحر » عرف ـ على يد ، جميل صدقى الزهاوى ثم عبد الرحمن شكرى وزكى أبو شادى ـ لون آخر من التجديد وهو الكتابة على بحر معروف دون التزام بقافية معينة ، فتارة تكون القافية باء وأخرى جيما وأخرى لاما وهكذا ، ودون تقيد بحركة أو سكون فالقصيدة كلها « اقواء » . (والاقواء فى عرف العروضيين ان تختلف حركات الروى فى بيت أو أكثر من أبيات القصيدة) .

فى كل الالوان التى ذكرتها من الوان الشعر العربى كان الشعراء يلتزمون « الموسيقى الشعرية » ، أو النغم او الوزن أو بحور الشعر أو التفعيلة ... أو أو اى طريقة من طرق « الوزن » ... فالشعر من مستلزماته الموسيقى ، ولن يفلح شعر خال من هذا العنصر الضرورى ، الذى لا قوام للشعر بدونه ، وأنا لست مغاليا أو متشددا فى هذا الميدان فأطالب بالتزام بحور الخليل وأن لا يعدوها الشاعر وأن لا يخرج عنها بأى حال من الاحوال ، ولست مع

(*) **الخديج** : الجنين الذى تلفظه الارحام قبل النضج الكامل .

عباس محمود العقاد في رأيه الذي كان يرتئيه في الشعر الحر ، فقد كان يكتب على الملف المحتوى على الشعر الحر : « يحال على لجنة النثر للاختصاص ، وذلك عندما كلفه المجلس الاعلى لرعاية الفنون بتقييم الانتاج الشعرى للشعراء الشباب في الستينات ، ولكنى أطالب بايجاد نغم شعرى في القصيدة بأى طريقة من الطرق سواء بالطرق التى ذكرتها آنفا ، أو التى تحدثت عن بعضها في قسم من كتابي « تبسيط العروض » ـ حيث بسطت المحاولات التجديدية لخلق معادلات موسيقية جديدة غير البحور الستة عشر ـ أو بخلق نسب وزنية أخرى لم يعرفها القدماء والمحدثون ، فالمهم أن يظفر القارىء بموسيقى شعرية ترفع الكلام الى مستوى الشعر ، لا أن ينحدر الشعر في مهاوى النثرية الباردة **بحجة «الثورة على التقليد والتخلص من القيود »** ، فهذه الحجة قد تجوز على بعض ضعاف العقول . فتؤثر فيهم كلمة « **الثورة على التقليد** » فكلنا من هواة التفتح والتطور ، وكذلك تروقهم كلمة « التخلص من القيود » فكلنا من محبى الحرية والانعتاق ، نبغض كل قيد وغل، فهذه « كلمة حق أريد بها باطل » لا يقولونها لوجه الفن وحبا في التجديد ، ولكنهم يقولونها لعجزهم عن الاتيان بأى لون من ألوان التجديد في هذا الميدان ، ولن يستطيعوا أن يخلقوا أى معادلة موسيقية في شعرهم ، بل اكثر من هذا فانهم لا يستطيعون حتى تقليد القدماء في بحورهم الخليلية ، ولا حتى المحدثين في شعرهم الحر السهل الممتنع على أمثال هؤلاء المتهافتين :

(انهم قد عجزوا عن التعبير فطالبوا بالتغيير) .

وتغييرهم يعتمد على الشيئين المذكورين آنفا : الغموض الفج باسم الرمزية الموحية ، والنثرية الباردة باسم التخلص من القيود .

واذا كانوا يريدون التخلص من القيود فلماذا لم يتخلصوا منها بتخليهم عن القواعد النحوية ، والصرفية مثلا ؟! ولماذا لم يكتبوا بغير هذه اللغة تماما ، فاما ان تكون الثورة تامة والا فلا ... (لكن كثرة الاخطاء النحوية والصرفية عند بعضهم تجعلنى أقول : لعلهم ثاروا على القواعد ايضا كما ثاروا على أوزان الشعر) .

على ان البعض يلتزم ، في بعض قصيدته ، الوزن ويتخلى عن الوزن في البعض الآخر ان لم اقل : يختل لديه الوزن في البعض الآخر ، فهو لا يدرك الموزون من غير الموزون فيكون ما اتزن منها

« رمية من غير رام » أو كما قيل عن معلقة عبيد بن الابرص : (كأنها خطبة اتزن له بعض أجزائها) . ورحم الله المعرى اذ قال عنها :

وقد يخطىء الراى امرؤ وهو حازم
كما اختل فـى وزن القـريض عبيـد

وكم من عبيد بين متشاعرينا .

انهم يحاولون أن يوجدوا شيئا من الموسيقى فى « محاولاتهم الشعرية » بشتى الطرق فمن هذه الطرق البسيطة الخالية من الفن والجمال :

1) القافيـة ، ومعروف أنه اذا وجدت القافيـة وانعدم الوزن سمى الكلام « سجعا » لا شعرا . و « السجعـة » او « القافية » مـن أسهل الاشياء علـى الكاتب او الشاعـر ففى امكانك أن تظفـر بعشرات القوافى على اى حـرف تشاء تجمعها من الذاكـرة أو من قصائـد القدماء ، وهذا أمر يستطيعـه حتى التلميذ المبتدىء ، « وان كان الذى لا يعرف الفرق بين « القافية » و « الروى » يجد صعوبة فى جمع هذه القوافى ويخلط بينهما خلطا شنيعا فهناك علم كامل يسمى علم القوافى غير علم بحور الشعر » . فلماذا لم يثر مدعو التجديد على ذلك وهو قديم عتيق بدائى ؟! .

2) اتزان بعض السطور اتزانا صحيحا أو اتزانا بزحاف غير جائز فيتكون فـى الجملة نغم تقريبـى ، خاصـة اذا قرأ « القصيدة » صاحبهـا بشىء من التمطيط أو « الاقتضاب » فى بعض الحروف أثناء النطق .

3) ترديد بعض الكلمات والجمل واعادتها ، فيخيل للسامـع أن ما يسمعه موزون .

وهناك طـرق أخرى يحاولـون بها توفير شـىء من الموسيقى أو ما يشبه الموسيقى فى « قصائدهم » يمكن أن يكتشفها كل من قرأ أو سمع شيئـا من هذا « الشعر » .

خـاتمـــة

ان « الشعر » الذى تحدثت عنه فى هذه الكلمة لهو من أردا ألوان الشعـر وأضعفها وأسرلها ـ ان جاز أن نسميه شعرا ـ ، وأجدرها بالسخرية والاحتقار

على أني لم أكن أقصد أثناء حديثي شخصا معينا ، وأخشى أن تثير هذه الكلمة حفيظة بعض المتشاعرين ، أو الشعراء فيظنون أني أعنيهم بهذه الكلمة ، ولكن مهلا فاني أريد أن أسأل القارىء الكريم سؤالا بسيطا وهو : « هل أنت من أنصار الكلام الذي يكون مصداقا لما قلته آنفا ؟! وأسأل الشعراء أو المتشاعرين : (هل أنتم ممن يكتبون هذا اللون من الكلام ؟!) ان ثرت وغضبت من كلامي فمعنى ذلك أنك تكتب « شعرا » من هذا القبيل ... وأنك جدير بهذا التشهير الذي كان محوره هذا الحديث ، واذا راقك ما قلته عن هذا اللون من الشعر فمعنى ذلك أني واياك متفقان على محاربة العبث والسخافة ، ومؤمنان بالبحث عن الشعر الجيد الجديد المتجدد .

وأنك معي لا ترى بأسا من اعتبار تلك المحاولات التي تحدثت عنها آنفا ، مجرد محاولات ما زال أصحابها في أول الطريق يروضون أنفسهم على وسائل التعبير . فليس أقتل للانسان من ايمانه ببلوغه القمة وانتهائه الى غاية الطريق : « ولا تكون الطريق طريقا حتى تكون بلا غاية » كما قال صاحب السد .

ثم اني لا أنكر أن قلة قليلة من « الشعر الغامض » تصل الى مرتبة الشعر « الرمزي » الجيد المليء بالمعاني ، واننا نظفر أحيانا « بنثر » ممتاز يفوق مراتب « الشعر الموزون » بجميع ألوانه .

واحب أن لا يفهم بعض القراء اني أفضل الشعر على النثر ، واني ، اذ أمجد الشعر ، أغض من قيمة النثر ، فكل منهما فن جدير بالتقدير والعناية ولكني لا أحب أن تختلط التسميات فيسمى النثر شعرا والشعر نثرا .

نور الدين صمود

فاتحة السنة السادسة والعشرين

بهذا العدد تفتتح مجلة « الفكر » سنتها السادسة والعشرين وتواصل مسارها راجية لكتابها وقرائها وأحبائها موسما ثقافيا حافلا بالابداع الادبي والعطاء الفكري لكسب الرهان الحضاري .

بمناسبة مرور 23 سنة على وفاة أبي القاسم الشابي

تذكار واعتبار

بقلم : مصطفى خريف

من الاشياء التى تدعو الى التعجب والاندهاش (*)، انى مع صلة الصداقة المتينة التى ربطتنى بابى القاسم وهى صداقة اكدتها امور طبيعية كاتفاق السن والمواطنة وتعارف الاسلاف ، ومع امتداد المعاشرة بيننا بدون انقطاع ولا فتور ، ومع تقديرى الذى لا يحد لعبقريته ونبوغه ، وشعورى بانه يبادلنى العطف والحب مع هذا كله ، مضافا اليه انتحالى الشعر ومقدرتى على نظمه . لم ارثه بقصيدة ، لا فى حفلة الاربعين التى كنت انا القائم على اعدادها واخراجها ولا بعد مرور عام على وفاته ولا عامين ولا ثلاثة .... بل لم ارثه الا بعد مرور سبع سنوات بقصيدة تليت فى حفلة تذكاره ثم نشرت .

ويستطيع الباحث فى هذه الظاهرة الغريبة ان يعللها مثلا بشدة وقع المصاب او بالشعور بالغربة والانفراد وفقدان النصير ، فقد كنا معشر صحابته المصرين على الوفاء له نعد على الاصابع ، وكنا نرمى بتلك الصحبة كما يرمى الرجل بالشر والمروق عن المجتمع لقوة الدعية وخبثها وتوفر اسبابها ضدنا . ولقد كان المرحوم محمد البشروش وهو من خواص بطانة الشابى ولازمه عند مقامه بتوزر يحدثنى عن وقائع ومثل لاتقاد الفتنة ضدهما فى مدن الجريد ، منها ان بعض المتحمسين للديانة كان يتقرب الى الله بوضع نخامته فوق المقعد الذى يجلسان عليه خفية ، ثم يفاخر بعد ذلك بهذه المأثرة ...

وهذا مثال يسجل الحالة النفسية التى كان يعيشها انصار الشابى واصدقاؤه ، فكاننا نحن الاجدر بالرثاء والتعزية منه ومن عائلته ، ولقد كان الاستاذ محمد الحليوى معبرا اصدق تعبير عن احساسنا جميعا حينما افتتح

(*) الفكر س 3 ع 1 ص 35 سنة 1957

رسالته الى اثر اطلاعه على الفصل الذى نضرته لى جريدة « النهضة » فى نعى ابى القاسم وفى وصف اخر حديث لى معه وهو يحتضر فقال : « اعزيك ولا اتعزى »

نعم ، يستطيع الباحث ان يعلل حالة الافصاء (I) تلك بما يريد ، او بتركها بدون تعليل ، فهذا هو الواقع ، غير ان مرادى من هذا ان تلك السنوات السبع كانت طويلة جافة وصفت فيها ضجرى بابيات من تلك القصيدة :

ايه ابو القاسم المتوج بالمجد اما طال عندك الامد ؟
هل اتصلت الغداة بالملا الاعلى وبالمورد الذى ترد ؟
وهل اتخذت الرياح اجنحة طليقة لا يعوقها الجسد ؟ ...
.. تمطت السبع بيننا فمضت مملة ، كالقرون ، تتئد ....
كانها حملت صبابتنا وآدها من فراقك الكمد ....
فاعبر مداها ، فانت طيف رؤى لم تحوه حقبة ولا بلد
اشرق علينا ـ كما عهدتك ـ والا كليل فوق الجبين منعقد
وانشر ضياء على شبيبتنا وليأتها من نبوغك المدد

ولئن كانت السنوات السبع طويلة مملة عجفاء ، فقد تضاعفت اليوم ثلاث مرات وصار يفصلنا عنه ربع قرن من الزمان ، وتلك فترة كافية لانشاء جيل كامل من بنى الدنيا وفناء جيل اخر منهم ، ولقد وقع هذا بالفعل كما لا احتاج الى التاكيد ... فقد تغير المجتمع بذهاب جيل وقدوم جيل مكانه ، وتجلى لمن يرى مبلغ التحول الذى طرا على الافكار والنزعات والميول .

ولعل ذكرى صديقي الغابر قد نالت وسعها من مظاهر التكريم والتمجيد وضربت شخصيته القوية فى انحاء دنيا العرب واقتحمت مكانها بين اهل الفكر الخالدين الابرار ، فلعل عواصف الانفعال والانبهار قد هدات لتترك المجال للبحث التاريخى الخصيب عن مدى الاثر الذى تركه الشاعر فى الشعب الذى انبثق منه .

(I) يقال « افصى الشاعر » بمعنى انقطع عنه الالهام الشعرى وهو من افصى الصائد : لم يعلق بحبالته صيد ، وافصت الدجاجة لم يبق فى احشائها بيض ويقال ايضا اصفى بتقديم الصاد مثل اكدى واجبل ، وهو مأخوذ من الصفا والكدية والجبل لمن يحفر الارض بحثا عن الماء فيعترضه الصخر

والسؤال عن تأثير الشابي على التيار الادبي وعلى اتجاهات الشعر الحديث هو الموضوع الذي يصادمنا اول شيء بعد الفراغ من حركات التمجيد والذكريات العاطفية المحضة .

والظاهر ان مرور ربع القرن كاف للفراغ من قصائد الرثاء وخطب الاشادة والفخار لننظر : ماذا ترك لنا شعره الخالد نعم ، وترك معه غير الشعر من المقاطيع النثرية البديعة التي سوف تجمع وتنشر ، وترك لنا مع هذا روحه الدافق بالحياة والشباب ، ولكنني لم اسال من هذا ، بل اسال عن الاثر الواضح او غير الواضح الذي يجب ان نجده في مجموع المحصول الادبي لمدى ربع قرن ببلادنا التي انجبت هذا المارد الجبار ، بل اسال عن تلك الموجة الكاسحة التي احدثها انطلاق ابي القاسم الشابي فوق عباب زاخر من ادب التقاليد القديمة وبقايا الاحقاب البالية ونفايات القرون .

هذا سؤال له اهمية علمية وعملية عظيمة ، وله اهمية انشائية وتوجيهية اعظم فهل آن لنا ان نستبدل « لجنة ذكرى الشابي » وهي لجنة وجدت وتكررت مدى ثلاثة وعشرين عاما في صورة واحدة ... « مملكة كالقرون تتشد .. » وقد تمرس بها الناس حتى صارت عادة وتقليدا متعارفا معهودا ، بل الاعجب ان موادها وخطباءها وشعراءها وحضورها ، كل ذلك كان صورة طبق الاصل من حفلة الاربعين التي وقعت عام وفاته .. نسخة ذلك كذلك ، والحمد لله على ذلك . فهي « مناسبة تصاد وفرصة تغتنم » ليظهر هذا الشاعر وذلك الخطيب ، ويذاع الخبر والاسماء على الناس .

ولقد ــ والله ــ وقع في حفلة الاربعين التي كنت ناموسها ان اقتحم التخت شاعر ــ مرحوم ــ عرف بمناوأته للشابي في حياته ، اقتحم الناس وطلب مجالا ليلقي قصيدة في رثائه وتمجيده فارخى له العنان لينشد قصيدة افتتح اكثر ابياتها بقوله « يا زميلي .. يا زميلي .. » ولا حاجة للقول بان هذا السيد يعمل على توطيد اسمه ودعم عنوانه كشاعر ونابغة يدوي صوته ويذكر في كل ناد ...

هل آن لنا ان نعوض تلك « اللجنة » التقليدية بلجنة موضوعية صامتة ، اعني مفكرة ، قوامها رجال يدرسون الاثر التوجيهي الذي احدثه الشابي في ادب الاجيال التي توالت بعده في المجتمع التونسي والافريقي وفي الادب العربي بصفة عامة ؟

اما لهذا العمل الرصين الخصيب رجالا من ادبائنا المضطلعين اليوم بالحركة الادبية والمسؤولين عن تجديد الروح الفنية في الشباب ، فذلك امر الواقع

لا شك فيه ، واما انا فحسبي ان احدث هؤلاء الرجال كما يقول لبيد « احاديث القرون التي مضت » ... احدثهم بصفتي معاصرا لانبثاق نجم ابي القاسم .. احدثهم حديث الماضي : كيف تلقى المجتمع الادبي اوائل شعر الشابي ، وكيف كان جيل الشابي يعرف الادب والشعر وينتج الادب والشعر ...

وحينما اتحدث عن الظروف المباشرة لظهور الشابي سيعذرني القارىء اذا انا تحدثت عن نفسي قليلا ، فهذا الحديث الذي يتعلق بي مع كونه لا ينيلني فخارا ولا تيها ، هو مفيد لتبيين الوان الطموح التي تتراءى للشباب في ذلك الزمن السحيق ...

ووضعا لحوادث التاريخ في مكانها اذكر ان للصحفي الشهير السيد الطيب ابن عيسى صاحب جريدة « الوزير » دورا مهما وان لم يكن ذا اثر عميق ، فهو قد ملأ فراغا وشغل اذهانا لا يستهان بعددها .

وكما انه لكل شيء سبب ، فان سبب اضطلاع جريدة الوزير بزعامة الحركة الادبية ما بين سنة 1925 و 1930 كان سياسيا ، وذلك لاختلاف وقع بين رجال الحركة الدستورية بزعامة الشيخ الثعالبي رحمه الله وبعد الحرب العالمية الاولى ، فهذا الشقاق اوجد تشكيلة متفرعة عن الحزب سميت « الحزب الدستوري المستقل » كان من زعمائها صاحب الوزير وآخرون ، ولكن الحزب الاصلي اكتسح هذا الشق وضيق عليه الخناق ، فكانت جريدة الوزير من ضحايا ذلك الاكتساح ورأى صاحبها ان يبعدها عن النطاق السياسي ووجد في طريقه شابا صغير السن ذا نشاط ادبي وفني كبير ، وكانت ميوله تطمح الى حضور حفلات الطرب والتمثيل فتبرع للجريدة بالقيام على اشغالها من طبع وتصحيح وتحرير في مقابل منحه بطاقات الاستدعاء المجاني الذي تتلقاه الجريدة للحفلات ، وان يحرر لها القسم الادبي والمسرحي والفني ويكون لها مندوبا .

وصارت الوزير في يوم من الايام مرآة للادب التونسي ، تظهر منها اعداد ممتازة يشارك فيها « امير الشعراء » خزنه دار وسعيد ابو بكر ومحمد الفائز القيرواني وصالح سويسي ، وهذه طبقة الكبار ، اما الصغار الناشئون فعلى راسهم المرحوم شاعر الشباب محمود بورقيبة وجلال الدين النقاش ومصطفى خريف ومحمد الدهماني والهادي العبيدي الخ ...

ويجدر بنا ان نتساءل : هل احدثت هذه الحركة تجديدا فى الاسلوب للشعر التونسى ؟ نجيب اولا بان مدارك مدير الجريدة لم تكن متعمقة فى الادب ومثال ذلك انه نشر اقتراحا ليجرى فيه مسابقة بين الشعراء ، ونشر ابياتا قديمة طلب من القراء تشطيرها وتخميسها وتسديسها وتسبيعها الى تعشيرها ... وثانيا ان الشاب المسيطر على تحرير الجريدة يشبه المدير سوى انه اصغر منه سنا ، فالاثر سلبى اذن ...

ويهم على ذكر ذلك الاقتراح ــ ان نثبت بان الشعر التونسى اذ ذاك كان لا يزال متاثرا فى طبقاته العليا بطرق شعراء النهضة الاولين كناصف اليازجى ومحمود قابادو ، وهى طريقة العناية بالزخرف اللفظى ، وكان ادب التشطير والتخميس والتطريز والتوريخ والمعارضة سائدا تلك الاجيال حتى ان امير الشعراء خزنه دار كان يترصد للقصائد العظيمة التى تدرجها صحافة الشرق فيخمسها او يشطرها مثل قصيدة فؤاد الخطيب «الله اكبر فالظلام قد علموا» وقصيدة حافظ ابراهيم « لا رعى الله عهدها من جدود » وقد ظل ذلك دابه رحمه الله حتى شطر « البردة » .

انا رجل مخضرم ، فلا تطلبوا منى السخرية بهذه المناهج ، واذا لم اشطر ولم اخمس فقد عارضت مرة او مرات ولكنى اذكر ان لتلك الالوان من الادب جوانب فنية لا ريب فيها ، وعندها مجال للابداع والاحسان يعرفها كل منصف الا ان الذين قاموا بها فى عهود جدتها كانوا يستظهرون عليها بقوة الثقافة الادبية وسعة الاطلاع على اساليب اللغة ومعرفة اسسها القديمة ، بينما كان صغار الشبان اذا هم يتطاولون الى انتحالها لا يكادون يبدعون شيئا بسبب ضعف مداركهم فى اللغة والادب .

على ان التهافت على التلاعب بالالفاظ غير مامون العاقبة ، فقد عثر فيه فطاحل الادب كابى العلاء المعرى وابى القاسم الحريرى وصفى الدين الحلى وهم من هم فى قوة الملكة والطبع الفنى ، فهل عجيب ان يخفق فيه من هم اقل منهم فضلا عن شبان صغار ضعاف المدارك والاطلاع ؟

الا انه من الانصاف للتاريخ ان نشير الى ان النزعة لتجديدية فى الشعر التونسى الحديث قد سبقت ابا القاسم الشابى ، وان محاولات سعيد ابى بكر

ومحمد الفائز القيرواني وان لم تكن جذرية تتناول روح القصيــدة واتــجـاه نسقها ، فقد كانت نسمات الابداع والبحث عن الجديد تخفق على ابياتها .

وظهر ابو القاسم الشابي بقصيدتين احداهما من الشعر المنثور والاخرى من المنظوم ... فكان لصداهما دوى كبير .

ولقيته بمكتبة الخلدونية ، وكنا كثيرا ما نتلاقى هناك ونتصـاحب عـنـد الخروج من المطالعة ، وكان يسبقني في دروس الزيتونة .

والحديث يجرى بيننا عن قصائد شعراء المهجر الامريكي العرب .

واذا اسعفت الظروف فسيكون لي كلام آخر عن المجتمع الادبي بتونس اثر ظهور ابي القاسم الشابي سلام الله عليه وصلواته .